بركة ساكن

سماهاني

رواية

سَماهانی

بركة ساكن

سماهاني

رواية

مسكيلياني

الكاتب: بركة ساكن

عنوان الكتاب: سماهاني

خط الغلاف: الفنان سمير قويعة

صورة الغلاف: الرسام النمساوي Wolfgang Taner

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-833-95-9

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: (+216)21512226 أو (+216)93794788

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

«الُحبُّ ليس لديه وازع»

مثل سواحيلي

«يجب أن يُقاوم الشر بقوة الخير والحب ؛ عندما يدمر الحبُّ الشرّ، يقتله إلى الأبد. أمّا القوة الوحشية فلا تستطيع أن تدفن الشر إلاّ بصورة مؤقتة، لأنّ الشر بذرة عنيدة، حالما تُدفن تنمو في السر، وتظهر مرة أخرى وهي أكثر بشاعة».

«شيرنو بكار، حكيم فولاني باندياقرا،
في نصيحة لتلميذه آمادو همباتي با».

الجنحيم

«قُبيل الصباح ذهب عددٌ من رجالنا ليروا القتلى من أعدائنا، حيث سقط أكثر من ستمائة منهم، وأسلحتهم من السهام والأقواس وكذا طبولهم وفؤوسهم إلى جانبهم. ومما زاد في فتكهم أنهم كانوا مشدودين بعضهم إلى بعض. مكثنا شيئًا يسيرًا من الوقت. ومع الساعة الثانية صباحًا ظهر لنا الأعداء ثانية، وكنا على أتم الاستعداد للمواجهة. لم نتعرض لهم حتى وصلوا قريبًا من مخازنهم وفي أقل من سبع دقائق فتحنا عليهم النار وأنهينا كل شيء. فرّوا مخلّفين وراءهم مائة وخمسين قتيلًا. أما خسائرنا فلا تذكر، قُتِل منّا اثنان فقط. عُدنا إلى مخيمنا بعد نزال ومطاردة دامت ساعتين.»

استطاع الساحرُ الملقّبُ بهاروت أن يُثبِّت عمر السلطان الذي باركه الربّ مؤخَّرًا، في 54 عامًا وشهرين وأسبوع واحد وثلاثة أيام وخمس ساعات فقط، وهذا اللَّقب التوراتي-هاروت- أطلقه عليه السُّلطان سليمان بن سليم نفسه، تيمّنًا بالمَلَكيْن المشهوريْن في شؤون السحر وألعاب الروح؛ هاروت وماروت. أمّا عدد السنوات فهو مهمٌّ جدًّا حسب ما يؤكّده هاروت؛ يماثل عمر إبليس عندما رفض أمر الله بالسُّجود لمخلوق أنشأه الربّ من طين أخذه من مستنقع في الجنة، ذلك المخلوق الذي سُمِي آدم، وفي رواية أخرى «الإنسان»، متعلّلًا بأنه شخصيًا مخلوق من نار، والإنسان أصله من طين المستنقع، وشتان ما بين العنصرين!! ولا حاجة إلى التذكير بأنّ إبليس هو الراعي الأساسي لمؤسسات السحرة على الأرض، ولاحقًا في الجحيم، وتم ذكر ذلك في كتاب الجلجلوتية الكبرى، وفي بعض النصوص الإفريقية التي وُجِدتْ في كُهوف بالهضبة الأثيوبية غير بعيد عن مدينة قُندر، مكتوبة باللغة الجعيزية القديمة.

وبهذا الرقم الزمني، لمن يعرفُ شفرات الأسرار، يستطيع أن يعيش خمس مرات أضعاف عمره الذي كتبه له الله في اللوح المحفوظ عندما كان نطفة في رحم أمه، أو كلمة في خاطر الرب، وما دام هذا السرّ محظورًا على الآخرين، فعلى السُّلطان ألاّ يتحدث عن عمره الحقيقي، وألاّ يكتبه، بل عليه دائمًا أن يخدع مواطنيه، وأن

يشككهم في حقيقة عُمره، وهذا ما وجب التنويه به في هذا النص، لأنّه سيتناول في أحيانٍ كثيرةٍ سِيرة السُّلطان سُليمان بن سَليم الذي باركه الربّ مؤخَّرًا، الحاكم الأبدي والأوحد لجزيرة أنغوجا وبيمبا وما بينهما وما جاورهما، وحسَبَ ادعائه الشخصي فإنّه يحكم كل ما في السماء ماعدا الرب، وكل ما على الأرض ماعدا الصين لبعدها الجغرافي.

ويسرُّ الراوي أيضًا أن يسردَ قليلًا عن مكان حدوث الرواية، ونشأة الحكايات بها:

في العام 1652، رستْ سفنٌ شراعية عملاقة قادمة من عمان، على ساحل ما يُسمّى أنغوجا -في وقت ما من ظلمات التاريخ- وزنجبار حاليًا، وأصل الإسم -زانج بارب- أطلقه عليها بحارة من الفرس؛ سُكارى وعشاق وشعراء، قدموا قبل مئات السنين بالصدفة البحتة إلى المكان وفوجئوا بسكانه السود، وغاباته الكثيفة، وحيواناته المفترسة، وأشجاره التي تقطر خمرًا، وعيّنة من الذباب الليلي تمتص الدماء، عُرفت مؤخَّرًا بالبعوض، ولسبب أو لآخر لم يطب لهم المقام بها، فعادوا إلى بلاد فارس، وكل ما أخذوه من هذه الأرض كانت الحكايات السحرية التي تخيَّلها البحارة أنفسهم وصدقوها ونسبوها إلى المكان وساكنيه السود، حيث مثَّل جدارُ اللغة والخوف المتبادل عازلا بين الشعبين فانطلق الخيال لشغل الفراغ. وكل الذي تركه البحارة الفرس من أثرٍ هو جملةٌ فارسية واحدة وهي زانج بارب، أخذت تشكلها الألسن والأمزجة والدهور واللغات حتّى استقر بها الحال في صوت: زنجبار.

كانت السفن العمانية العملاقة تحمل جنودًا فقراء، وتجارًا مغامرين، وبعض البحّارة ليس من المحتمل أن يركبوا البحر مرة أخرى، الجميع كانوا يعلمون أنهم في رحلة ذات اتّجاهٍ واحد دون عودة، وهذا ما قاله لهم قائدهم العسكري: قد يعود أبناؤكم الخلاسيون في يوم ما إلى عمان، إذا استطعتم أن تحاربوا العدوّ بشدة، وتسيطروا على الجنة التي أعدكم بنعيمها وحورياتها السوداوات، أو الجحيم الذي تُحرقون فيه إذا تقاعستم. كان يقصد بالعدوّ السكّان الأصليين الذين صورتهم مُخيّلة الرحالة الأوائل وحوشًا أكلة للحوم البشر وسحرة ملعونين والبرتغاليين الذي يحتلون البرّ الإفريقي والجزر القريبة من الساحل، وكعادة البرتغاليين كانوا مشغولين بالبحث عن الذهب والفضة والماس، يتسلّون بصيد الحيوانات من أجل جلودها الفاخرة أو أنيابها، وبالأعشاب التي تستخدم في العلاج والسحر، أما أوقات فراغهم فهي لنكاح الزنجيات الردفاوات وغير ذوات الأرداف أيضًا، ولعب الورق وشرب الخمر الذي يستخلصه الزنوج من بعض أنواع النخيل، والدعوة إلى دين السيد المسيح؛ أبينا الذي في السماء، أو افتعال حروبٍ صغيرةٍ غير متكافئة مع السكان المزعجين، غالبًا ما تنتهي بقتلهم أو استعبادهم.

ويمكن القول، إن الجيش العربي العماني، فاجأ الجميع- سكانا وبرتغاليين- مفاجأة تامة، عددًا وعتادًا وروحًا قتالية؛ قوةً وإيمانًا، فأُجبر البرتغاليون على الانزواء في عمق البر الإفريقي فيما عُرف لاحقا بأنغولا، وتركوا السواحل للقوة العربية الفتيّة بأسلحتها الفتاكة جدًّا ومن أبرزها انعدام الأمل لدى أفرادها في العودة من

حيث أتوا، وهذا هو اللواء الذي لا يُقهر، فقد استخدمه فيما قبل الأمازيغي طارق بن زياد واحتلّ به شبه جزيرة أيبيريا، أما السكان الأفارقة الأصليون فقد أصبحوا العُشب الذي أُوقد نارًا ليطهو عليه العمانيون طعامهم في الجنة الموعودة؛ أنغوجا.

ويودّ الراوي أيضًا، أن يقترح عليكم قراءة فقرة من كتاب مذكرات سالمة بنت سعيد، التي عُرفت في ألمانيا باسم إميلي رويته، وهي ابنة أشهر السلاطين الحضرميين الذين حكموا زنجبار، ولقد هربت من قصر والدها في عام 1867 مع التاجر الألماني هاينريش رويته وتزوّجته في برلين وعاشت معه. والكتابُ هو أحد المصادر المعرفية المشبوهة للسرد في هذه الرواية، ويمكنكم كذلك تجاوز الفقرة إلى الفصل الأول من الرواية مباشرة، وعنوانه «البنت تعشق»، إذا أردتم بالطبع.

اختار الرواي هذه الفقرة من كتاب الأميرة:

«وثمة حالة أخرى لم تكن أقل إثارة للاستياء لدى جميع العرب. عاقب سيدٌ يقع بيته قرب القنصلية الفرنسية مباشرة، عبده العنيد بالعقوبة التي استحقها، ولأن الزنوج جبناء بوجه عام، ولا يستطيعون تحمل الألم بهدوء، فقد أحدث العبد الذي لا يصلح لشيء، ضجيجًا فظيعًا، وتسبب من خلال ذلك في تدخّل متعجرف من قبل القنصل الفرنسي، لم يكن هذا الرجل نفسه حواريًا مخلصًا بالتأكيد، ولكن يبدو أنه يؤمن بمبدأ:

قلّدوا أقوالي وليس أفعالي.

كان يعيش مع عبدة زنجية اشتراها بنفسه، وولدت له ابنة بسواد

القار، وجدت بعد ذلك ملجأ في الجمعية التبشيرية الفرنسية. وقد جَرَح التدخل من قبل رجل كهذا مشاعر العربي جُرحًا عميقًا، فردّ عليه باختصار:

- على الواحد أن يهتمّ بشؤونه الخاصة، وليس بشؤون شخص غريب.»

مذكرات أميرة عربية، ترجمة سالمة صالح، منشورات دار الجمل، ص 267.

ومن قرأ الفقرة السابقة، عليه أيضًا أن يقرأ هذه الفقرة من مذكرات «مغامر عماني في أدغال إفريقيا» والكتاب عن حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي المولود في 1840 والمتوفى بالملاريا في 1905 المعروف بتيبو تيب وهي تسمية قائمة على محاكاة صوت الرصاص، ويعرفه الأفارقة أيضًا باسم الضبع الأرقط، وهو من القادة العمانيين الشرسين، ولكن سيرته في هذه الرواية عارضة، كما أنكم ستكتشفون أنّ التاريخ غير منضبط فيما يخصه ويخص غيره، فالرواية لا تُعنى بالتاريخ إنما بالإنسان.

«قُبيل الصباح ذهب عددٌ من رجالنا ليروا القتلى من أعدائنا، حيث سقط أكثر من ستمائة منهم، وأسلحتهم من السهام والأقواس وكذا طبولهم وفؤوسهم إلى جانبهم. ومما زاد في فتكهم أنهم كانوا مشدودين بعضهم إلى بعض. مكثنا شيئًا يسيرًا من الوقت. ومع الساعة الثانية صباحًا ظهر لنا الأعداء ثانية، وكنا على أتم الاستعداد للمواجهة. لم نتعرض لهم حتى وصلوا قريبًا من مخازنهم وفي أقل من

سبع دقائق فتحنا عليهم النار وأنهينا كل شيء. فرّوا مخلّفين وراءهم مائة وخمسين قتيلًا. أما خسائرنا فلا تذكر، قُتِل منّا اثنان فقط. عُدنا إلى مخيمنا بعد نزال ومطاردة دامت ساعتين.¹

مغامر عماني في أدغال إفريقيا، ترجمة محمد المحروقي، منشورات دار الجمل. ص 51.

البنتُ تعشقُ

جلس المندي على مقعده يتنفس الصُعداء، ثم أخذ يمزق بغضبٍ صورةَ عارضة الأزياء الأوروبية ويرمي بها على الأرض، حينما أفزعته ضحكة شامتة مجلجلة صدرت من فم متسع للحم أسود مربوط بالجنازير قرب الكير، رشقه قارون بنظرة ساخنة اخترقت قلبه وجعلته يبتلع ضحكته، ولم ينس المندي العجوز الغاضب في نهاية اليوم أن يضع خطين جديدين بمكواة الحديد المُحمرة، وتُستخدم أساسًا لتشكيل الفضة، على ظهر الزنجي الذي أصبح مثل شبكة صيد مهملة من آثار الكي ومشق السياط.

تعشقُ الأميرة المباركة من الربّ مؤخّرًا الروائحَ التي تفوحُ منَ السوق، وتُثيرها إلى درجةِ الطرب رائحةُ جوز الهند وهو يتعفّن، عندما تخلطه الريح مع عبق القرنفل والزنجبيل الطازج والليمون، وتحشرها في فتحتي أنفها الصغيرتين. تحبّ ألوان المانجو المتدرجة من الأصفر الداكن إلى الأخضر أو الذهبي أو الوردي أو أيّ لون آخر. إنّها مغرمة بكل الألوان التي تتزين بها ثمار المانجو الشهية، تذكّرها بطفولتها السعيدة، بجنون اللعب في الحقول ومطاردة الحشرات والعصافير والقردة الماكرة، وتذكّرها بالتنوع اللوني الغريب لثدييها وهما ينموان. وتستطيع الأميرة التي رضي الربّ عنها مؤخّرًا، أن تتبع سليل الروائح، وتتعرف على موقع أكشاك الخضار، ودكاكين العطور والزيوت النفيسة المنتشرة على جانبي الطريق الذي يقسم السُّوق إلى قسمين؛ شرقي وغربي، وينتهي بسوق النخاسين، ولكن دائما ما يقودها أنفها إلى مصدر حريق الكبريت الذي يستخدمه الصائغ الهندي العجوز لمعالجة الفضة والذهب الخام.

أصبح عشقها للمجوهرات مرَضيًّا بعد أن قَبِلَ زوجها العربيد بفكرة ألاّ يتخذ نساء غيرها، وقد قام ببيع كل جواريه الكثيرات؛ الرومية الحسناء، الإثيوبيتين الشهيتين، الأنغوجاوية الردفاء، القبطية التي تتميز عن الأخريات بمزاجها المتقلب وجنونها المحبب لديه، الهنديتين الثرثارتين ذواتي النهود المستديرة كثمار البرتقال، والطفلة

الصقلبية الغربية التي اشتراها مؤخّرًا من عمان، ويُقال إنّها لا تنتمي لغير الجن، فقد أكّد النخاس العماني العجوز أنه اصطادها من المحيط الهندي مباشرة.

كانت تكرههن جميعا وتحقد عليهن، وإذا كان بإمكانها أن تسقيهن بولها لفعلت: «كن يملأن لي القصر ضجيجًا ودعارةً، وأفخاذًا فاجرةً من كل أنحاء الكون بكل الألوان، إنني أكرههن، أكرههن، أكرههن، تبا لهن ولي وله! سأشتري بأثمانهن زينتي من ملابس وحليّ وأحذية» تريد أن تنتقم منهن ولكن هدفها الأكبر هو أن تصبح أكثر جاذبية في نظر زوجها الذي لم تحبه في يوم من الأيام، ولكنها تريد أن تحيطه بغوايتها، بجمالها، وأن تتزيّن بداعراته الفاسقات وكأنّ كل قطعةٍ من الحليّ واحدةٌ منهنّ، أو كأنّها تودّ أن تكونهنّ جميعًا وتستمتع بإذلالهنّ دون وعي بذلك، وإن كانت تعلم جيّدًا أن زوجها يحب كرسي العرش أكثر مما يحبّها هي.

تعشق الأميرة التي باركها الربُّ مؤخّرًا ضجيجَ السّوق، نداءَ الباعة الجوّالين، أجراس النخاسين الآتية من سوق الأسرى، صوت الأذان الفجائي، نهيق حمير التجار والمتسوقين، طَرقات الحدادين، صرير المناشير وهي تعمل بجد في الخشب، جعجعة المطاحن اليدوية التي يديرها زنوج غلاظ مملوكون بأياديهم الجافة المتشققة الحزينة، ثغاء الأغنام المساقة للذبح في أسواق الماشية وراء الجزارة وسوق الخضار. ولكنها تفضّل صوت المغنية الأنغوجاوية الشابة أوهورو على كلّ هذه الأصوات، بل تفضله على كل مُغنّي الفرقة الموسيقية الذين درّبهم والدها في مصر وأتى بهم إلى الجزيرة ليردّدوا موسيقى

غريبة مائعة. هي تحب موسيقى أوهورو، تلك الزنجية الحرّة في كامل جزيرة أنغوجا، بالإضافة إلى العجائز المنتشرين في الأزقة وقارعة الطريق يتسولون الطعام ويلتقطون الفاكهة الفاسدة والخضار المتعفنة كغذاء وحيد لهم، وهم الذين تم عتقهم من العبودية بعدما أصبحوا غير منتجين ولا يستطيعون عمل شيء مفيد للسادة، بل أصبحوا عالة عليهم، بسبب احتياجهم المتواصل للأكل والرعاية الصحية.

تحب أغنيات أوهورو المتوحشة، إيقاع طبلها المُرعب ذي الدعامات الثلاث، تحب حريتها التافهة في ترك صدرها عاريا دون أي سترة، يعجبها ثدياها ويملأنها بالغيرة في وقت واحد، ثدياها الناهدان الأسودان مثل فاكهة مسحورة صبغها الظلام بلونه، تظلّ تحملق فيهما دون خجل بعينين جاحظتين شرستين من خلف غطاء وجهها الشفاف؛ نهدان لم يمسسهما إنس ولا جان، بل لم يستطع أن يقترب منهما خيال زوجها الماجن. كانت دائما ما تقف في الركن الصغير الذي ينتهي إليه سوق الأسرى، ويبدأ عنده سوق الصاغة الهنود، المهرة، تحت عمائمهم الكبيرة تقبع رؤوسهم مملوءة بالكلام وأسعار المصوغات والجمل الجيدة التي تُستخدم للمساومة وانتزاع المال من حقائب السيدات، تقف الجميلة هناك شبه عارية، تحيط أسفلها بجلد التيس، لا تفضّل تلك الأغنية لأنها عدوانية في نظرها، وتُشعرها بالخجل من نفسها، وهي أغنية «بلادي جنة المستعمر وجحيم مواطنيها الأصليين»، ولكن الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا تتسامح بعض الشيء، أو يعجبها إيقاع أغنية أخرى، ولو أن كلماتها مؤلمة جدًّا، إذ تصف فيها المغنية أوهورو هجوم النخاسة على

قريتها، واغتصابهم النساء وسبيهنّ، وكانت تحفظ كلماتها عن ظهر قلب بلغتِها السواحلية ولكنةِ قبيلة كايموندي:

«كنت بين الأشجار..

أتناول طعامي..

مختفيا..

جاء فتى إلى المنزل..

إنه والد الطفل..

وذهب الرجال إلى نياموزيزي.

وأنا أراقبهم..

كان لرجل أسرة من البنات..

وجاء آخر وأغوى واحدة منهن..

اختارهن، ثم أجهز عليهن..

وجاء آخر وأغوى كل واحدة منهن..

اختارهن، ثم أجهز عليهن..

وتُركت امرأة على وشك الوضع».

وعندما تشرع المغنية في الرقص، بعد هذا المقطع مباشرة، يسحب سُندُس، الأسير الخَصِيّ خادم الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا، مِقود الحمار الذي تقبع على ظهره في جلال وعظمة كأنها ملكة كوشية في عهد سُليمان الحكيم، غارقةً في حُليّها الذهبيّ، وجُلبابها الفضفاض و«كينغو»، ويتّجه بها نحو دكان الصائغ الهندي الشهير الملقب بقارون، بعد أن ترمي للمغنية بحفنة من ريالات ماريا تريزا

النمساوية، نعم أن ترمى لها، طالما يُشاع أن ملامسة أوهورو قد تؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه، فالسحر الأسود هو أقل ما يصاب به من يلامسها، وهذا واحد من الأسباب التي أبعدت عنها النخّاسة صائدي البشر الذين لا يرون فى المرء سوى ما يساويه سعره في السوق. تلتقط المغنية الحسناء الريالات من الأرض بسرعة، ثم تضعها في جيب سري مخاط بحنكة على سروال من جلد التيس تلف به مواضع عضوها الأنثوي الخاص، ثم تشكرها قائلة:

«أسانتي سانا.»

الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، لا تحب أن ترى الفتاة ترقص، لأنّها تبدو أكثر عريا وفحشا وهي تؤدي حركات وحشية، ويظهر بصورة مخجلة ما تحت سروال جلد التيس الرخيص المدبوغ بالقرض، وهي لا تحب أن ترى ذلك، ولا أن ترى البحارة المحرومين، والمواطنين الخبثاء، والعجائز المصابين بالعمش الذين يظنون أن مشاهدة الشيء نهارًا تساعد في تحسين أبصارهم، والسكارى والكثير من الصعاليك، يتجمهرون حولها، للاستمتاع بكلّ شيء ما عدا الرقص. أمّا الفتاة فتظلّ ترقص كمحارب مجنون، أو درويش مجذوب، أو نسر كاسر ينقض على أرنب بري، وهذا لا غبار عليه، ولكن كان عليها أن تحافظ على ستر جسدها من أعين المتطفلين: «إنني أكره هذا النوع من التبرّج المخجل، تبًّا.. إنها تحمي نفسها بتلك الرقصة وهذا المظهر الجنوني الشاذ.» ويمكن القول إنّ الأسطورة التي حاكتها حول نفسها، هي التي حمتها من النخاسة والرجال المصابين بالشبق الدائم نتيجة تناولهم الزنجبيل والقرنفل

ووقوف القانون والعُرف بجانبهم لامتلاك ما شاءت غرائز الشبق الذكوري من نساء وغلمان.

تقول أسطورتها:

«كل من يلمسني..

ينتقل إلى رأسه شيطان من الجن، كبير الحجم، لا وجه له، ولكنه لا يُرى..

ويبقى هنالك، وقد لا يستطيع أن يحرره منه حتى أمهر السحرة المعتصمين بالكهوف البعيدة في حالة صيام دائم لا يتنفّسون..

ومن شاء أن يجربني فليفعل، من أراد أن يبيعني للسفن التي تمخر المحيط نحو بلاد البيض فليفعل..

ومن أراد أن يفك فستان جلد التيس من خصري فليفعل، إذا كانت رغبته أن يصاب بمس من الجن لا علاج له: والآن أرقص لكم رقصة الشيطان الذي تخافون منه أكثر، الذي سيلتهم أرواحكم كما تلتهم النار العشب الجاف.»

قيل عنها إنها استطاعت بالقليل من الشر، والكذبات الكبيرة التي لا يمكن التحقق من صحتها، أن تحافظ على حريتها كاملة.

كان قارون الصائغ الهندي الماكر في نعومة، الطيب في حذر، الكريم بحساب من أجل الحصول على ثمار كرمه أضعافا مضاعفة، ينتظر الأميرة كعادته في كل سبت من أول الشهر القمري، وهو يوم سوق المجوهرات، اليوم الذي ترسي فيه عادة السفن العملاقة القادمة من بلاد الفرنجة، حاملة معها أخبار الموضة الفرنسية وما

استحدث من لباس وزينة عند بنات الأصفر المتحضرات.

كان متجر مجوهرات الهندي صغيرا، ولكنه يحتوي على كل شيء مهمّ من أجل أداء العمل. في ركن قصي على الأرض يجلس الخادم الذي يعمل في نفخ الكير، رجل كثّ الشعر، تميزه عضلات مفتولة بارزة، ويكشف نصفه الأعلى العاري عن صدر عريض خال من الشعر، أو لعلّ الرماد والأوساخ المتراكمة عليه لم تجعل رؤية شعر صدره ممكنة، يلف أجزاء جسده السفلى بقطعة جلد بنية متسخة، يعمل في صمت، ويستطلع أحيانا بعينيه الكبيرتين الجاحظتين كل الاتجاهات وهو يواصل عمله، يمعن النظر إلى سُندُس النظيف الناعم الذي يرتدي ملابس ملونة من الحرير الغالي، وفي أذنيه حلقتا ذهب كبيرتان: «يا له من أسير مُنعّم مخصيّ حقير! أما أنا فعبارة عن قطعة لحم سوداء كبيرة متسخة مربوطة بجنازير من الحديد أوتاودها مغروسة عميقا في الأرض، ولا يمكن أن ينتزعها حتى الفيل البالغ العملاق.»

على أرفف كثيرة في متجر الهندي توجد خزائن صغيرة مغلقة، وهي مثبّتة جيّدًا على الرفوف الحديدية، ولوحات زيتيّة لبعض الآلهة الهنود، ويبدو الإله شيفا راقصا في الحائط المواجه للباب، حيث يمكن رؤيته عند الدخول، كما يمكن ملاحظة سورة الفلق المأخوذة من القرآن الكريم مكتوبة بماء الذهب، معلقة فوق صندوق كبير عليه طبلة، وخلف مجلس الهندي مباشرة تُوجد شجرة نسب السلطان والد الأميرة التي باركها الربُّ مؤخّرًا، ذلك أنّ وضعها في كل الدكاكين والقصور إجباريٌّ بأمرٍ من السلطان سُليمان بن سليم

الذي باركه الربّ مؤخّرًا أيضًا..

ينتظرها قارون، وفي جعبته كالعادة كلّ ما يثير غرائز الشراء عندها، من حكايات ومجوهرات نادرة، أتته من خلف البحار الشاسعة والمحيطات التي تنتهي عند أطراف الكون البعيدة، حليّ حصل عليها من أجلها وحدها، أرسلها له شيخُ صُيّاغ فرنسا بنفسه، هي تعرف أنه يكذب ولكنها تُصدّقه، بل تحتاج إلى كذبه، تحتاج إلى حكاياته المبتكرة المدهشة، فتلك الحكايات مفيدة لإثارة غيرة صديقاتها المتبجحات، وستدفع مقابل تلك الحكايات بعض الريالات الإضافية لتجعل المنتج أكثر قيمة. هي تفضّل كذباته الكبيرة جدًّا، القصص الخيالية التي ينسجها حول حُليّه ومصادره وتاريخه وجودته وجماله، وما تدفعه له عادة يساوي ثمن الكذبة مُضافًا إلى ثمن الحُليّ الرخيص المبتذل. تهون النقود مقابل شهيّة إثارة حسد الصديقات البائسات المتبجحات وغيرتهنّ، بنات ونساء ومحظيات طبقة السادة ملاك الأراضي والمزارع وتجار الرقيق والقرنفل الأثرياء، تهون الريالات مقابل شهقة عميقة تطلقها إحداهنّ، ويا ليته يحكي لها القصة التي تجعل سيدة ما تموت من الحسد والغيرة، ولكن قارون جهّز لها هذه المرة مفاجأة أخرى، إذ أخرج من صندوق صغير مطليّ بماء الذهب، صورة صغيرة لسيدة أوروبية في كامل زينتها، ترتدي فستانا من الحرير، وتقف بطريقة استعراضية كأنها هي طائر الطاووس يبدي بهاء جسده وعظمة وجوده في الكون الذي ما خلقه الخالق إلاّ من أجل رياشه الجميلة وخيلائه المتفرد وجنون عظمته، لا غير، وكل ذلك لا يهم، كما قال لها، ما يهم هو العقد النادر النفيس الذي يحيط

بعنق السيدة، أشار إليه بإصبع عليه خاتم كبير من الذهب تتوسطه ماسة كبيرة أصليّة حسب ادعائه.

-إنه عقد الدوقة ماريانا فون بادوفا، الملقّبة بأميرة الأميرات، أظنّكِ سمعت عنها كثيرا.

قالت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا في بؤس:

-لا.. للأسف لم أسمع بها، من هي الدوقة ماريانا؟

قال وهو يقلب الصورة برفق:

-إنها سيّدة المجتمع الإيطاليّ، ومعشوقة أوروبا كلها، بها تُيّم أعظم الشعراء الإيطاليين والإنجليز، وكتبت عنها مجلدات من الشعر الرصين والأغنيات، وأغنية البحارة المشهورة التي يرددونها هنا، هي من أجلها.

شهقت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا شهقة إعجاب، وهي تحثّه على إكمال الموضوع:

-أها أها....

عبثت أنامله المذهّبة الخفيفة مثل أنامل لص محترف في الصندوق بضعَ ثوانٍ، لتخرج بعقد لامع شهي، استعرضه في وجه الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا بطريقة احترافية. مرّره أمام قناع وجهها الشفّاف، وهو يقول:

-هذا هو العقد الذي كان في عنق الدوقة ماريانا العظيمة، نادر وفريد ومصنوع من الياقوت الأصلي، وهذا الشيء اللامع في الوسط هو حجر من الماس الأسود، وهو أكثر ندرة من لبن

العصافير وبول الملائكة.

قالت وهي تمد يدها لتتفحصه:

-كيف تحصلت عليه؟

قال مبتسما، وبدت أسنانه القديمة المتآكلة الصفراء تشع إشعاع أحجار الذهب الخام:

-القراصنة، القراصنة أيتها الأميرة التي باركها الرب، القراصنة يأتون بكل شيء، يقول أهلنا في الهند: إنّ القراصنة هم الذين أتوا بالمحيطات والبحار، دعك من عقد الدوقة ماريانا... ها ها ها.

ابتسمت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا من خلف حجاب وجهها الشفاف، فاستطاع حتى نافخُ الكير الذي يعمل خادمًا لقارون، هنالك من خلف كيره، أن يتبين بياض أسنانها، ويأخذه بريقها المفاجئ.

تأملته بشهية ظاهرة، بنهم حقيقي، وفار الدم في عروقها، تصاعدت دقات قلبها وهي تقاوم خيطًا من السائل الناعم يجري ما بين فخذيها دافئًا ولطيفًا.

نعم، الحكاية عظيمة، ربما ستؤدي إلى موت سيدتين بالذبحة الصدرية، رائحة شواء الكبريت تثير شهية الشراء، جسدها المخفي تحت عباءتها مُثار بجنون، ويرغب بشبق في الاستحواذ على العقد. جلجلة ضحكات الهندي الماجنة وهي تصدر من تحت عمامته الكبيرة تهتز لها لوحات كريشنا وآيات القرآن المنصوبة على الحائط. كانت متميزة، قال لها:

-ثمن هذا العقد 1000 ريال ماريا تريزا.

صرخت في رعب:

-كم؟

قال، وهو يرسم على فمه ابتسامة صغيرة:

- 1000 ريال ماريا تريزا فقط، وهذا من أجلك كزبونة متميزة.

«حسنا، العقد عظيم، والحكاية مدهشة ونادرة، ولكن لا يمكن أن يبيعني حكاية من الخيال بهذا المبلغ الضخم،» قالت له بجدية، وهي تنهض من الكرسي المريح الذي قدمه لها حين دخولها:

- 500 ريال فقط، ولن أزيد فيها أبدًا.

ثم نظرت إلى سُندُس وهو يعمل بهمّة خلفها على طرد الذباب والبعوض عن ملابسها وتحريك الهواء بمروحة من سعف النخيل، قائلة:

-أعطه 250 ريالا.

صاح الهندي في رعب:

-ألم تقولي 500 ريال قبل قليل؟

أَمَرت سُندُس الصّامت وهو يحاول طرد الذبابات العنيدات التي تصرّ على البقاء فوق ثياب الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، قائلة:

-أعطه 100 ريال.

-سيدتي الأميرة التي باركها الرب، هذا ليس عدلا.

قالت لسُندُس:

-أعطه 50 ريالًا كاملة.

أخذ سُندُس يستخرج الريالات من كيس جلديّ قديم، مركّزًا على اختيار الريالات القديمة وخاصة تلك التي أخذت تتآكل من الأطراف.

صمت الهندي تمامًا، أخذ يعدّ المبلغ مرارًا وتكرارًا قبل أن يودعه أحد الصناديق الكبيرة، ثم قام بوضع العقد النفيس في صندوق صغير، وأعطاه مرة أخرى إلى الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، شكرته وخرجت وهي تكتم ضحكة خلف غطاء وجهها.

جلس الهندي على مقعده يتنفس الصُعداء، ثم أخذ يمزق بغضب صورة عارضة الأزياء الأوروبية ويرمي بها على الأرض، حينها أفزعته ضحكة شامتة مجلجلة صدرت من فم متمع للحم أسود مربوط بالجنازير قرب الكير، رشقه قارون بنظرة ساخنة اخترقت قلبه وجعلته يبتلع ضحكته، ولم ينس الهندي العجوز الغاضب في نهاية اليوم أن يضع خطين جديدين بمكواة الحديد المُحمرّة، وتُستخدم أساسًا لتشكيل الفضة، على ظهر الزنجي الذي أصبح مثل شبكة صيد مهملة من آثار الكيّ ومشق السياط.

الأبُ يمتلكُ

ثم ضرط، ويعني ذلك أنّ على مُطيع أن يحضر عدّة الخراء، وماء الورد الذي سيغسل به الخادم إست سيده بعد الانتهاء من التبرّز، بينما كان يجلس على وعاء الحديد، وهو مقعد كبير من المعدن، صمّم لحاجة السلطان خصّيصًا كي يسع مؤخرته الكبيرة، فأوعية التبرز العادية لا تريحه، ولم يكن في مخيلة صانعيها أنّ هنالك مؤخّرةً في حجم أرداف السلطان.

«أنا السلطان..

أنا المالك الأوحد لهذه الجزيرة..

وأنا سلطان على كل شيء..

الأرض والنباتات والحيوانات والبحار وما عليها..

السفن والمراكب والصيد والصيادون لي..

والأنهر والذباب والبعوض وحتى النمل..

والصخور والشواطئ والصحراء والغابات لي..

العصافير لي..

النسور لي..

الحدءات والبجعات والثعالب لي..

أنا السيد الأبدي والنهائي والدائم والمسيطر والمالك..

حتى رقعة السماء التي تطل على الجزيرة فهي ملكي..

الريح العابرة تخصني..

الأمطار والعواصف والرعود والبرق.. إنها لي وحدي..

كل النساء لي..

الأطفال لي..

الرجال لي..

الأسرى لي..

ولي أيضًا الجن والملائكة..

أنا أعيش في جنة صنعتها بيدي هنا على الأرض مباشرة، الجنة لي.»

ثم صاح بكل ما أوتي من صوت أجش أشبه بالنهيق:

-وأنا لي!

وفجأةً تذكّر السلطان سُليمان بن سليم الذي باركه الربّ مؤخّرًا، الإنجليز الذين يناورون للقضاء على سلطنته، فأضاف بعد تردد قليل:

«الإنجليز أيضًا لي..

الألمان لي..

الفرنسيون لي..

البلجيك الشرسون لي..

أضاف دون منطق معين:

البحرُ.. البرُّ.. السماءُ.. الجبالُ لي.. وأنتَ لي.»

قال العبارة الأخيرة مُشيرًا بسبّابته نحو الأسير مطيع.

يقف خادمه مُطيع عند رأسه، ليُلبّي كل طلباته، وعندما لا تكون هنالك طلبات لديه، فعليه أن يطرد عنه الذباب والبعوض وبعض النحلات المنفلتات المتطفلات اللاتي يدخلن القصر فجأةً، وعليه أن يستمع لما يقوله وما لم يقله أيضًا، عليه أن يتنبأ بنوايا سيّده، وأن يفسّر نظرته وحركته؛ فهذا السيد كثير الكلام، في أحيان كثيرة لا يريد أن

يقول شيئا، ولكن يجب على الآخرين تفسير صمته، وتوفير ما لم يصرح به وهو في حاجة إليه، وكلّ من لم يقم بواجبه غير المعلن عنه سينال عقابه، لذلك لم يدهشه صراخ سيده، فقد اعتاد على أسئلته الأكثر غرابة، وعليه دائما أن يجيب بجملة واحدة: «نعم جلالتكم باركك الرب»، فمنذ أن أجبر السلطان سليمان بن سليم فقيه الجزيرة على أن يكتب له، شجرة نسب تنتهي بالملك سليمان، ملك الإنس والجن، أصدر فرمانًا سلطانيًا بألاّ يدعوه الناس بغير «جلالتكم باركم الرب»، وعليهم أن ينادوا ابنته «الأميرة التي باركها الرب»، فهي ابنته الوحيدة، اسمها لطيفة ولكنّه يدللها ويناديها فتومات ترسيخًا لذكرى أمّها فتوما جما، المرأة الوحيدة التي يتذكر اسمها من بين نسائه التسع والتسعين. وقد أضاف المرجفون في الجزيرة، وبعض الضالين والحاقدين وأصحاب الظنون والذين في قلوبهم مرض، كلمة إضافية إلى لقب السلطان وابنته، وهي كلمة «مُؤَخَّرًا»، لأنّ النسب إلى النبي سُليمان قد جاء مُؤَخَّرًا، فالجميع يعرف أن أصول السلطان سليمان بن سليم من الحبشة، والحبشة كانت تحتل اليمن في قديم الزمان لعقود طويلة، وقد أنتج ذلك خليطا بشريا متميزا، وحضارة تليدة، ولغة جميلة تُستخدم إلى اليوم في البلدين.

يبدو أن هذا اليوم الذي بادره فيه السيد بخطبته تلك، سيكون مشحونا بأمور كثيرة، وقد صدق ظن الخادم عندما خاطبه السلطان وهو على فراشه:

- أنت أسير مسكين، لا تعرف متعة العظمة، متعة الامتلاك، لا تعرف متعة أن تجد كل ما تحلم به وما لا تحلم به أيضًا، متعة أن

تكون لديك مخازن من الريالات، وكنوز من الذهب والفضة، ومئات الأسرى يعملون من أجلك في كل الأمكنة، وقصر مليء بالنساء الجميلات والغلمان، باختصار أن تمتلك كل ما على الأرض وكل ما في السماء، بالطبع ما عدا الرب، وهذه المتعة هي ما أحس به، وهي السعادة التي أستحقها، للأسف أنت لا تفهم ذلك.

ثم ضرط، ويعني ذلك أنّ على مُطيع أن يحضر عدّة الخراء، وماء الورد الذي سيغسل به الخادم إست سيده بعد الانتهاء من التبرّز، بينما كان يجلس على وعاء الحديد، وهو مقعد كبير من المعدن، صمّم لحاجة السلطان خصّيصًا كي يسع مؤخرته الكبيرة، فأوعية التبرز العادية لا تريحه، ولم يكن في مخيلة صانعيها أنّ هنالك مؤخّرةً في حجم أرداف السلطان. وكعادته يحب أن يلقي لخادمه مطيع بعض الألغاز أثناء تأدية واجبه الخرائي اليومي، أي تلك التي تطرأ على باله، وهي إحدى تسلياته القديمة، تذكّره بطفولته وجدّته التي كانت تمازحه بها، قال لخادمه مطيع الواقف مثل أي قطعة من قطع أثاث المنزل خلفه مباشرة، بينما هو يقوم بواجبه الصباحي:

-قلادة في الأعلى والفضة الحمراء في الصندوق.

فأجابه كما يجب عليه أن يجيب سيادةَ السلطان، ولو أنه لا يعرف جيدا حل اللغز:

- نعم جلالتك باركك الربُّ.

قال السلطان:

-أنا أذهب إلى هنالك وأمسك ثوري من ذيله.

فأجاب وقد أزكمت أنفَه رائحةُ إسهال السلطان العفنة:

-نعم جلالتك باركك الربُّ.

قال السلطان وهو يبتسم:

-أمّي حملتني.

ثم أضاف دون أن ينتظر حل هذا اللغز الأخير:

-هنا كو، وهنالك كو، وفي الداخل أسد يزأر.

أضاف السلطان، وهو يخرج هواءً متعفنًا من بطنه الشاسعة بصوت أشبه بمواء القطط:

«دجاجتي باضت في الأشواك.»

والآن جاء دورك، اغسل هذه الإست أيها الغبي، اغسلها جيدا، ضع بعض زيت الصندل على ماء الورد، أريده أن يكون دافئًا، لا أدري إذا لم يخلق لنا الربّ الأسرى كيف يمكننا التطهر؟ أنت رجل طيب، ولكنك غبيٌّ أيضًا، كل الزنوج أغبياء وبهم بلادة، لا.. لا، لقد قابلت زنجيًّا منتفخًا مثل الديك ذات مرة، كان اسمه سمبا، كان رجلا شرسًا جدًّا، وعدوانيًّا وقاتلًا، كاد يفني جنودنا بأسهمه المسمومة، وكان يصنع لنا الكمائن، وكلما خرجنا من كمين وظننّا أننا قد نجونا نجد أنفسنا قد وقعنا بالفعل في كمين آخر، لم يتركنا نأخذ طفلًا واحدًا من قريته، بل استولى على سن الفيل وجلود الفهود التي اصطدناها بأنفسنا، ولم يقدر عليه إلا الضبع الأرقط، فقد توصلا إلى اتفاق بعدم العدوان بعد حروب دامت سنة كاملة، أنت تعرف الضبع الأرقط جيّدًا، هو الذي صادك وابنك من الغابات والكهوف

وأنقذك من حياة التوحش وأكل لحوم البشر والديدان والخنازير البرية إلى نور المدنية، وأكرمك بدخول الإسلام، فالعبيد أيضًا يدخلون الجنة مثلهم مثلنا نحن السادة، ولكن إذا حسن إسلامهم وتطهروا وشكروا الله على نعمته، أنت زنجي جاحد، كان عليك أن تشكره صباح مساء على نعمة حياتك في القصر، وعلى أنك تُطعم ما يُطعم به سلطان عظيم مثلي، سلطان ابن سلطان ابن سلطان، من سلالة ملك الإنس والجان، سليمان بن داود علينا جميعا السلام.»

ضحك حتّى اهتزت بطنه الكبيرة ثم أضاف:

«في الحقيقة، أنت خادم مطيع. هل تعرف ما هي عقوبة الأسير الآبق يوم القيامة؟ إنّ مصيره نار جهنم وبئس المصير، ولو أنني لا أعرف هل سيدخل مثلك الجنة أم لا، ولكنني أعرف تمامًا من هم الذين سيدخلون النار خالدين فيها أبدًا، إنهم الأسرى الآبقون. الآن خذ الخراء عني بعيدا؛ لا أحب تلك الرائحة. لا أدري لماذا يُخرجُ الملوك كما يُخرِجُ الأسرى والغوغاء من البشر، هذا ليس عدلًا..»

جفف مطيع مؤخرة السلطان الشاسعة ببشكير من الكتان، وألقى نظرة مقرفة إلى إسته المحاطة بالشعر والدمامل، ثم رشّها بما تبقى من ماء الورد المخلوط بزيت الصندل، وبعد ذلك ساعد السلطان الذي باركه الربّ مُؤخَّرًا في الوقوف على رجليه السمينتين القديمتين.

كان السيد دينبا الذي سُمي فيما بعد بالخادم مُطيع، قبل أسره أحدَ أعيان قريته في الساحل الغربي من جزيرة أنغوجا، ولقد تم

صيده هو وابنه نانو الذي أُطلق عليه فيما بعد لقب الأسير سُندُس، وتَمّ خصيهما في حفلة وحشية واحدة، الأب أوّلًا بحضور الابن، ثم الابن بحضور الأب الغائب عن الوعي، وهو يهذي بجنون ويعض قطعة الخشب المحشورة بين أسنانه، وقد أصيب الطفل بصدمة عنيفة، وفقد المقدرة على الكلام، وعندما شُفيت جراحه تم إلحاقه بخدمة الأميرة التي كانت في عمره تقريبًا، كأسير خاص جدًا، كما تمت إضافة والده إلى خدمة السلطان بتوصيف أسير خاص أيضًا. ربما تم الاختيار نتيجةً لوسامةٍ يتميز بها الأب وابنه، من قامتين عاليتين، وجسدين أسودين ناعمين، وهما يشتركان أيضًا في سعة المقلتين، والشفاه الغليظة وقلة الكلام من قبل الأب، والصمت التام من جهة الابن، فالسادة يحتاجون إلى آلات عمل وسيمة لا إلى آلات كلام. والأسير الخاص عليه أن يحفظ الأسرار، ويتحقق ذلك بصورة مُرضية في حالة صمته، فَصمتُ الأسير عبادةٌ. أما الصفات الأخرى؛ مثل الوفاء والأمانة والصدق، فهذه، دائما ما يوفرها السادة في خدَمهم عن طريق الكي بالنار، أو الضرب بالسوط، أو السجن الانفرادي والحرمان من الأكل والشرب وغيرها من أدوات التعذيب التي يكرهها الزنجي لأنها غريبة عن طبيعته وحياته، بل لا يستطيع أن يتخيلها مجرد تخيل وهو في قريته الدغلية، ويفضل عليها الطاعة العمياء والتخلي عن حقوقه الإنسانية، أو الصبر عليها إلى حين، ولو أنه يظل يحلم بالحرية طوال حياته، مثلما هو حال الصامت سُندُس.

للسلطان سُليمان بن سليم الذي باركه الربّ مؤخّرًا قصران كبيران على الشاطئ، وقصرٌ جميلٌ في الريف يُسمّى قصر «الفراديس»،

يذهب إليه للاستجمام والراحة، وهو القصر الذي حوّله إلى جنة أرضية فعلية حسب تصوره للجنة، وفي هذا القصر تقيم الحوريات والولدان حسب ما يطلق على نسائه واللوطيين التابعين له، وهنالك قصر ابنته الوحيدة المطل على المحيط، القصر الذي شُيّد على شاطئ صخري في الجزء الغربي من الجزيرة، في مكان منعزل إلى حد ما، اختير لجمال الطبيعة حوله وهدوئه، فهو بعيد عن ضوضاء المدينة، وإن كانت تلك الضوضاء مُحبّبة إلى نفس الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، وهذه القصور مبنيّة وفق طراز عابر للحضارات والقارات، بواسطة بنّائين جيء بهم من خلف البحار، مبنيّة من حجر المرجان والصخور الجيرية. إنّها خليط من العمارة الأوروبية والهندية واليمنية والفارسية، وما في داخلها ينتمي إلى الشرق العريض بصورة رئيسية، ولا يخلو من الفخامة الأوروبية الفاحشة، والثراء والبذخ والروح العربية الإسلامية.

يفضّل السلطان الإقامة في قصر الفراديس، أمّا القصران، قصر الدولة وقصر الغرائب، فهما أقرب إلى وحدتين إداريتين أو سكنيتين، بهما مئات الغرف، ومأهولتان بالسكان من إداريين وعمال وقادة عسكريين وبعض الضيوف المهمين من تجار وساسة وقباطنة.

قصرُ الأب

كان من المتوقَّع أن يكون مجلس اليوم عاديًا ومملاً ومكرورًا، مثله مثل آلاف المجالس التي ترأسها السلطان سُليمان بن سليم الذي باركه الربّ مُؤخَرًا، غير أنّ الجالسين سمعوا صراخًا مفزعًا آتيًا من عمق المدينة، وصوتَ إطلاقَ نار متقطعًا، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى قصر الفراديس بعضٌ من الجنود على جمال سريعة، واستأذنوا في مخاطبة السلطان بصورة خاصة، ولكن السلطان المرعوب طلب منهم أن يخبروه الآن وهنا.

عندما فرغ السلطان سُليمان بن سليم الذي باركه الربّ مؤخَّرًا من برنامج الخراء والاستحمام والاغتسال من الجنابة ودنس النكاح الليلي ورجسه، صلى صلاة الصبح وأخذ يتلو بعض آيات القرآن من ذاكرته مباشرة، فهو لا يستطيع قراءة العربية، بل لا يمكنه التحدث بها، يعرف بعض الكلمات وبعض أسماء الأشياء، ويقنع نفسه دائما بأنّه يستطيع أن يفهم العربية إذا خوطب بها، وهذا ليس مؤكدًا، ويمكن تفسيره بالحنين إلى لغته الأم المفقودة، وعندما ذهب إلى غرفة الإطعام، مضى مطيع إلى غرفته الخاصة في جناح الأسرى ليأخذ قسطا من الراحة والنوم، لأنه لم ينم طوال الليل، عليه أن يحرس سيده وهو نائم، بل وهو مع نسائه أيضًا، فلا عيب أن يكون هنالك أسير مخصيّ في غرفة السلطان وهو يمارس الجنس، كما أن السلطان يحتاج إليه بالفعل؛ لأن جلالته يخاف من كيد النساء أساسا، فقد يسمّمنه أو يقتلنه خنقًا، وهذا أمر شائع، والأهم من ذلك أن يساعده في الإيلاج في نسائه البدينات، فسيّده يحتاج إلى من يدفع عجيزته الضخمة نحو الأسفل بينما ينبطح هو عاريا بين ساقي إحداهن، ولعلة أصابته في ركبة رجله اليمنى، فهو لا يستطيع الدفع إلى الأسفل بصورة طيبة، وفي حالة الحوريات النحيفات، مثل الصقلية المحببة إليه، فإن الأمر يختلف، إذ على مطيع أن يقوم بضغط ردفيها الصغيرين إلى الأسفل بينما تصعد هي على جلالة السلطان الذي باركه الربّ مؤخَّرًا، لذا

يقضّي ليله كله في إدارة شؤون السلطان الإيلاجية، وعندما ينام السلطان، عليه أيضًا أن يحرسه من غدر النساء، لأنهن وحدهن المسموح لهن بدخول منامته، وقتما شئن، ما لم يصدر أمر غير ذلك، وعلى الرغم من أنه يعتمد على حماية نفسه طوال عمره المديد عن طريق الاستعانة بالسحر الأسود والجن، بل وبالشيطان نفسه، فإنّ كيد النساء حسب قوله أكبرُ من سُلطة الجن والأبالسة، وقوّتهن تأتي بعد قوة الربّ مباشرة، والرب نفسه قد يستجيب لهن ويتجاهل الرجال.

خرج السلطان لاجتماعه الأسبوعي بالأعيان وأصحاب الحاجات، من أجل حلّ المشاكل والفصل في القضايا والمشورة في أمور الدنيا والدين والدولة، وهي المهمة التي يقوم بها منذ أن استولى على السلطة من والده بعد هزيمته للبرتغاليين وطردهم من الجزيرة. والآن على الرغم من حقيقة عمره المجهولة تمامًا والمتعفنة في ذاكرة الساحر هاروت فإنّ الأعداء الذين غالبا ما يكونون خارج دائرة السحر يقدّرون عمره بأكثر من مائة عام، وهو في كامل قواه العقلية والجسدية أيضًا، ويعود الفضل في ذلك بعد الربّ إلى الشياطين والسحر الأسود الذي يؤمن به بصورة تامة ويمارسه أيضًا. في الحقيقة هو يعتمد على السحرة أكثر من اعتماده على الرب. تعلّم السحر الأسود من إفريقي كان أسيرًا عنده، وكافأه بإطلاقه حرًا، الساحر الإفريقي نفسه مات في إحدى غزوات الضبع الأرقط، في حين ظل هو على قيد الحياة، ويُظن أنه سيبقى إلى الأبد.

في المساحة التي أمام القصر، يجلس السلطان على مقعد وثير،

بينما يلتف حوله الأعيان، في شبه دائرة، وفقًا لمقاماتهم السامية من كبار التجار، والأقرباء من الأمراء، والقبطان الأعظم وهو المشرف على السفن والبحار والبحارة وحركة التجارة المائية، يجلسون على مقاعد منخفضة يقدمها لهم أسرى القصر. ثم يأتي الصف الثاني ويجمع المواطنين الأثرياء، يجلسون على مقاعد صغيرة من الخشب أتوا بها من منازلهم. ثم الصف الثالث ويضمّ الوافدين مؤخّرًا من المواطنين المهاجرين والباحثين عن ثروة لم ينالوها إلى حين عقد المجلس، وسيتدرجون إلى الصفوف الأولى وقتما يحصلون على المال والجاه والملابس اللائقة بعظمة المجلس، ويجيدون اللغة السواحيلية، وهم غالبا يجلسون على الأرض، أو على مفارش من سعف النخيل رخيصة الثمن. وفي الصفّ الأخير على الأرض يجلس الشحّاذون وأصحاب الحاجات من المهاجرين، وعلى مقربة منهم يصطف الشحاذون العجائز والمرضى والمعتوهون من الأسرى المعتوقين من قبل سادتهم بالمدينة، أو الذين أفرغتهم باخرة على الشاطئ قادمة من مكان مجهول، لتوقفهم عن الإنتاج وانتهاء فترة صلاحيتهم، وبعيدًا عن المجلس يُوجد الأسرى لرعاية جِمَال السادة وحميرهم، وفض النزاع بينها حينما تتشاجر أو حين يهم الذكور بالإناث، وليس لهم الحق في مخاطبة مجلس السُّلطان أو حضوره ولو كانت لهم مسائل معقدة، فذلك شأن أسيادهم ومالكيهم، ثم ما هي مشكلة الأسير طالما كان عنده سيد يقوم بواجبه ويعبر عنه!

كان من المتوقَّع أن يكون مجلس اليوم عاديًّا ومملاً ومكرورًا، مثله مثل آلاف المجالس التي ترأسها السلطان سُليمان بن سليم الذي

باركه الربّ مُؤخّرًا، غير أنّ الجالسين سمعوا صراخًا مفزعًا آتيًا من عمق المدينة، وصوتَ إطلاقَ نار متقطعًا، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى قصر الفراديس بعضٌ من الجنود على جمال سريعة، واستأذنوا في مخاطبة السلطان بصورة خاصة، ولكن السلطان المرعوب طلب منهم أن يخبروه الآن وهنا:

-ماذا يجرى في المدينة؟

خاطبه أحدهم وهو يلتقط أنفاسه:

-هجوم من المتوحشين الزنوج.

قال بغضب:

-من أين جاؤوا؟

رد الجندي وهو ينظر بعيدًا ولا يريد أن تلتقي عيناه بعيني السلطان:

-لا ندري، لقد كانوا مثل الضباع الجائعة، لقد غدروا بالشعب ونهبوا مخازن الأسلحة... و... وأيضًا... و...

صاح السلطان في رعب:

-وماذا؟

قال مرتجفًا:

-قصر الأميرة التي باركها الرب.

رد سريعا كأنما كان يتوقع الإجابة:

-وأين ابنتي الأميرة الآن؟

قال الجندي بصوتٍ مرتجفٍ وبندقيّتُه القديمة تهتز مع جسده:

-أخشى أن يكونوا قد أخذوها معهم.

هتف السلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا، في غيظ من بين أسنانه:

-وماذا تفعلون أنتم؟ لماذا لم تقتلوهم جميعا؟

قال الجندي خائفًا وهو يرتجف:

-الشعبُ الآن يطاردهم، لقد هرب الجُبناءُ، الشعبُ يطاردهم، وسيلحق بهم، جئنا لإخبار جلالتكم بالأمر، سنقضي عليهم تمامًا وسنعيد الأميرة والأسلحة.

وعندما ضرب السُّلطان الذي باركه الربُّ مؤخّرًا بكفّه المباركة الجندي على وجهه بقسوة، انفضّ المجلس وهرول الجميع نحو المدينة، على حميرهم وجمالهم، وجريًا على الأقدام، وخلفهم أسراهم، وهرب العميان والعجائز والمقعدون والشحاذون وأصحاب الحاجات المتنوعة. نهض السُّلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا، ولطم الجندي الآخر على وجهه أيضًا، ثمّ أخذ يضرب الجنود عشوائيًا بيديه، ويركلهم برجليه السمينتين المشعرتين المباركتين، وهو يصرخ:

-اقتلوهم جميعا.. اقتلوهم أيها الجبناء.. اغربوا عن وجهي.. اقتلوهم وإلا قتلتكم جميعا.. اغربوا عن وجهي!

ثمّ جرّ خطاه إلى داخل القصر وهو يصرخ بصوت أجش مرعب، ما أيقظ مطبع من نومه فجرى مرتعبًا نحو سيده، وشقّ طريقه بصعوبةٍ عبر عشرات النساء المرعوبات والغلمان والطباخين وعمال القصر الآخرين. كانوا يقفون جميعًا عند الممرات المعتمة وخلف الشبابيك ذات الستائر المسدلة، بعيدًا عن إدراك السُّلطان،

يراقبونه بأعين جاحظة ومفتوحة لآخرها، وآذان تلتقط حتى أنفاسه المتسارعة، وهو يجري في القصر مثل الثور الهائج، يكسر كل ما يجده أمامه، ويصرخ بين الحين والآخر؛ يشتم، يتوعد، ينادي باسم يعرفونه جيدا ويخشونه، كبار السن منهم شاهدوه حيًّا، وبعضهم شاهده بعد موته وقد أصبح شبحًا أكثر رعبًا، والبعض قد أسرهم بنفسه وحرق قراهم. إنّه شبح قائده الأسطوري المُرعب، الملقب بالضبع الأرقط. وقد كان يطلب منه بصوت أجش حزين: «احضر الآن، في هذه اللحظة من حيثما كنت، في السماء أو في الأرض أو في البحر». كان مطيع يمشي نحوه في حذر، مثله مثل الجميع يخشى سطوة سيده، فلا يريد أن يرتكب خطأ يستحق عليه العقوبة في حالة عدم حضوره للسلطان، أو في حالة حضوره على السواء، فعلى الجميع أن يعرفوا ماذا يريد السلطان بالضبط؟ هل عليهم أن يقدموا له مساعدة ما، أم هو لا يريدهم في هذه اللحظات بالذات؟ على الجميع توخي الحذر في تخمين نوايا جلالته، إلى أن صرخ بوحشية:

-مُطيع.. أيها العبد الآبق.. أين أنت؟

تنفس مُطيع الصُعداء وهو يقول:

-نعم جلالتكم باركتكم الرب.

«جهز لي الراحلة سريعًا، سأذهب إلى المدينة، سأقضي اليوم على كل السود المتوحشين، عليهم لعنتي، وسأعيد منهم البنت التافهة الداعرة الحقيرة، طلبتُ منها أن تقيم معي هنا في القصر ولكنها رفضت، هذا جزاء عقوق الوالدين، اغرب عن وجهي أيها المخصيّ، لماذا تقف هنا مثل الصنم؟»

ولم يلاحظ جلالته الذي باركه الربّ مؤخَّرًا أن مُطيع قد ذهب لإعداد الراحلة حين تلقيه الأوامر مباشرةً، كما أن جلالته ليس بوسعه أن يشاهد الابتسامات الواسعات الشاسعات الشامتات، التي تَبرُق في ظُلمة الممر، ولم يكن بوسعه أيضًا أن يسمع الضحكات المكتومات المكبوتات الفاجرات للوطيه المخنثين ونسائه الجميلات خلف النوافذ والأبواب المواربة.

قصرُ البنت

هي لا تفهم كيف يفكر الرجال، لأنها في الحقيقة لا تعرفهم. أنا رجل وأعرف الرجال الآخرين، وأفهم أيضًا النساء، قيل عنهن في الأسفار المقدسة إنهن ناقصات عقل ودين، وإنهن يتبعن أهواءهن، لذا سيكن في الآخرة من أغلبية سكان الجحيم، هن والحجارة بالطبع، إنهن مخلوقات ثرثارات غيورات لا يهتممن بغير الأمور التافهة، ماذا يعني إذا مارست الجنس مع الجواري أو غيرهن؟

ليس للأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا أطفال، ولا تدري ما إذا كان لزوجها أطفال من جواريه الكثيرات هنا، أو في الهند، أو في بلاد بني الأصفر أو في الصين، لقد كان كثير السفر والترحال لعمله في التجارة، ولم يكن وفيًّا مثل كثير من رجال عشيرتها، ذلك أنّ لهم حقًّا مقدسًا في تعدد الزوجات ونكاح كل ما ملكت أيمانهم من أسرى وجوارٍ، فربما أنجب طفلًا ما من رحم ما، وقد يكون الآن أسيرًا يعمل في مزرعة خلف البحار، أو هنا في الجزيرة، فكثير من السادة يتعاملون مع أبناءهم من الأسرى بوصفهم مجرّد ريع، ولا يعترفون بهم، بل يبيعونهم في أسواق النخاسة كما يُباع جوز الهند أو القرنفل، فهذه منتجةٌ من الأرض وأولئك مُنتَجون من الجواري اللاتي يمتلكونهن.

زوجها هو ابن أحد الأثرياء المسيطرين على تجارة القرنفل والزنجبيل وجوز الهند، وترى في زواجه منها طمعًا في الحكم، لأنها الابنة الوحيدة للسلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا، والسلطان نفسه وحيد أبويه. كان زوجها يرغب في إنجاب أطفال لكي ترث ذريته السلطنة، وهي تعلم ذلك جيدا، فإذا توفي والدها سيصبح هو السلطان، ولن تكون هي سوى إحدى زوجات السلطان الكثيرات اللاتي يكتظ بهن جناح الحريم، ذلك أنّ نقطة ضعف زوجها الفعلية هي الحكم، لديه رغبة طاغية في أن يصير سلطانًا لهذه الجزر التي

تبيض ذهبًا وأسرى، لذلك قبل بسهولة طلبها في أن يكون لها وحدها، وإلا فإنها ستطلقه إذا روت لوالدها، بعض مغامراته مع الأسيرات، واحتمال أن تكون له نساء شرعيات في مكان ما، وطمعه في السلطنة. «لا بدّ أن تكون لي وحدي وإلاّ سأقتلك!!» بالطبع لم يصدق الاقتراح الأخير، فهو ليس سوى تهديد أجوف حسب تعريفه لما تقوله النساء الغيورات. كان يغدق عليها بالهدايا من كل بلاد الدنيا التي يزورها. يسمع كلام زوجته جيدا بأذنه اليمنى ليطلقه بالأذن اليُسرى مباشرةً دون أن يمرّره على عقله، إلى أن فاجأته ذات يوم:

-عليك أن تقرر اليوم، إما أنا وحدي أو كل نسائك الفاجرات الداعرات!

صمت قليلًا، كانا يحتسيان القهوة بعد يوم قضّياه في الريف عند شلال الماء المُقدس، يقدمان كرامةً وفاء لنذر تحقق، فقد طلب زوجها من روح النبع المقدس أن يساعده على إنجاح صفقة تجارية ضخمة سيعقدها قريبًا، ووعده بأنّه سيقدم نذرًا لروح النبع إذا تحقّق الأمر، ويتمثّل النذر في ريالين من ريالات تيريزا يرمي بهما هو وزوجته في ماء النبع، وقد فعلا ذلك بمرح وجدية وامتنان لروح النبع التي استجابت لنذرهما. كان سيمر الوقت ممتعا وشهيا، لولا أن هذه المرأة المجنونة قد طرحت عليه أسئلة تصعب الإجابة عنها، ولا تتناسب بالمرّة مع سياق الاحتفال بالنجاح.

قال لها وعلى فمه ابتسامة باهتة:

-أنا أحبك أنت.. وأنت زوجتي التي سترافقني إلى الجنة يوم القيامة، زوجتي الأبدية.

قالت بإصرار وهي تنظر في عينيه:

-اختر يا رجل، أنا أم نساؤك؟ أنا أتحدث عن الدنيا، هنا في هذه الحياة، أمّا موضوع الجنة ففي علم الغيب، أو على الأقل لا يهمني الآن!!

قال لها بصوت مخنوق بعد زمن قصير من التفكير، مر بطيئًا وثقيلًا:

-أنتِ.

قالت وهي تقترب منه إلى درجةٍ جعلته يحسّ بدفء أنفاسها:

-أنا فقط.

قال وهو يشعر بجفاف طارئ في حلقه ولسانه :

-أنتِ فقط.

قالت بثبات:

-حسنا، ستقوم ببيع كل الجواري والأسيرات اللاتي تحتفظ بهن هنا، وفي عمان، وفي بيت الحريم عند قصر والدك، أنا أعرفهن جميعا، لذا رجاءً كن صادقا في ذلك، وستسلمني أثمانهن، لأشترى بها مجوهرات وألبسة، تليق بسلطانة مثلي. أليس كذلك يا سلطان؟

«هي لا تفهم كيف يفكر الرجال، لأنها في الحقيقة لا تعرفهم. أنا رجل وأعرف الرجال الآخرين، وأفهم أيضًا النساء، قيل عنهن في الأسفار المقدسة إنهن ناقصات عقل ودين، وإنهن يتبعن أهواءهن، لذا سيكن في الآخرة من أغلبية سكان الجحيم، هن

والحجارة بالطبع، إنهن مخلوقات ثرثارات غيورات لا يهتممن بغير الأمور التافهة، ماذا يعني إذا مارست الجنس مع الجواري أو غيرهن؟ إنها مجرد لحظة من المتعة والتسلية يحتاج إليها الرجل الذي يقوم بعمل شاق كما أفعل، الرجل الذي يصارع الموج والحيتان ويقاتل الفيلة ويصطاد البشر، الرجل الذي يواجه الموت كل لحظة من حياته. نعم، لها وحدها!! بأي حق؟ وقد كرمني الربّ بأن أكون رجلا، وأعطاني حق الزواج بمن أشاء مَثنى وثلاثًا ورباعًا وما ملكت يميني، وإذا لم ألتزم لها، على الرغم من أنني وعدتها، فهذا ليس حرامًا، ولا ذنب لي فيه، فالكذب على النساء في ما يرضي الربّ لا غبار عليه، بل الهلاك والخسران هو صدق الوعد في ما فيه المعصية، فخير لي أن أكون كاذبًا وحانثًا لمرضاة الرب، لا أن أكون صادقًا ووفيًا في ما يغضب الخالق، إنها زوجتي وأنا أفضلها على كل النساء، وهي التي ستجعلني سلطانا عندما يموت والدها العجوز المتكبر المجرم.

ولا تستطيع أيٌّ من الأخريات فعل ذلك، فبنات السلاطين لا توجدن كثيرا، وعلاوةً على ذلك أنا أحبها فهي ذكية جدا وطيبة وأخلاقها سامية. أمّا غيرها، فأمارس الجنس معهن دون حب ودون عاطفة، بل دون أي مسؤولية؛ إنهن ملكي، أنا اشتريتهن بمالي، ومن حقي أن أستخدمهن، أين المشكلة؟ أين المشكلة أيتها المرأة اللعينة؟ قريبًا جدا سيموت هذا الغول، قريبًا جدًّا، لا أعرف إنسانا على وجه الأرض يعيش إلى الأبد، اصبر يا رجل؛ النساء يمكن تداركهن طالما كان في العمر بقية، أما السُّلطة فإنها

كالثلج، إذا لم تستدركه سريعا يتلاشى، والرجل الذكي هو من يسمع كلام زوجته جيدا، ثم يرمي به في البحر، عند اللجة التي لا تستطيع هي الوصول إليها طوال عمرها.»

-نعم، من أجلك أفعل كل شيء.

قالت له وعلى فمها ابتسامة لم يستطع أن يفسرها:

-وإذا لم تلتزم سأقتلك، وهذا نذر أمام روح النبع المقدس.

ثم انفجرت بالضحك، وضحك هو أيضا، ومن ثم احتسيا نبيذا جيدا حصل عليه من إيطاليا، في جرة من الفخار، كان له طعم أشبه بالعسل ولون بني أيضا، ولكنه لأول مرة يلاحظ أنه أشبه بالدم، بدم الذبيح الطازج. قبل المغرب بقليل مضيا نحو القصر على حماريهما، بينما كان سُندُس يمضي خلف حمار الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرا وقد نال منها السُّكر وهو خائف من احتمال سقوطها من على ظهر الأتان، ومن واجبه أن يكون متاحا وقريبًا عند الحاجة.

أجمل ما في قصر الأميرة هو البهو الضخم، عند المدخل، فالسقف العالي القائم على الأعمدة الرخامية الفخمة يمنحه جمالا وعظمة، ويبدو المكان متسعا جدًّا، بسبب المرآة الكبيرة المعلّقة على عرض الحائط المواجه للمدخل، وفي الحقيقة هي عبارة عن ست قطع من المرايا المستطيلة، تم جلبها من بريطانيا خصيصًا للقصر، وبالبهو كراسي جلوس فخمة، وأخرى من الخيزران الإفريقي، وكثير من التحف الثمينة تمثّل معظم دول العالم التي زارها زوجها، وبعضها هدايا من والدها بمناسبة زواجها، وقلة منها ورثتها عن والدتها المرحومة السيدة الفُضلى فاتوما جُوما التي توفيت في ريعان شبابها،

كبندقية الصيد القديمة، فقد كانت أمها مولعة بالصيد، وهي المرأة الوحيدة التي كانت تذهب إلى معسكرات الصيد مع الرجال، وهي المرأة الوحيدة في تاريخ الجزيرة التي اصطادت فيلا ببندقيتها، وربما قتلها الحزن حين اكتشفت أنه الفيل الأخير الذي كان على قيد الحياة على أرض الجزيرة.

تقيم الأميرة التي باركها الربُّ مؤخّرًا في الجناح الشرقي المطلّ بشرفته الواسعة على البحر مباشرة، من الطابق الثاني تستطيع أن تشرف على الأمواج والسفن والرياح، ويعجبها منظر الأشرعة وهي تمضي بعيدًا في لُجة البحر إلى أن تختفي تدريجيا، وكأنها تسقط في هاوية شاسعة لا قرار لها، أو تلك التي تقترب من الشاطئ رويدًا رويدًا في طريقها من العدم إلى الميناء، ويشجيها أيضًا صوت هدير الموج وصفير العواصف وشدو النوارس العملاقة المحلّقة في السماء بحرية ونشاط وجمال، زوجها لا يهتم بهذه الأشياء. كان رجلا عمليا من الطراز الأول، يصب كل جهده في التجارة، ويختزل كل متعه في كسب الصفقات الكبيرة، أو استلام المال عند وصول تجارته إلى منتهاها بسلام، يحب المغامرة وركوب البحر. إن عالمه هناك في وسط اللجة. في سلوكه العام هو أقرب إلى البحار منه إلى التاجر المنعم الثري. الحياةُ عنده تتمثل في الثروة والسُّلطة وتتمركز حولهما، ومنهما يجني كل أحزانه وأفراحه وسعادته وبؤسه، وما عداهما كل شيء ثانوي ولا يستحق الاحتفاء.

مزرعة القرنفل وجوز الهند التي يمتلكانها تقع عند وادٍ خصيب غير بعيد عن قصرهما، وهي أيضًا هبة من والدها السلطان الذي

يمتلك كل أرض الجزيرة، ويتصرف فيها بالبيع أو بالهبة أو بالإيجار، يعتمدان في إدارة المزرعة على أسير أثيوبي مثير للجدل، اسمه ماريامو، يقوم بإدارة العمال المأسورين بأبوية وسلطوية كما لو كان هو المالك الفعلي، ولم يستطع أي منهم الهرب، لأنّه كان يطبق نظامًا للحراسة يصعب اختراقه، ونظامًا للعقوبة لا يمكن أن يتحمله إنسان، وفوق ذلك كان كريمًا جدًا، ومتهاونًا أمام السرقات الصغيرة التي يقوم بها الأسرى والكبيرة أيضًا، بل إنّه يسمح لنفسه بسرقات بسيطة لا تؤثر في دخل المزرعة العام، أو بالأصح يصعب اكتشافها من قِبل السيدين. فقط هو لا يتهاون في بعض أنواع الفساد التي يراها محرمة، وأهمّها تدخين التباكو مختلطا بالقنب الهندي، لأن ذلك يجلب سوء الطالع والنحس، ولا يتهاون تعني أنه لا يتهاون. المقصود هنا أنه علّق فتى لم يلتزم بذلك على فرع شجرة، رجلاه إلى أعلى ورأسه مُدلّى إلى أسفل، ونسيه ليلة كاملة، وعند الصباح لم يجد منه سوى ساقين معلقتين على فرع الشجرة، بعد أن تعشت به الضباع، فهل أصابت الفتى اللعنة التي جلبها هو لنفسه؟ سيعلق ماريامو كل من لم يلتزم بذلك: «اسرق التباكو من مزرعة السيد، واسرق أيضًا القُنب الهندي من مزرعتي الخاصة، ولكن لا تخلطهما معا في غليونك؛ لأن النحس سيصيبك أنت أوّلًا قبل أن يصيبني».

وما يجب ذكره هنا هو أن ماريامو يعد العدّة للهرب، عندما يجتمع عنده القدر الكافي من الفضة والذهب فإنه لن يفوت أول فرصة للهرب بعيدًا عن جزيرة النحس والشؤم والسادة البغيضين. سيعود إلى أثيوبيا الحُرة، وسيستثمر الأموال التي سرقها بوصفها

أجرًا مستحقًا لا يعترف به السيد، ولكنه حق مطلق لا مساومة عليه، وعندما وجد فرصته في العام 1890 أثناء الهجوم الإنجليزي على أنغوجا، لم يعد إلى أثيوبيا، بل حمل ثروته وعبر المحيط إلى تنجانيقا، واشترى مزرعة وقضى بقية حياته هناك مع سيدة شابة أحبها وأحبته على الرغم من كبر سنه، وأنجبت له طفلتين، ومات في دار السلام ودُفن معه حلم العودة.

على الرغم من كراهية ماريامو الشديدة لسُندُس، فإنّ ما يحبه فيه هو عدم التدخل في شؤون الآخرين، يقصد بذلك صمته وعدم مقدرته على الكلام، يحسده على نعمة الحياة في القصر وملازمة الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، ويحسده على ملابسه الجميلة ونعومته، وعلى حلقة الذهب المتدليّة من أذنيه: «أنا سعيد بحياتي في المزرعة ولكنني أحصل على هذه السعادة بشق الأنفس، بسرقاتي الكبيرة والصغيرة والتفنن في إخفائها، بعملي المتواصل ليل نهار، بالصبر على العمال المتبرمين المتزمتين السفلة، العمّال الذين لا يعجبهم شيء، ويتصيّدون الفرص للهرب أو السرقة، بينما يحصل عليها ذلك المخصي دون أي جهد يُذكر؛ بصمته لا غير، نعم، بصمته فقط».

الأسيرُ يُطيعُ

لم تكن قضيّة الأسر لتمرّ بسهولة في عقل الصغير سُندُس، ولم يستطع أن يستوعب مسألة سلبه حرّيّتَهُ بالتزامن مع سلبِ عُضوَهُ الذكري. لم يفهم العلاقة بين الاثنين، ولا سبب ربطهم له بتلك الجنازير وضربه بالسياط لأتفه الأسباب. عندما أُحضر له مُطيّعُ الأسرى والده، تحدث إليه قائلا: «بُنيَّ، إنك لم تعد حُرًّا، أنت الآن أسير، وذلك يعني أنك مملوك، لم تعد تنتمي إليّ، بل إلى السيد الكبير، وهو الذي يمتلك كل شيء، إنه مثل الرب، وعليك أن تطيعه وتخدمه».

تمّ أَسْرُ كلّ سكان القرية عندما أحاطتهم قوات صائد الرقيق والفيلة، ثعبان بن كُليب العماني الملقّب بالضبع الأرقط، إحاطة الخاتم بالإصبع. لقد أرهبوا السكان وحيواناتهم وطيورهم وأشجارهم وعشبهم بضجيج الأسلحة النارية التي سمعوا بها وخافوا منها قبل أن تكون لديهم أي تجربة فعلية معها. إنها تقتل بمجرد أن تصرخ، ومن لم تقتله تتركه مُعوّقًا مدى الحياة، ومن سمع صوتها ولم تدركه رعاية الربّ الخالق لإفريقيا سريعًا، سيصاب بالجنون والصمم والعمى. كان الضبع الأرقط قد توفي بالملاريا قبل ذلك بسنوات، ولكنه لم يتخل عن قيادة جيشه. لقد كان شبحه يقود جيشه إلى المعارك. وليس في هذا ضربٌ من الفانتازايا أو التخيّل، بل إنّه كان يفعل ذلك حقًّا، وبإمكان الجيش والضحايا أن يَرياه معًا. نعم إنه لا يستطيع أن يطلق النار، أو أن يذبح أو أن يغتصب، ولكنه يتقدم الجيش ويضع الخطط ويتكلم ويصرخ وينتصر في المعارك بصورة أقوى وأنجح مما كان أيام حياته متجسّدًا بدمه ولحمه. لقد تمرّدت روحه الشريرة حسب قولهم على ملائكة الجحيم، واستطاعت أن تفلت من بين أيديها وتعود إلى أنغوجا. ولذا فما كان أمام القرويين العُزّل البسطاء إلا الاستسلام. ولم يُترك في القرية غير العجزة والمرضى، لم تُترك لهم دجاجة واحدة أو معزاة أو خنزير بري، أو لحم جاف أو حنطة، لقد أخذ النخاسون كل ما هو مفيد ويمكن أكله أو بيعه أو الاحتفاظ به أو استعباده.

أصبحت القرية خرابة كبيرة، وبيوتًا فارغة خاوية على عروشها، صامتة وحزينة، الأصوات الوحيدة الصّادرة عنها هي أنّات المرضى والمحتضرين، ونداء العجائز المُعوّقين عن الحركة، ونعيق البوم، وصراخ النسور وهي تنتظر الأجساد الحية لتصير جُثثًا طازجة.

ما سيُعرف فيها بعد بالأسير مُطيع الخصيّ، لم يكن سوى زعيم تلك القرية، وما سُيسمّي بسُندُس هو أصغر أبنائه، وهما الوحيدان اللذان أُبقيا في الجزيرة، فقد تم بيع البقية عبر المُحيطات، حين كانت الحاجة إلى العمالة المجانية في أوروبا وأمريكا مُلحّة، نحتاج إليهم من أجل آلة الصناعة والزراعة وبناء الطرق والموانئ العملاقة، ومن أجل البحوث الإنسانية داخل المختبرات في مجال الأدوية، كما نحتاج إليهم في الخدمة المنزلية، لكي نتفرغ نحن السادة الأشخاص الأقدر على التفكير والإبداع، للتمتع بالحياة التي نستحق، والتركيز على ما يُفيد مستقبل البشرية، طالما كان الزنوج لا يفعلون شيئا ذا بال في أدغالهم وغاباتهم الاستوائية في إفريقيا المعتبرة أرضًا بلا سكان (No man land)، ماذا يفعلون هناك غير الصيد والتقاط الثمار من الأشجار ومطاردة القرود والرقص والضجيج والنكاح والنوم والكسل وممارسة البلادة الحيوانية والسحر الأسود البغيض؟!

لم تكن قضيّة الأسر لتمرّ بسهولة في عقل الصغير سُندُس، ولم يستطع أن يستوعب مسألة سلبه حريّتَهُ بالتزامن مع سلبِه عُضوَهُ الذكري. لم يفهم العلاقة بين الاثنين، ولا سبب ربطهم له بتلك الجنازير وضربه بالسياط لأتفه الأسباب. عندما أَحضر له مُطيّعُ الأسرى والده، تحدث إليه قائلا:

«بُنيَّ، إنك لم تعد حُرًّا، أنت الآن أسير، وذلك يعني أنك مملوك، لم تعد تنتمي إليّ، بل إلى السيد الكبير، وهو الذي يمتلك كل شيء، إنه مثل الرب، وعليك أن تطيعه وتخدمه».

«قد تسأل يا بُنيّ نانو: لماذا عليك أن تصبح أسيرًا؟ لأنك الأضعف وهو الأقوى؛ فالأرنب تأكل العُشب؛ لأنه الأضعف، والثعلب يأكل الأرنب لأنّها أضعف منه، والأسد يأكل الثعلب، لأنّه أقوى من الثعلب، والجاموس يقتل الأسد؛ لأن الجاموس الأقوى في الغابة، والسيد يقتل الأرنب والثعلب والأسد والجاموس والفيل، ويقتلنا نحن أيضًا وقتما أراد لأنه الأقوى. إنه يمتلك البندقية التي تطلق النار، هل فهمت؟»

«الضعيف مأكول يا بُنيّ، والقوي آكل، فالقوي مؤيّد من قبل الرب».

كان سُندُس يريد أن يسأل والده، لماذا قطعوا عضوك وعضوي، ولكنه لا يستطيع الكلام. الأسئلة تغلي في عقله، ورأسُه مشحونة بالكراهية والبغض والحنق على السيد القوي، يريد أن يسأل، لماذا لم يقتل الربّ السيد، أليس الربّ أقوى من السيد؟ وماذا يعني أنه مؤيد من الرب؟!

أشار الابن نانو برأسه إلى أنه قد وافق على كلام والده، وسيلتزم بالطاعة.

«حسنا، سترافق الأميرة ابنة السلطان، وعليك أن تخدمها بجهد، وأن تكون صادقًا وطيّعًا، أن تكون وفيًّا، وألاّ تحاول الهرب، سيطلقونك من الحديد، ولكنك إذا حاولت الهرب، سيقطعون

رجليك أيضًا كما قطعوا عضوك، وسيقطعون يديك ثم يقطعون رأسك، هل فهمت؟»

تحرك شبح عضوه بين فخذيه.

نبعت دمعتان ساختنتان من عينيه تدحرجتا على خديه المتورمين ثم سقطتا على قيد الحديد الدافئ الذي امتصهما ببطء.

قال له والده بهدوء بالغ وهو يغادره: «كلُّ ما قُطِعَ موجود عند الرب، إنه يحتفظ به لك».

عندما أُضيف سندس إلى خدمة الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا، كانت في التاسعة من عمرها وهو في الثانية عشرة، كانت نحيفة مرحة تحب اللعب واللهو، كثيرة الكلام، لها بشرةٌ حنطيةٌ وشعرٌ كثيفٌ مُسدلٌ على كتفيها، ومنذ أن توفيت والدتها في فراش النفاس نشأت في قصر والدها برعاية خادمة هندية، لم تر والدتها، ولكنّ والدتها ودّعتها بنظراتها الأخيرة وهي تصارع سَكرات الموت الأخيرة، وتهذي بالفيلة التي قتلتها في رحلة صيد طائشة. كانت علاقة البنت بسُندُس جميلة وطيبة، كل ما كان يبعث الحيرة فيها من هذا الطفل هو عدم مقدرته على الكلام، ولكنه جيد السمع ويستطيع أن يقوم بكل ما تأمره به. كان يصنع لها اللعب من الخشب والرمال، ويحملها على ظهره في لعبة الحمير، وكانت تقدم له الحلوى والفاكهة، والطعام الجيد أيضًا، وعندما بدأت في تلقي الدروس الشفهية في الدين الإسلامي ومبادئ الرياضيات والفقه، بالقصر، سمحت له بأن يجلس قريبا لكي يتعلم، فكان في صمته ذلك يحفظ كل شيء عن ظهر قلب، على الرغم من أنه لم يؤمن بها يحفظ، لأن الكلام

كان غريبا فهو باللغة العربية التي لا يعرفها ولا تعرفها الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، لم يستطع عقله استيعاب فكرة وجود رب غير الربّ الإفريقي الذي يعرفه، ولا أنبياء غير السحرة المعلمين المقيمين في بعض القرى بالدغل، كان والده قد أخذه إليهم للتعلم مع بعض الصبية في العاشرة من أعمارهم، كما كان يظن أن هذا الدين يخص السادة وحدهم، فهو بلغتهم، والنبي منهم، وهم المعنيون به لا غير، ولكن يعجبه التنغيم والطريقة التي يتلو بها الفقيه القرآن. ولاحقا عندما طلبتُ منه أن يصلي خلفها، صلى بخشوع لربه الدغلي الذي أهمله وسلمه للنخّاسة القادمين من خلف البحار، كان يسأله في صمت، وكعادة الربّ فهو لا يجيب، هو ليس معنيًّا بأسئلتي الفردية، هناك شؤون أعظم تشغله.

بدأت العلاقة بينه وبين جسد الأميرة التي باركها الربُّ مؤخّرًا، عندما توفيت مربيتها الهندية، بعد ست سنوات من التحاق سُندُس بخدمتها، توفيت الهندية مايا التي كانت تقوم برعايتها رعايةً كاملة، بدءًا بإطعامها وتغسيلها وتصفيف شعرها ودلك جسدها وتطييبها وهدهدتها عند النوم بأغنيات هندية قديمة، وانتهاءً بغسل ملابسها وحفظ أغراضها. لم تفكّر كثيرًا في الحصول على جارية بديلة من نساء أبيها وجواريه الكثيرات، بل فكرت مباشرة في سُندُس، وما يمنعه من مساعدتها على الاستحمام! إنها لا تريد أن تتعرف إلى أخريات، فقد كانت الهندية بمثابة أمها ووصيفتها وصديقتها، وما يؤسفها حقا أن والدها لم يحقق للهندية الطيبة العجوز رغبتها في تطبيق وصيتها عند موتها، فقد أرادت أن تحرق جثتها بصندل كانت تجمعه طوال

حياتها وأن يُدفن رمادها في قريتها في **مقاطعة كوسالا** بالهند، أو أن يُذر رماد جسدها في مياه المحيط الهندي، ولكنهم قاموا بدفن جثتها سريعًا في مقابر غير المسلمين والأسرى عند مرتفع صخري ليس ببعيدٍ عن المحيط، ولم يحضر والد الأميرة السلطان الدفن، قام به بعضُ الأسرى العجولين، وحضره هندي واحد عجوز كان يعرفها منذ زمن بعيد. أمّا ما لا تعرفه الأميرة الصغيرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، هو أنّ الهندية العجوز نهضت من قبرها في اليوم الثالث بعد الدفن،، تمامًا كما فعل السيد المسيح ابن مريم وفقا لإنجيل يُوحنا ورواية حارس المقبرة، حلّقتْ قليلًا في سماء الجزيرة، مثل ملاك طيب يلقي تحية حب وسلام للكون، ثم تسكعت لبعض الوقت في أمكنة عاشت فيها وأحبتها في قصر البنت، ومسحت أيضًا على شعر الأميرة، وقبلت خديها قبلتين عميقتين، قبل أن تحملها ريح خفيفة دافئة نحو قريتها **مانا سكريتا**، حيث توحدت روحها المتعبة القلقة مع روح البراهما واستراحت هناك إلى الأبد.

عندما استجاب لندائها مهرولا كعادته وجدها عارية. الحمّام الكبير الشبيه بحوض منزلي للسباحة، يسع ما لا يقل عن خمسة أشخاص بالغين في أحجام السادة ذوي الأجساد المتشحمة المسترخية، ويتكون من حوض رخاميّ ملوّن، ومقعد صغير من الرخام ملصق بأرضية الحوض، وفي الأعلى غلاّية الماء، وهي عبارة عن وعاء من الألومينيوم كبير الحجم، ويقبع تحته موقد الفحم الذي يُستعمل للتدفئة والإضاءة الخافتة. الوعاءُ مطليٌّ بدهانٍ أزرقَ، رُسمت عليه طيور عملاقة ذات أجنحة ملونة، وهي رسومٌ أقرب إلى

المدرسة الهندية القديمة في الرسم، ربما قامت برسمها الهندية العجوز بنفسها أو طلبت من أحد الرسّامين القيام بذلك، لأنّ الحمّام بُني أثناء خدمتها في القصر قبل ميلاد الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا. فتح سُندُس عينيه الشاسعتين في رعب، وأراد أن يعود أدراجه، ولكنها قالت له:

- تعال اغسل ظهري بالماء، اخلع ملابسك وادخل الحوض، ما الغريب في الأمر؟!

لم يكن هناك شيء غريب بالفعل، فقد شاهدها عارية من قبل، وشاهد آلاف العراة في قريته، ولكن ما أدهشه فعلا هو الوضع الذي وجدها فيه، كانت تجلس على المقعد الرخامي الصغير فارجة ساقيها تماما، بينما تغسل عضوها، صحيح أنّ مربيتها مايا كانت تشاهدها في كل الأوضاع ولكنّ مايا امرأة عجوز، وتعاملها كابنتها، أما سُندُس فهو مجرد أسير، ليس برجل، ومن المفترض ألاّ تكون لديه أيّ رغبات جسدية، وألاّ يفكر في ذلك أصلًا، وإذا فكّر فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا، فلمَ الحذر منه والخوف؟ إنّه خصيّ من أجل أن يكون معها في كل أحوالها، حارسها وخادمها، فوالدها لا يزورها في هذا القصر إلاّ نادرًا، يكتفي بالحراس في الخارج، وسُندُس الخصيّ المأمون في الداخل، وهذه ميزة الخصيّ، ليس برجل وليس بامرأة، إنه بقوة الرجل ولكنّه أشبه بالنساء في الوقت ذاته لافتقاره إلى ذلك العضو. وهي أيضًا مخصية، لقد تم بتر عضوها وهي في السابعة مثلها مثل كل بنات السادة، ولكنها لا تظن أن ذلك يؤثر فيها كامرأة وستظل امرأة بعضو مبتور، وهذا طبيعي وعادي، فالمرأة ليست عضوا بل جسد

جميل، «أمي كانت كذلك وربما كل جداتي، وإذا أنجبت بنتًا في يوم ما ستقوم ببتر عضوها. يقولون إنّ ذلك جزء من الدين، وإن الرسول أوصى به، وهي ليست متفقهة في الدين، ولكن عليها اتباع ما وصلها منه، فالرب يعرف شؤوننا أكثر منا، وعلى المرأة أن تتخلص من ذلك الجزء النجس الشيطاني النابت في جسدها، لأنّه يقودها إلى الشر والرذائل والشهوات العارمة.»

- «عليك أن تعتاد على ذلك، أن تعتاد عليَّ».

لم يشعر بأنه على ما يُرام، عليه أن يتماسك قليلا، ليس لأنّها أثارته جنسيًّا بل لأنّها أثارت فيه الشعور بالغيظ من سلوكها، فالحشمة من الأدب، والتعري أمام رجل غريب هو من قلة الحياء، وأيضا من سوء التربية، هذا ما يجرى في مجتمعه بالقرية، «ولكنك الآن لست رجلًا حرا في قريتك، أنت مجرد مملوك أسير لدى السادة، وعليك أن ترى وتسمع وتفعل ما تؤمر به»، كان جسدها ناعمًا ونظيفا ونقيًا، أشبه بالذهب، ولأول مرة يلاحظ أن نهديها صغيران جدًّا، ولونهما أكثر بياضا من جسدها الذي يميل إلى السمرة.

- «ادخل الحوض فلن يقتلك الماء».

لا يعرف كيف يبدأ في غسل ظهرها، نهضت من المقعد الرخامي الصغير، جلست على ركبتيها، وهي تشير إليه بأن يأخذ قطعة الصابون الهندي المعطّر ويمررها على ظهرها، ويغسله جيدا، ولكنّ ظهرها نظيف لامع لا يحتاج إلى غسل، أحس بأنه سيوسخه بكفه الكبيرة التي لا يعتني بها كثيرا، كانت تشجعه على الأمر، وتطلب منه القيام به بالطريقة التي يراها، إلى أن أصبح مسترخيا، وعمل على

تغسيل ظهرها وجسدها بنشاط وهمة دون خشية ارتكاب أخطاء ما، مرر أصابعه في إبطيها، تحت شعرها، على أصابع رجليها، بين أنامل كفيها، على رأسها، غسل وجهها بماء فاتر، على ردفيها الصغيرين، غسل نهديها، ضغط عليهما قليلا، كانا قويين مثل ثمرتي باباي ولكن فيهما مرونة أعجبته كثيرا، ابتسم، فضحكت، وعندما امتلأ الحوض بالماء الدافئ أخذا يلعبان كطفلين شقيين.

تحولت العلاقة بينهما بصورة درامية إلى نوع من الصداقة المسكوت عنها، كان سُندُس يمارس مهنة الخادم بصورة طبيعية، ويقوم بكل ما هو مرجو من خادم لأميرة مدلّلة كسول، ابنة وحيدة لسلطان يدّعي أن جده هو النبي سليمان نفسه، الشيء الذي تغير هو أنه ما عاد يحس بأن عمله واجبٌ تحتمه عبوديته، بل أصبح ذلك أشبه بعمل طوعي يقوم به حبًّا في الأميرة، ولكي نكون أكثر دقة، إنه حب لجسد الأميرة التي باركها الربّ مؤخرا..

عندما يغسل يديها قبل الطعام وبعده..

عندما يقدم لها الطعام، وعندما يأخذ الأوعية ويقدم لها الماء أو عصير المانجو..

عندما يخلط عصير المانجو بمفراكة الخشب..

عندما يجلس قربها في انتظار طلباتها..

عندما يتجول معها في الأسواق أو في الشواطئ أو في الميناء..

عندما يساعدها على ركوب حمارها..

عندما يسرج الحمار..

عندما يستمع إليها وهي تردد أغنيات أوهورو المتوحشة..

عندما يجهز لها فوطها الشهرية..

عندما يعدّ الحمّام..

عندما يصطادان العصافير الحزينة واليراعات المضيئة في موسم الأمطار..

عندما تلتقط بأناملها البَرَدَ وهو فاكهة الربّ المتساقطة من السماء..

تصنع بنفسها لعبا من البامبو وثمار التك وشجرة «ذات الأثداء»..

عندما يحملها بين ساعديه ليضعها على ظهر أتانها..

عندما يحمل البقايا بعيدًا ليلقي بها في المحيط..

عندما يحضر والدها السمين الضخم في صحبة والده الذي بدت عليه علامات السمنة..

عندما يستمع إليها وهي تحاور والدها في شؤون الحياة..

عندما يتمنى والدها أمامها: يا ليتني أنجبت ولدا، البنت ليست سوى فضيحة..

عندما تضحك..

عندما تبكي..

وتسيح من عينيها الشاسعتين دموع نقية كالبلّور..

عندما تعبر أمامه عارية مثل سحابة..

عندما يحرك الهواء خلفها، ليبعد عنها أنفاس المحيط الحارقة والذباب والبعوض والنحلات الشرسات..

عندما يدلك ظهرها وصدرها ومؤخرتها ويتحسس نهديها بكفيه الكبيرتين..

عندما يراقبها وهي تنمو و لونها يتغير عبر الأيام والفصول والمواسم..

كل ذلك لغة تنطلق من جسدها لتخاطب صمته، لغة تخصه هو بالذات، إنه حوار بين الأشياء التي حولها وبينه، بين ما لم تقله ويسمعه.

عندما يراقبها ليلًا وهي في فراش النوم تتنفس بهدوء..

عندما تحلم وتعلو أنفاسها وتتحرك رموشها بصورة قلقة..

كان يعرفها، أقصد يعرف جسدها، بريئا هادئا مثل وردة في الحديقة، نزقا ضاجا مثل طائر الطنان، أو مجنونا شرسا مثل لبؤة..

يحبه عند الصباح، عندما تبدأ في الاستيقاظ تدريجيا، يتفتح الجسد مثل وردة تحتفي بأشعة الشمس الأولى، بصياح ديك الصباح، يستطيع أن يرى دمها يستيقظ في كسل، والأعصاب الدقيقة وهي تعبث بأوتار العضلات النائمة، يعرف كيف تتحرك كل عضلة منه، بتكاسل في البداية، ثم تتسارع تدريجيا، تعجبه طريقتها في فتح مقلتيها المحمرتين عند الصباح، الصافيتين طوال اليوم، وهما تقاومان ضوء الشمس حين تطلّ من النافذة الشرقية خارجة من المحيط الهندي، تحجب الضوء بكفها، تتثاءب، فيسرع لإسدال الستارات السميكة، حينها ينهض الجزء العلوي من الجسد، ترقد على ظهرها قليلا، فيحملق فيه ثدياها اللذان تابعهما منذ أن كانا صغيرين كحبتي الليمون، ثم وهما ينهضان تدريجيا ويتغير لون البشرة المحيط بهما،

من الوردي إلى الأبيض فالأزرق فالبني فالوردي مرة أخرى، ومنه إلى البنفسجي، ومن البنفسجي إلى ما لا يدري له اسما من الألوان التي يراها بالفعل أو يتخيلها أو سيتخذها الثديان بعد ذلك، إلى أن تشكلت على قمتيهما حلمتان تحيطهما هالة حمراء، ثم راقب تحولات ألوان تلك الهالة، كل لحظات جسدها وتاريخه مسجل عنده بدقة، في رأسه الصامت، في ذاكرة عينيه الواسعتين وهي تتخذ هذا الوضع كل صباح.

تنهض سيدته، يساعدها في إزالة ما التف من الغطاء على جسدها، ثم يتلوى الجسد كما لو أنه جدول صغير من الماء النقي ينحني بلطف بين صخور الشاطئ، يتمطى خصرها قليلا أو كما يتهيأ له، مقاومًا ثقل الردفين الصغيرين، بينما يعمل الجسد على النهوض، يسرع هو لمساعدتها في الوقوف على الأرضية المفروشة بالسجاد الفارسي المورد، تضع قدميها عليه كما في الحلم بخفة وحذر، هي ليست في عجلة من أمرها يمكنها إدراك كل شيء بمهل ورويّة، في تلك اللحظة بالذات، تفوح رائحة جسدها، وكلما تحرك الجسد نحو الاستقامة، انطلق عطره عنيفا وقويا، لا يهم إن كان طيبا أم زنخا، المهم أنّه شهي، يثير في روحه قوة منعشة، يعطيه طاقة إيجابية تكفيه لبقية اليوم، تجعله يستيقظ بالفعل، إنه مثل قهوة الصباح التي يبدأ بها يومه، وأشبه بالخمر المتسربة بين مسام الجسد في مراحل السكر الأولى، يحس بأنه طائر في سماء لا حدود لها، إنه يحرره من قيود العبودية، هذا العطر الجسدي المبارك هو الذي يحرره كل صباح بمتعة وجنون، ويأخذه إلى بلدته، يلتقط الفاكهة البرية الطازجة

من الأشجار، يلعب مع القرود والسناجب، يسبح في الهواء كصقر مجنون محتفيا بجناحيه، يظن أن السماء من صنع أسلافه وهو وريثها الأبدي والشرعي، تنتفخ فتحتا أنفه الكبيرتان، لتلتقطا كل ذرة من عبق أميرته، تتسع رئتاه كجرابين شاسعين أسطوريين من جلد ثور الجاموس، يقف منتصبًا لحظةً مقدّسةً من الزمن، يحس بأن شبح شيئه المقطوع ينتصب أيضا، ذلك الشبح الكائن في مكان ما من عقله:

إنه يصلي..

للرب الإفريقي الأسود النائم في كهف ما..

لروح الأشجار الخضراء التي تعبث بها الريح..

لعبق المانجو والقرنفل والزنجبيل..

لزقزقة طائر..

للأرض المعشوشبة الندية..

للبحر الذي يأتي بالريح والأسماك والنخاسة أيضًا..

للنخاسة وتجار القرنفل والعاج الذين أتوا بالأميرة التي باركها الربّ مؤخرا..

للرب العربي الذي بارك أميرته..

لأبيها..

للقيد الحديدي..

لأبيه المطيع الحزين..

يصلي في صمت مشحون بالضجيج..

تمد له يدها اليمنى، يلتقطها في تلهف، رقيقة ناعمة ودافئة، بها

طزاجة كل شيء بكرٍ وبدائيّ، طازجة كفكرة الخلق في مُخيلة الرب، طازجة في صوفية الأشياء عندما تتوحد، إنّها بداية كل شيء ونهاية الأشياء جميعها، ومن هنا يبدأ الإنسان الجسد، وتبدأ حكاية الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا.

إفطارها من جبن الماعز ولبن الماعز وشرائح من لحم الماعز البري، يوصى به من أجل أن ينمو الصبيان والصبايا بذكاء روحي وبدني، وهو مفيد للنمو الصحي، ويبعد عن الصبية العين الساخنة، وسحر الساحرين وحسد الحاسدين، فعائل السحرة وشؤم الأشياء ومكائد الإنس والجن والسحر الأسود ومكر الزمان والمكان، تعده خادمات هُيئن من أجلها وحدها، ثم يقدم لها فاكهة التفاح والقريب فروت، عصير الليمون الدافئ الذي يحافظ على جسدها رياضيا غير مترهل وصحيحا، وبعد ذلك عليها أن تشكر الربّ كما علّمتها الهنديّة العجوز فيما مضى:

«الرب الذي تعرفينه..

هو الربّ الذي نعرفه..

هندوسًا ومسلمين وطاويين وسيخًا ومسيحيين ويهودًا ووثنيين..

ولكنّنا نصلي له بطرق مختلفة..

وهو يقبلنا جميعا ويباركنا أيضًا ويحبنا كما نحن، أو كما نحس بذلك أو نرغب فيه، وإذا شئت الحقّ، فنحن خارج ما هو يومي عنده. لأنّ الصانع عندما يصنع المحراث، يجعله يعمل وفقا لشروطٍ وإمكانياتٍ محدّدة سلَفًا من قِبَله، فالرب هو الصانع ونحن المحاريث.

كما أنه لا يحتاج إلى صلاتنا..

وهو أيضًا لا يحتاج إلى شكرنا أو جحودنا..

لأنه كائن من دوننا ومستقل بذاته..

ولا يحتاج إلى محاريثه لكي يكون..

فكينونته الأسبق وهي الأصل، وكينونتنا لاحقة للذات، ولا ترقى حتى لكي تكون الفرع..

ولا صلة لنا به؛ نحن أحط من أن تكون لنا صلة به..

لأنه أعظم من صلة الواصل، ووصل الصلة، فكلاهما بشريان وقتيان وظرفيان في آن واحد..

ولكن حاجتنا إليه، مصدر راحتنا نحن في الأصل.»

وقالت لها: «نحن أيضًا هو، أما هو فلم يكن نحن ما لم نصل إلى درجة النقاء الكامل أو نيرفانتنا الشخصية، أقصد الخلاص الذاتي.»

قالت لها الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا: «لم أفهم!»

قالت: «ما لا يُفهم لا يعني أنه لم يُدرك.»

قالت الأميرة التي باركها الربّ مؤخرا: «كيف أدرك ما لا أفهم؟»

قالت لها: «بالصلاة.»

صلّت الأميرة، شكرت الربّ على أنها وُلدت أميرة، وليست خادما أو أسيرا، ولم تُولد لدغليين وثنيين يمكن سبيهم وبيعهم في أنحاء الدنيا خلف المحيطات للعمل دون أجر ودون شكر ودون رحمة، شكرت الربّ لأنه لم ينجبها من أبوين من الشعوب الكافرة

التي سيكون مصيرها النار يوم القيامة، شكرت الربّ لأنّه كان دائمًا في صفّها، رعاها قبل ميلادها، فجعل والدها السلطان العظيم سُليمان بن سليم الذي باركه الرب، سليل سليمان الحكيم، وجعلها ابنته الوحيدة وارثة عرشه وملكه وسلطانه، تصلي للرب وتحبه وتعبده وتحفظ قرآنه جيدا على الرغم من أنها لا تفهم معانيه، وقد أدخلت خادمها سُندُس الإسلام، لم ينطق الشهادتين، فلسانه لا يعمل، ولكنه يصلي خلفها، وهي متأكدة أنه يحفظ القرآن مثلها، يحفظه في صمته، فهل تحتاج عبادة الربّ إلى الكلام؟ ألا يسمع الربّ صمت الصامت، أم أنّ الهنديّة كانت على حقّ حين قالت لها إنّ الربّ لا يسمع تفاهات المحراث!

وهي تشكر الربّ على أنها وُلدت في هذه الجزيرة فردوس الأرض، وفي تلك اللحظة خطرت في ذهنها أغنية أوهورو «بلادي جنة المستعمر وجحيم أهلها»، فأحسّت بانقباض في قلبها، وتوقفت عن صلاتها، قبل أن تنادي:

-سُندُس!!

أتى إليها، قالت له بصوت خفيض مبحوح:

-سامحني سُندُس!!

ليس على سُندُس أن يفهم اعتذارها ولماذا هي آسفة، بل إنّه لم يعِ تمامًا ماذا تعني، لأنه لم يكن جزءًا من عمل صلاتها الذهني، «فكيف تعتذر سيدةٌ عظيمة لمملوك لا حول له ولا قوة؟ ولماذا؟ وفيم؟ وكيف؟ فقد قال أبي إن القوي هو الآكل والضعيف مأكول، وإن السيد دائما على حق، والأسير لا يكون على حق إلا إذا تكرم عليه

السيد بذلك، فهل يعتذر الذئب للأرنب وهو يأكله في استمتاع؟» لم يسألها لماذا، لأنه لا يستطيع الكلام، فادعى أنه لم يسمع الكلمة أو أنها تتحدث إلى نفسها، أو أنه لا يعرف معنى كلمة سماهاني عندما يقولها السادة للمملوكين.

«لا يهم، لا يهم كيف تراني هي، بأي زاوية أو بأي منظور»، ولكن خطر في ذهنه سؤال أضحكه: «مَن يَملِك مَن؟»

على الرغم من أن الإجابة على مثل هذا السؤال تبدو سهلة جدًّا، فإنّه لم يجد له إجابة فعلية. منذ وقت بعيد، كان ينتابه شعور بأنه يمتلك الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا، أو بالأحرى يتملك ذلك الجسد الذي تتلبسه الأميرة، إنه يخصه هو، لا كجسده بل كجسد يمتلكه هو، بمعنى أقرب، إنه الجسد الذي هو سيده، بلغة النخاسة المباشرة: «الجسد الذي اشتراه أو الذي أسره بقوته، تلك القوة التي يتحدث والده عنها كثيرًا، لا يهم ما وجهة نظرها، فهذا لا يخصها كثيرًا، الأمر يخصه وحده، تلك الأميرة له طالما لا يمكنها أن تغادر الجسد الذي يملكه، فليست الأميرة شيئًا آخر غير جسدها»، صاح في صمت صمته: «أنا سيدك وأنت مملوكتي».

ضحك، ضحك بصوت عالٍ دون إرادته.

صاحت الأميرة مندهشة:

-ما يضحكك؟!

صمت فجأةً، كان ينظر إليها بذهول، وهي أيضًا كانت تنظر إلى عينيه بذهول، تريد أن تقرأ ما لا يستطيع قوله، أو أن تعرف ما

يضحكه على الأقل.

-أتضحك لأنني اعتذرت إليك، أم أنك جننت؟!

أخفى وجهه، ربما خجلًا من أفكاره الطائشة، أو خوفًا من أن تقرأ أفكاره من وجهه، وحينها ستقع الكارثة، «سيقومون بقطع لسانك العاطل الذي يقبع في فمك الكبير دون وظيفة، سيحفرون ثقبا كبيرا في رأسك ويخرجون تلك الأفكار البائسة فكرة فكرة، ثم يحرقونها في أقرب موقد.»

قبل خمس سنوات تقريبا، في صباحِ صيفٍ حارق، حضر والدها فجأةً، كانت قد احتفلت قبل شهر من ذلك التاريخ بعيد ميلادها العشرين، جاء والدها يحمل أخبارا اعتبرها هو سارة، بعد أن احتسيا قهوة الضيافة، قال لها:

-لقد تقدم رجل ثري وطيب ومهذب للزواج منك، إنه ابن أسرة وعز وجاه.

قالت بصورة عدوانية:

-ومن قال لك إنني أريد أن أتزوج؟

قال الأب وقد فوجئ بالإجابة السلبية السريعة:

-ومن قال إنك لن تتزوجي؟

قالت بإصرار:

-أنا قلت.

قال ضاحكًا وهو يعدّل عمامته:

-حسنا، الزواج شأن أُسري، أنا هنا من أجل أن أبشّرك بهذا

الخبر الطيب، إذا لم تتزوجي فستؤول أسرتنا إلى العدم، أنا وحيد وأنت وحيدة، فكري في ذلك، على سلالتنا أن تستمرّ.

قالت بصورة قاطعة:

-هذا ليس الوقت المناسب لذلك، لا أحتاج إلى رجل الآن، عندما أفكر في الزواج سأخبرك.

ضحك السلطان، وقبل أن يغادر، قال لها:

-يمكنك أن تتزوجي الآن، مع حريتك الكاملة في الاحتفاظ برأيك في الزواج، أنا الآن لست بكامل قواي البدنية وصراحة أحس بالضعف، ولولا رحمة الله لأصبحت بلا وريث، وأريد أن أرى حافظا للعرش قبل موتي، هذا المُلك الذي بناه جدي بفوهة البندقية، لا يمكنني أن أضيعه بعناد عروس مغرورة مثلك، ألف مبروك، بالمناسبة هل تريدين رؤية العريس قبل يوم الزفاف، مثلًا؟!

بعد شهر تقريبًا، كانت الجزيرة الصغيرة تحتفي بزواج الأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا، كان الاحتفال عبارة عن مهرجانٍ حقيقي، أشبه بالعيد، وعلى الجميع المشاركة فيه، بالرقص والغناء وتقديم الهدايا، فالفرحة واجبة ورسمية، ومثل هذه المناسبات الطيبة تظهر الخائنين الذين يكنون الحقد والكراهية للأسرة المالكة، وتظهر الطيبين ذوي الأخلاق الرفيعة، الذين يكنون الحب والاحترام للسلطان وأسرته، إنها بمثابة استفتاء شعبي، على الجميع التصويت فيه بـ«نعم».

اشترك الأطفال المماليك في سباق الحمير والهجن، وتسابق

الصيادون بالمراكب الشراعية الصغيرة ولعبوا لعبة البحر المفضّلة «قراصنة وتجار»، ونُظِّم الأسرى الكبار في لعبة سباق الدائرة، وهي لعبة يكرهها اللاعبون ويستمتع بها المتفرجون أيما متعة، إذ يتسابق الأسرى في حلقة كبيرة، والفائز هو الذي يبقى بعد سقوط الجميع نتيجة الدوار الذي يصيبهم، وقد يستفرغ البعض، وقد يصاب آخرون بإعياء شديد، وقد يموت البعض من ذوى القلوب الضعيفة، ولكن مظهر المتسابقين وهم مثل السكارى يدورون في حلقة لا نهاية لها، يثير عاصفة من الضحك لدى السادة.

غنت فرقة القصر الموسيقية في الطرقات، وهي الفرقة التي تم تدريب أفرادها على الموسيقى العربية في القاهرة، غنى الأسرى إجباريا ورقصوا في الشوارع والمزارع وأمام القصور الفخمة المترفة، ولو أن بعضهم مازال بقيوده الحديدية، غنت أوهورو أغاني غير متوحشة ولكنها لم ترقص، غنّت عن الحُب والغزل والبحر والأسر، وفي الليل أُضيئت الشوارع والأزقة، وأقيمت احتفالات بالألعاب النارية الصينية القديمة التي تم شراؤها خصيصا من أجل هذه المناسبة، وعند الصباح الباكر ركب العروسان الباخرة وأبحرا إلى مسقط ومنها إلى القاهرة لقضاء شهر العسل.

إنه زواج طبيعي، ليس للحب ولا للعاطفة أيّ مكان فيه..

الحبُّ؟

ما هو الحبُّ!

لماذا الحب، وما هي وظيفته!

فأهمية الزواج تكمن في حفظ النسل من الانقراض عن طريق إنجاب الأطفال الشرعيين ليرعوا آباءهم في الكبر، وعند موتهم يرثونهم ويدعون لهم بدخول الجنّة، فالرب يستجيب لدعاء الأبناء الصالحين، ويستطيع الزواج أيضًا أن يشبع الغرائز الجسدية بصورة شرعية ومقبولة اجتماعيًا. إنّه «الزنا المبارك» على حدّ عبارة السلطانُ الذي باركه الربّ مُؤخّرًا.

صراعُ العاشقِ والسيد

احتسى كأسًا من الروم الكوبي، كان ضجيج المسافرين وهم جميعا من التجّار يملأ باحة السفينة التجارية العجوز. لم يكن أكثرهم ثراءً، ولكنه الأهمّ مكانة، وهو الموقع الاجتماعي الذي حصل عليه بزواجه من الأميرة التي باركها الربّ مُؤخّرا، فهو مشروع سلطان عليهم وحاكم للجزر التي ينبت فيها المال كما ينبت العشب. لذا يحظى باحترام جميع التجار، وتودد النساء الفقيرات اللاتي تتمركز كل ثروتهن في قدرتهنّ على إغواء الرجال الأثرياء.

«أنا لا أكره هذا المخلوق الصامت، ولكنني لا أحبه أيضًا، لا أعرف ما يدور في رأسه الكبير، لا بد أنها تعجّ بأشياء كثيرة غريبة، إنه أكثر غموضا من كونه مجرد شخص صامت، عيناه الكبيرتان تقولان الكثير ممّا أجهل، بل ليس لدي وقت للغوص فيها ترميان إليه، وليس لدي الوقت الكافي لشغل نفسي بمملوك تافه، لولا ارتباط الأميرة به، وأمانته، إذا كانت كلمة أمانة في محلها السليم، إذ لا أمان لمملوك، لبعته لأول نخاس مبتدئ يمر بالجزيرة، ليتخلص منه في أول مزرعة قطن في أمريكا أو منجم فحم.»

«يتحدث هذا السيد مثل حجر الطحين، يتحدث بصورة متواصلة، ويسعل كثيرا، ربما يكون مريضًا بالسل، أو بأي من الأمراض المعدية من البحارة أو من خليلاته الكثيرات في أرض ما، أعرف أنه لا يحبني، وأنا لا أحبه، وأتمنى أن يأخذه الموج إلى عمق المحيط، أكثر ما يغيظني فيه سعاله قرب وجهي عندما أحمل الأشياء من أمامه، أو أنحني لتنظيف الطاولة التي يوسخها ببقايا الطعام، لشدّ ما أكره منظر ذكره، فهو يتمشى في البيت عاريا مثل القرد، لولا الأميرة لهربت في أول فرصة أظفر بها، لا لا لن أهرب، إن الأميرة تخصني، إنها ملكي الخاص، عليه هو أن يهرب، وأعرف أن الأميرة لا ترغب فيه، إنه مثل حمار يدب

الجرب في ظهره، لا تفيده العطور التي يستحم بها، وهو يلطخ جسد الأميرة بعفنه، أهذا سيدٌ أم بحارٌ مقطوع الأصل!»

«أعرف أنك تريد السلطنة، تسعى إليها بكل ما تملك، أنت تزوجتني لذلك، نعم لقد اكتشفت جسدي من خلالك، إنك تمتعني جيدا، ولكن هذا ليس كل شيء، ثمّة أشياء كثيرة مفقودة، عليك أن تعتني بنفسك، بنظافتك الشخصية، بفمك النتن، هل ذلك نتيجة للتبغ الذي تدخنه ليل نهار، أم نتيجة للخمر، أم نتيجة لتفاهة روحك، قالت لي الهندية من قبل: إن الروح النقية تتمظهر في كل الجسد، والروح المتسخة تفوح رائحتها في الجسد مثل جثة الجرذ المتحلل، كل سوئك أنك زير نساء، كلهن مجبورات على النوم معك، ربما لأنهن يحببن رائحة التبغ، أو لأنك تبدو أنيقا في قمة إهمالك لمظهرك، أو لثرائك، ولكن الحق أقول لك، لن تجد ما تصبو إليه مني، أعرف أنك وعدتني بتركهن، وأعرف أنك تكذب علي، ولكن عليك أن تعرف؛ أنا أيضًا أكذب عليك.»

عندما لا يكون السيد في البيت، يحس سُندُس بالحياة، ويشعر بالحرية تدب في أوصاله، ويعيد علاقته الحميمة بجسد الأميرة، فهو الذي يعيد إليه احساسه بالسيادة ويجعله يشعر بأنه إنسان كامل الجسد والروح، ولو أنه في أثناء وجود السيد يقوم بنفس المهام حيال الأميرة، الدلك والاستحمام ونظافة الأظفار وغسل الظهر والعبث بنهديها، وذلك في ظاهره براءة طفولية ولهو، وفي باطنه ما لا يدري هو وتدري هي جيدًا، ولكن ما يفتقده فعلا هو رائحتها الصباحية، فرائحتها لا تطاق عندما يكون السيد معها ليلا أو نهارا، إنه يصبغها

بزنخ جسده وعفونة فمه، إنه يفسدها تمامًا، بل إن الرائحة التي تفوح من مرقدهما تثير فيه الغثيان، ولولا أنهما يحتاجان إليه في خدمة ما، لفضل البقاء في المرحاض الخارجي الذي يستخدمه المماليك.

-لماذا لا نستعيض عن سُندُس بسيدة أمينة من قصر والدك، لتقوم بخدمتك، ونرسل سُندُس للعمل مع الحراس؟ إن صمته لا يعجبني!

قالت الأميرة:

-بالعكس، إن أجمل ما فيه هو صمته، فهو لا يفشي الأسرار، ولا يستطيع أن يستخدم السحر الأسود، إني أفضله على كل المخلوقات الثرثارة، قل لي فيم يضرك وجود سُندُس؟

قال وهو يدّعي المكر:

-فقط أخاف من صمته، لا أعرف ما يدور في ذهنه، أخشى أن يكون مثل الهدوء الذي يسبق العاصفة، علّمنا البحرُ أن ضجيج الموج يمكن فهمه والتعامل معه، ويُستأمن أكثر مما يُستأمن صمته، فإذا صمت البحر، عليك أن تضع يدك على قلبك.

قالت الأميرة، والإحساس يخامرها بأنّه يكذب:

-دعه! فهو ليس سوى أسير مخصي فيه بلادةٌ وهذا معتاد، ولكنني متأكدة تمامًا من أنه لا يفكر في أمور ملتوية، إنه مثل الأشياء، مثل أي من الأشياء التي نستخدمها في حياتنا اليومية، ليس رجلًا وليس امرأةً، مثل البغال، أنا أحتاج إليه لخدمتي، هو

الشخص الوحيد الذي لا يضر.

تعرف جيدا فضائل أن يكون في خدمتها سُندُس، لأن زوجها دنيء لا يؤتمن على أي سيدة، حتى ولو كانت في أرذل العمر، ولا يفرّق ما بين أميرة ومملوكة، إنه يكذب ويكذب ويكذب، لقد باع جواريه ولكنه لم يتخل عن دعارته، وبينها وبين نفسها تفضل سُندُس لسبب آخر معقد لا تعرف له اسما أو وصفا.

«ولكنني إذا وُضعتُ في خيارٍ بين أن أحتفظ بسُندُس أو بزوجي، فإنني دون تردد سأختار سُندُس.»

«إذا خُيرتُ بين أن أكون حُرًّا وبين أن أكون مملوكا للأميرة، لاخترت الأخير، أن تملكني الأميرة ليس سوى ظاهر من الأمر، أما باطنه فغير ذلك.»

«الحياة تمضي بسرعة، ولا تنتظر أحدا، ولا تتكرر، فإمّا أن يعيشها الإنسان كما يجب أن تُعاش، وإلا خسرها إلى الأبد، أنا لا أريد أن أخسرها.»

احتسى كأسًا من الروم الكوبي، كان ضجيج المسافرين وهم جميعا من التجّار يملأ باحة السفينة التجارية العجوز. لم يكن أكثرهم ثراءً، ولكنه الأهمّ مكانة، وهو الموقع الاجتماعي الذي حصل عليه بزواجه من الأميرة التي باركها الربّ مُؤخّرا، فهو مشروع سلطان عليهم وحاكم للجزر التي ينبت فيها المال كما ينبت العشب. لذا يحظى باحترام جميع التجار، وتودد النساء الفقيرات اللاتي تتمركز كل ثروتهن في قدرتهنّ على إغواء الرجال الأثرياء.؛ في مظهر خارجي، من ملبس وتطيب، في لغتهن المفتعلة، وأصواتهن الساحرة، بقوامهن

وانتظام أجسادهن، في نظراتهن التي تُطلق سهاما قد تصيب في مقتل، ومن تستطع منهن الغناء أو الرقص أو الحكي، فهي الأكثر حظًا، فالفن يضفي على المرأة جمالًا وسحرًا، أما ما بين أفخاذهن كما يقول البحارة: «هبة قسمها الربّ على النساء بالعدل.»

على الرغم من الصحبة الطيبة، والخمر الجيد، فإنّه لم يستطع أن ينسى أمر سُندُس، يقفز إليه فجأةً من العدم، ليحتل وعيه ويقف أمامه صامتًا مثل عود قديم، يحملق فيه بعينيه الكبيرتين ويتفحصه بجدية، ثم يختفي ليظهر مرة أخرى وقتما أراد، كان يخيفه جدًا، أو قل إنه يشغله ويعكّر مزاجه، «عندما أُصبحُ سلطانا أول شيء أفعله هو أن أرسله في رحلة لا عودة منها، وسأرسلها إلى بيت الحريم. أهي الغيرة؟ كيف يغار سيد يمتلك كل شيء من مملوك بائس لا يمتلك حتى عضوا تناسليا؟!»

أتتهم الحسان بخمر معتق تم تقطيره في بريطانيا، كان طيبا ولذيذا، وعندما سكروا جيدا، تعاطوا ما تيسر لهم من مخدرات عمانية، واحتضنوا نساء يقظات لا يحتسين الخمر ولا يتعاطين المخدرات، إلا إذا أصر الرجال الأثرياء السكارى على ذلك، فالمرأة المجبرة على الجنس لا تعطي نفسها بصورة تامة، ما لم تحتس قدرا معقولا من الخمر يقتل ضميرها الحي، ويرخي جسدها، وينسيها أشياء كثيرة تأبى أن تغادر مخيلتها، الرجال يحتاجون إلى متعة مثالية، وتفهم النساء ذلك، إنهن فقيرات ورؤوسهن مزحومة بأطفال لهن في مدن وقرى عديدة على اليابسة، ينتظرون عودتهن بما يُؤكل ويُلبس وبعض اللعب وبعض الحكايات، تعشوا جيدا بوجبات دسمة من

السمك واللحم المقدد ثم ناموا دون أن يفعلوا بهن شيئًا ذا بال، كانوا رجالًا مثل الجثث الحية، يهد أجسادهم الخمر والسفر والبحر والمال. حلم مرة أخرى، بسُندُس والأميرة التي باركها الربّ مؤخَّرًا، شاهدهما في غرفته بالسفينة، على سريره يطبخان سمكة كبيرة من نوع التونة العملاقة على نار هادئة ولكن لهيبها يملأ المكان، نهض منزعجًا وهو يرتجف، بينما كان قلبه يدقّ بشدة عندما اكتشف أن سمكة التونة ليست شيئا آخر غيره هو، تحدث ببعض الكلمات بلغة غير مفهومة وبلسان ثقيل ثم حضن مومسه الفقيرة ونام، ولكن في هذه المرة علا شخيره بطريقة غير معتادة، فنهضت من قربة المومسُ الطيبةُ الفاضلةُ الجميلةُ وصرخت: «هذا غير طبيعي!!»

الساحرُ

تم استقبالها في الحجرة الخارجية، إنها مضيفة سريعة نظيفة وتستخدم للأغراض الخاصة، يطلقون عليها غرفة الأسرار، جلست الساحرة العجوز، على السجاد رافضة الكرسي الذي قدمه لها سُندُس، كانت تغطي وجهها بحجاب شفاف، تمامًا كما لو أنها امرأة عمانية، وضعت بعض الأدوية أمامها، طلبت وعاء كبيرا مثل طشت الغسيل، فأحضره سُندُس لها، طلبت جرة مملوءة بماء البحر، ويجب أن يحضرها الآن، فذهب سُندُس وأخبر الحارس ليجلب الماء من البحر خلف القصر مباشرة، صبت الساحرة الماء كلّه على الطشت، فبدا مثل نموذج مصغر للمحيط، وضعت عليه دواءً أشبه بالملح، تكلمتكثيرًا وقامت بحركات مختلفة أقرب إلى الرقص وهي جالسة، ثم صمتت لفترة طويلة قبل أن تقول للأميرة التي باركها الربّ مؤخرًا :

-زوجك الآن هنا، في هذا الطشت!

على حمار سريع، مضى وحده عبر الغابة إلى حيث يسكن الساحر المسمى بالعجوز، بدأ فُسحته عند الصباح الباكر فقد كان الجو ملائمًا، وعندما توسطت الشمس قبة السماء، كان قد بلغ المزرعة الصغيرة التي يقيم فيها. لم يكن الساحر العجوز عجوزا في الحقيقة، كما سمع عنه، ربما أخذ الاسم من جده أو أبيه الذي ورث عنه الصنعة، كان شابا له ذقن كبيرة سوداء، يرتدي ملابس إفريقية عبارة عن جلباب كبير من الكتان المصبوغ بالأزرق، ورأسه عار يغطيه شعر كثيف، حيّاه بانحناءة من رأسه وسلّمه مكتوبًا بالسواحيلية، فقدم له الساحر الماء وبعض الطعام، وقال له:

-أعرف أنك لا تتكلم، ولكننا نعرفك، وقد كنّا سنتّصل بك، والآن أرسلك الربّ إلينا بإرادته، أريد أن أقول لك شيئا، عليك ألا تنساه أبدا:

«سيأتون إلى القرية يوم ظهور الهلال للمرة العاشرة، يأتون في ظلمة الليل، إنهم من عشيرتك الأفارقة أصحاب اليابسة، لديهم مهمة خاصة جدًّا، ويريدون مساعدتك، فكن معهم، نحن نريد أن نحرر بلدنا من الأغراب الذين استعبدونا وقتلوا حيواناتنا واستولوا على أرضنا كلها، لا يمكن أن يحدث ذلك في ليلة وضحاها، يحتاج الأمر إلى تجهيز، انظر يا نانو؛ أنا الآن أعمل دون أجر أسيرا في أرض أجدادي الذين هم أجدادك، وأنت

مملوك للسلطان وأبوك أيضًا، كلنا مسخرون لمصلحة الأغراب، هل تفهمني؟ كل ما نريده منك هو أن تترك مخزن السلاح في بيت الأميرة مفتوحًا، إن السلطان يضع هناك كثيرًا من الأسلحة، أنت تعرف مكانها جيدًا، أما الحُرّاس فنحن نعرف كيف نتعامل معهم.»

سالت دمعة على خده وهو يهز رأسه بأنه قد فهم، تحرك شبح عضوه الذكري المقطوع كأنما يُريد أن يلقي سؤالا لا إجابة له.

بعدها تحدث الساحرُ عن أشياء كثيرة متعددة، ثم كتب رسالة وأعطاه إياها لكي يسلّمها إلى الأميرة التي باركها الربُّ مؤخرًا، وقال له:

-سأرسل إليها من يتكفّل بأمرها، إنها فتاة طيبة جدًّا، ولكنها في منبت سوء، زوجها حقير ووالدها أحقر منه، وهو قاتل جبان.

كان الساحر يتحدث وتكاد تخنقه العبرات، يتوقف بين كل جملة وجملة لكي يستنشق الهواء، ثم يواصل، مرة أخرى بصوت منخفض، كان حزينًا جدًا.

-اختلف الوضع الآن في الجزيرة، تخلى الأوربيون عن تجارة الرقيق بعدما أنجزوا كل ما يريدون إنجازه بواسطتهم، وتخلوا بصورة واضحة عن دعم السلطان، ولكن لديهم مصالح كبيرة معه؛ لذا سيفعلون كما فعلوا في كثير من الدول، سيسلمون السلطة للسلطان ويستلمون هم الثروات، علينا أن نكون على استعداد، هل فهمتني؟ أنا لست ساحرًا يا نانو، أنا رجل ثورة.

كان الموضوعُ بالنسبة إلى سُندُس معقدًا، لأول مرّة يسمع مثل

هذا الكلام، لأول مرة يعرف أن بإمكانه أن يصير طليقًا في يوم ما، لم يحدث له أن سمع أحدًا يشتم السلطان أو يشتم أيًّ واحد من السادة الأثرياء، بل لم يتخيل يوما أن يَذكر شخصٌ اسم السلطان دون أن يضيف «الذي باركه الربُّ»، الموضوع خطيرٌ جدًّا، لا بد أنه يحلم، «كيف يستطيعون مقاومة جنود السلطان وحُراسه؟ بل كيف يستطيعون تخطي الحاميات الكثيرة المنتشرة في كل مكان من أجل مُراقبة الأسرى وضبطهم ومنعهم من الفرار إذا ما حدثتهم أنفسهم الأمارة بالسوء بذلك؟ لا بد من أن يكون هؤلاء الشبان أقوياء جدًّا، ولا بدّ أنهم يستخدمون السّحر الأسود أو الشياطين، أو أنهم يستعينون بالرب شخصيًا .»

مع صياح الديك، أي قبل أن يرتفع صوت الأذان الشجي داعيا المسلمين إلى الصلاة، كانت المرأة العجوز التي أرسلها الساحر تقف أمام القصر، وعندما دخل الحرس إلى سُندُس ليخبره بأنّ هناك رسولًا من الساحر ينتظر في الخارج، كانت الأميرة التي باركها الربّ مؤخرا نائمة، ولكن يمكن إيقاظها في مثل هذه الأمور، فالسّحرة في هذه الجزيرة قوة لا يستهان بها، والجميع يؤمن بقدراتهم الخارقة، ويؤمن بخيرهم وضرهم، ويطلب رضاهم ويتحاشى غضبهم.

تمّ استقبالها في الحجرة الخارجية، إنّها مضيفة سريعة نظيفة وتستخدم للأغراض الخاصة، يطلقون عليها غرفة الأسرار، جلست الساحرة العجوز، على السجاد رافضة الكرسي الذي قدمه لها سُندُس، كانت تغطي وجهها بحجاب شفاف، تمامًا كما لو أنّها امرأة عمانية، وضعت بعض الأدوية أمامها، طلبت وعاء كبيرا مثل طشت

الغسيل، فأحضره سُندُس لها، طلبت جرة مملوءة بماء البحر، ويجب أن يحضرها الآن، فذهب سُندُس وأخبر الحارس ليجلب الماء من البحر خلف القصر مباشرة، صبّت الساحرة الماء كلّه على الطشت، فبدا مثل نموذج مصغّر للمحيط، وضعت عليه دواءً أشبه بالملح، تكلّمت كثيرًا وقامت بحركات مختلفة أقرب إلى الرقص وهي جالسة، ثم صمتت لفترة طويلة قبل أن تقول للأميرة التي باركها الربّ مؤخرًا:

-زوجك الآن هنا، في هذا الطشت!

سألت الأميرة، وهي تنظر إلى الماء: «أين؟»

-إنه في البحر، ولا يمكنك رؤيته، أنا فقط أراه، وإذا كان هنالك طفل لم يبلغ الحلم أيضًا سيراه، إنه في سفينة عملاقة تبحر في اتجاه الشرق، ربما يقصد الهند أو أبعد منها.

سألت الأميرة:

-ماذا يفعل الآن؟ ومن معه؟ هل معه نساء؟

قالت الساحرة:

-نعم.. هنالك الكثير من النساء، بكل الألوان، بيضاوات وسوداوات وصفراوات وغيرهن.

سألت الأميرة التي باركها الربّ مؤخرا:

-أتوجد امرأة معه؟

قالت الساحرة وهي تنظر إلى الماء:

-الرجال أنذال، أيتها الأميرة التي باركها الرب، الرجال أنذال،

وهواء البحر يثير شهية الجنس، فالجن الذي يحوم على ظهر الموج بمراكب من ريح وعواصف يدبّر ذلك، الجن الذي أتى به البحارة العرب منذ مئات السنين.

سكتت الأميرة مليًّا، استغرقت في تفكير عميق، ثم قالت لها:

-أريده أن يموت، ألاّ يحضر إلى هنا إلا جثة، جثة بلا روح.

ارتجف سُندُس قليلا، لقد دخله خوف فجائي مختلط بمسرة غامضة، هو أيضًا يريد أن يتخلص من هذا الشخص، إنه لا يحبه، فهو يستولي على جسد الأميرة وذلك الجسد بالذّات لا يخصّ أحدا غيره، وقد سمع بأذنيه أن السيد لا يرغب في وجوده مع الأميرة، وأنه يفضّل أن يرسله إلى الجحيم، ولكنّه لا يودّ أن يتمّ التخلّص منه بهذه الطريقة المؤلمة، «القتل! معقول أنها تريد قتله؟»

قالت الساحرة:

-لقد أخبرني الساحر بذلك.

قالت الأميرة:

-ولكنني لا أريد قتله بيدي، لا أتحمّل ذلك.

قالت الساحرة:

-نعم، كان الساحر يعرف ذلك، لذا أرسلني لأفعل ذلك.

قالت الأميرة:

-فليمت بعيدًا عن هذا المكان.

قالت الساحرة:

-الساحر يعرف ذلك أيضًا، لذا سيتدبر أمره.

قالت الأميرة وهي ترتجف من الإثارة:

-كم يطلب الساحر؟

قالت الساحرة:

-بندقيتان، وذخيرة.

فصرخت الأميرة مندهشة:

-بندقيتان! ماذا يفعل بالبندقيتين والذخيرة؟

قالت الساحرة بهدوء:

-إنّه لن يقتله خنقا، ولا يبيح الشيطان الخادم القتل في هذه الأحيان بغير البندقية، هذا إذا أردت بالطبع، فالأمر معقدٌ، وعلى النّاس ألاّ يستغربوا ممّا يتطلّبه السّحر الأسود أو يشكّوا فيه.

تكلّمت الأميرة، سائلة:

-هل سيذهب إليه الساحر في المحيط؟

قالت الرسولة العجوز:

-بل سيأتي به المحيط إلى الساحر.

أعجبتها طريقة ردّها وثباتها ولغتها السواحيلية الجميلة الطلقة، تهتم الأميرة أيضًا بتنوع اللهجات السواحيلية، وتميزها وتستمتع بها كثيرا، «فليقتله أينما شاء وبما يشاء، فقط بعيدًا عني.»

-سُندُس، اذهب معها إلى مخزن أبي في الأسفل، ودعها تختر البنادق التي يريدها الساحر، وأعطها كيسين كبيرين من الذخيرة الجاهزة.

تم لف البنادق في قطعة كبيرة من الجلد ومعها الذخيرة، حتى لا يكتشف أمرها الحراس، وركبت الساحرة حمارها ومضت في طريقها إلى حيث لا يعلمون، لم يكن سُندُس وحده قد تبين أن العجوز ليست سوى الساحر نفسه، ولكن الأميرة أيضًا توصلت إلى ذلك، فالسحرة يتحولون بصورة مستمرة ويتبادلون الأدوار.

عندما حضر البحارة الحزانى في عجل، وأخبروها بأن زوجها قد مات، وانتقل معه أيضًا بعض التجار إلى الدار الآخرة، ربما بسبب احتساء خمر فاسد، تنفّست الصُعداء، وأحست بسائل بولي غير إرادي يتسرب منها، ثمّ أغمي عليها ليلتين متتاليتين.

الثوارُ

وما لم يحسبوا له حسابًا هو المفاجأة التي كانت تنتظرهم عند بهو القصر، فبمجرّد دخولهم إلى البهو الشاسع المهيب تحت إضاءته الحالمة، وجدوا جنودًا أقوياء وجوههم صارمة، ويتطاير الشرر من أعينهم. إنّهم زنوج غاضبون، عيونهم الشرسة تشعّ منها إرادة بالغة وقوّة وتحدّ واستعداد للموت، ورأى كلّ واحد منهم ما يشبه زملاءه الآخرين.

- يا أيها الرب!!

هربوا جميعًا في لحظة واحدة، متدافعين عند بوابة البهو متّجهين إلى الخارج، متجنبين معركةً ستكون خاسرةً حتمًا، في مواجهةِ أفارقةٍ من بني جلدتهم لا يخشون الموت وتطلق عيونهم الشرر مثل تنانين مسحورة.

بعد عشرة شهور من وفاة زوجها ظلّت الأميرة دون زوج، إنها فترة قصيرة تقضيها أرملة، ولكنّ الأب الخائف على عرشه من الانقراض كان قلِقًا جدًّا، فهو يطعن في السن. وعلى الرغم من قوّته البادية للعيان، فإنّه كان محطّما من الداخل، مثل شجرة عملاقة يأكلها السوس من العمق، وتغطّيها قشرتها الصلبة. ثمّة عوامل كثيرة جدا تصيبه بالإحباط، وليست ابنته أوّل هذه العوامل، بل الإنجليز ثم الفرنسيون، ثمّ ما يحسّه من تحركات مزعجة لبعض العناصر الزنجية، وأخيرًا ابنته.

لقد أخذ الفرنسيون يتوافدون بكثرة إلى الجزيرة، سُيّاحًا أو بعثاتٍ دبلوماسيةً، أو جواسيسَ وعلماء، وهو ما لم يعجب الإنجليز، فوفدوا إليها فجأةً باتفاقية في الخامس من يونيو 1883، في ظاهرها إنهاء الرق وفي باطنها السيطرة التامة على أنغوجا، بحرًا وبرًّا، واستلام دقّة الحكم فعليًّا، يصبح السلطان بموجبها مجرّد دمية في أيديهم. يريدون وضع حدٍّ لجنّته التي ابتناها على الأرض. فبإبطالهم الرقّ، ينهون الميزة الاقتصادية التي بُنيت عليها سلطنته، وبذلك ستنهار الدولة، في سبيل المصالح العليا لبريطانيا العظمى. واليوم وفد إليه القنصل البريطاني الشاب في قصر الفراديس، طالبًا منه بأدب:

- هل لدى جلالتكم التي باركها الربّ قصر يمكننا أن نستأجره سكنًا لأفراد القنصلية البريطانية، ونستخدمه قصرَ ضيافةٍ

للمبعوثين الزائرين غير المقيمين من الإنجليز وحلفائهم؟

يعلم القنصل تمامًا أنه لا يُوجد قصر فارغ للإيجار، ولكنه يريد أن يحصل على أحد القصور المشغولة حاليًّا، فيطلب ذلك بتأدّب في الظاهر وبغلظة وعنجهية في الباطن.

قال له السلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا :

- انتظرنا، لننظر في الأمر ونعلمكم، وحتمًا ستجدون ضالّتكم.

فكرّ السلطان مباشرة في قصر البنت، فهي تسكن وحدها في القصر العظيم الذي بناه لوالدتها المرحومة. «بإمكانها أن تسكن معه هنا، فيخصّص لها جناحًا كاملاً كبيرًا، ويبني لها حمّامًا حديثًا ومطبخًا بمواصفات جيّدة، ماذا تريد أكثر من ذلك، قصرها يطلّ على البحر، وهذا ليس ضروريًّا، يمكنها زيارة البحر وقتما شاءت أو قضاء بعض الأيّام في قصر الملك أو قصر الغرائب وكلاهما مطلٌّ على البحر، وهي من دون زوج وترفض كل من تقدّم لها، فمن الأفضل أن تكون قربي هنا، أنا أكبر يوميًّا، وأحتاج إلى رعاية ابنة أكثر مما أحتاج إلى رعاية نساء لا يربطني بهن سوى السرير، ولن أكون قادرًا عليه ذات يوم، إنها الحياة، لكلّ متعة نهاية.»

اعتادت البنت زيارات والدها الخاطفة ذات الأغراض المحدّدة، وبعدما أكرمته كعادتها بالقهوة، سألته:

- قل لي.. ماذا تريد يا أبي؟ في رأسك كلام كثير.

حدّثها عن كبر سنّه، وعن عوارض الدهر، وعن مشقات الحياة، وعن الوضع الخطر الذي صارت إليه السلطنة الآن، وحدّثها عن

الإنجليز والفرنسيين والألمان والبلجيك، وعن الثوّار الأشرار أيضًا، وقال إنّه يخاف عليها ويخاف على نفسه من بعدها، ويريدها قريبةً منه، فعليها أن تترك قصرها وتذهب معه لتقيم في قصر الفراديس.

-أهذا ما جئت لأجله يا أبي؟

وبعد برهةٍ صمتٍ، أضافت:

-أنا لن أبرح هذا القصر أبدًا، إنه مكاني النهائي.

حدثها عن موارد السلطنة إذ بدأت تتضاءل بعد المراقبة الصارمة التي فرضها الإنجليز على المراكب الخارجة من أنغوجا في المحيط الهندي، وعن عيون الجواسيس في الموانئ، وعن بوادر الانهيار الاقتصادي عندما يجد الزنوج حريّتهم بالفعل، وعندها سيتعطّل الإنتاج، فالمهاجرون لم يعتادوا العمل، إنهم إداريون أكْفَاء، طالما بقيت في أيديهم البندقية والسياط، وهناك وفرة من الجنازير. «حتى جنودنا من السودان والسواحيليين والخدام وغيرهم من غير العرب، لا يجيدون القراءة والكتابة والحساب، بل لا يعرفون حتى أمور دينهم، لقد أخطأنا لظنّنا أنه لن يأتي اليوم الذي نحتاج فيه إلى العمل بأيدينا، أو نحتاج فيه إلى الكتابة والقراءة وإجادة الحساب، ومن الواضح الآن أن مسألة الرقّ ستنتهي، وأنت تفهمين معنى ذلك جيدًا. سنعمل على مساومة الإنجليز والفرنسيين ونفهمهم الوضع ونحدّثهم عن مصالحهم، قد يتسامحون، ولكن لا أظنّ أن ذلك سيمتد إلى الأبد، فالمصالح تتغيّر وبسرعة. ابنتي، ينبغي أن نتودد إلى الإنجليز، نحتاج إلى أن نكسب جانبهم، وهم بدورهم سيقضون على أي ثورة محتملة من السكان الزنوج، وسيبعدون عنا

المطامع الفرنسية والألمانية، وقد قال لي القنصل الإنجليزي ذات مرة، إنه مهما حدث، طالما نحن شركاء، فسيعملون على تمكننا من السلطة إلى الأبد، كما فعلوا مع دول كثيرة نالت استقلالها منهم، سلّموا السلطة لحكّامها التقليديين التاريخيين، الحكّام الذين يشبهوننا في كل شيء، باختصار، أريد أن أؤجّر القصر الذي تقيمين فيه حاليًا لسيادة القنصل الإنجليزي! أقول لك، إذا كسبنا رضاء الإنجليز فقد كسبنا قوّتهم أيضًا إلى جانبنا.

قالت البنت:

-هل تخاف من الإنجليز يا أبي؟

قال لها وغضّ صوته قليلا:

-لا أخافهم، ولكنني أفكّر في مصالح السلطنة، مثلما يفكّرون في مصالح بريطانيا، فهناك فرق بين العمل من أجل المصلحة والخوف الشخصي. الإنجليزي واضح، هو يعرف ماذا يريد، ويعرف مقدار قوّته، وأنا أيضًا واضح، أعرف ماذا أريد، وأعرف مقدار ضعفي. وقوّتي تكمن في ضعفي، في قبولي بشروط التعايش مع الإنجليز.

قالت البنتُ، وهي تنظر بعيدًا نحو البحر من الشبّاك، يجذب نظرها مشهد سفينة إنجليزية عملاقة تمخر المياه نحو الميناء، عليها علم بريطانيا العظمى يرقص مع الرياح الهادئة في خيلاء:

-أفهم ذلك، ولكن لا يمكنني مغادرة هذا القصر ولو من أجل ملكة بريطانيا نفسها، أبي، أعطهم قصر الفراديس، أو قصر

الملك، أو أيًا من قصور الأثرياء الكثيرة، إنك تمتلك كل شيء على الأرض وفي البحار وفي السماء، ألم تقل لي ذلك من قبل؟!

قال بصوت وكأنه الهمس:

-في ذلك الوقت لم يكن هناك إنجليز! حدث ذلك قبل أن تكتشف سفنهم هذه الجزُر!!

ثم أضاف بجديّة وهو ينظر إلى عيني ابنته:

-عليك احترام مصالح السلطنة العليا يا ابنتي، فكّري في المصلحة العامة.

قالت له بسخرية:

-أبي.. صرت تتحدث عن مصالح الإنجليز لا عن مصالح السلطنة.

نهض ببطء، أسرع إليه مُطيع ليساعده على النهوض، وبينما هو يستدير خارجًا قال لها:

-استعدّي للرّحيل إلى جناحك في قصر الفراديس خلال شهر، عليّ أن أنهي هذه المسألة.

لا يستطيع أيّ شخص أن يتكهن بالنهاية التي ستصل إليها إشكاليّة القصر، بين عناد البنت وعناد الأب أيضًا، ولكنّ ما تأكّد منه القنصل الإنجليزي هو أنه سيحصل على القصر، وقصر البنت بالذات، فهو ليس بعيدًا عن الميناء، ويقع مباشرة على شاطئ المحيط الهندي، ويمكن وصول المراكب الصغيرة إليه ومغادرته بسرية تامة، وهو معزول بصورة كاملة عن بقية المدينة السكنيّة حيث

التلوّث والضوضاء، وفوق ذلك كلّه فقد أوصى به المسؤول الأمني للقنصلية، الرجل الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عن كل صغيرة وكبيرة. ومن جهة أخرى فإن مجريات الأحداث الغريبة وحدها هي التي حسمت الصراع، عندما باغتت كتيبة شرسة من الثوار الأفارقة المدينة، وهاجمت مخزنيْ الأسلحة، وقد كان أحدهما في قصر الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، واختطفوا الأميرة معهم، وهو اليوم الذي تكلّم فيه سُندُس فجأةً، متجاوزًا «تروما» استمرّت أكثر من عشر سنوات، عندما صاح أمام الثوار:

-أنا سأذهب معكم، وسآخذ الأميرة أيضًا معي، انتظروني لحظة!

ثمّة حدث وقع أثناء الهجوم، كاد يضحكه، لولا رهبة الموقف. اختار الثوّارُ ليلةً مُظلمةً، وهي الليلة التي سيبتدئ فيها الشهر القمري، لم يجدوا مقاومة تُذكر من الحُرّاس، فلا أحد منهم كان يتوقع الهجوم، كان الجميع في استرخاء تام، والجنود سكارى أو شبه سكارى، وبعضهم تسلّل إلى بيته ضاربًا بعمله عرض الحائط، وجدوا حرّاس قصر الأميرة في حالة خدر وفي أفواههم كرات القات، وعلى رؤوسهم يلعب دخان الحشيش، فباغتوهم، وتمّ أسْرُهم وأخْذُ بنادقهم، وتكميمُ أفواههم وربطهم بحبال كان الثوّار قد أحضروها معهم. وما لم يحسبوا له حسابًا هو المفاجأة التي كانت تنتظرهم عند بهو القصر، فبمجرّد دخولهم إلى البهو الشاسع المهيب تحت إضاءته الحالمة، وجدوا جنودًا أقوياء وجوههم صارمة، ويتطاير الشرر من أعينهم. إنّهم زنوج غاضبون، عيونهم الشرسة تشعّ منها إرادة بالغة وقوّة وتحدٍّ واستعداد للموت، ورأى كلّ واحد منهم ما يشبه زملاءه الآخرين.

- يا أيها الرب!!

هربوا جميعًا في لحظة واحدة، متدافعين عند بوابة البهو متّجهين إلى الخارج، متجنّبين معركةً ستكون خاسرةً حتمًا، في مواجهةِ أفارقةٍ من بني جلدتهم لا يخشون الموت وتطلق عيونهم الشرر مثل تنانين مسحورة، لولا أن لحق بهم سُندُس، طالبًا منهم انتظاره، ليأخذ الأميرة أيضًا، وشرح لهم ببساطة أن الجنود الذين رأوهم في الداخل ليسوا سوى انعكاسٍ لصورهم، أظهرته مرآة البهو الكبيرة، وأمّا المرآة فهي زجاج سحريٌّ يأتي به الأغراب من خلف البحار، إنها تشبه كل من يقف أمامها وتحاكيه، فاطمأنّت قلوبهم، واقتحموا مخزن السلاح بالقصر.

كلمات قوية قالها رجلٌ ضعيف

لا خروج من الجزيرة إلا لرئيس الشرطة المخلوع وأسرته، يخرجون منها كما دخلوها، عراةً حُفاةً، يعشّش العنكبوتُ في جيوبهم.

ومن أراد الخروج فعليه أن يترك كل ممتلكاته وأسراه وأولاده الذكور. لقد وُلدوا هنا وعليهم أن يموتوا هنا دفاعًا عن الأرض التي أنجبتهم.

اكتب أيها الشيخ:

على كل مواطن أن يتبرّع بـ 5 ريالات تريزا لبيت المال إسهامًا منه في تمويل الحرب.

على كل شيخ قبيلة، وكل حاكم منطقة، وكل سيد في قومه، أن يطبق ذلك منذ اليوم، وأن يقدّم لي، في صلاة الجمعة القادمة، تقريرًا وافيًا عمّا قام به.

حينما وصل السلطان إلى وسط المدينة، وجدها تعجّ بالناس، إذ كان الجميع في حالة هلعٍ وخوفٍ من أخبار ليلة أمس التي لم يسمعوا بها سوى في الصباح الباكر، كما اكتشف أيضًا، كذب رجال الشرطة وتضليلهم إيّاه، فقد أطلقوا النار في الصباح ضد مجهولين لا وجود لهم، فعلوا ذلك بعد اكتشافهم هجوم الثوّار. كان الهجوم خاطفًا ولم يستغرق نصف ساعة، أخذوا عددًا كبيرًا من البنادق والذخيرة، واختطفوا الأميرة التي باركها الربّ مُؤخَّرًا، ثمّ اختفوا في الظلام كالخفافيش. لم يطاردهم أيٌّ من الجنود أو الشعب، كل من انتبه إليهم من جند الحراسة أو الشرطة تم احتواؤهم، وربطهم، وتكميم أفواههم. ولدّقة التخطيط والتنفيذ، اتهم السلطان الإنجليز بتدبير الأمر، وبأنهم يريدون من وراء ذلك إضعافه وتخويفه ليسلّمهم الجزر، واتّهم الإنجليزُ بدورهم الألمان الذين كانوا يسيطرون على الكنغو وبعضا من تنجانيقا، وظنّوا أنّ الثوّار أتوا من هناك وعادوا بعد أن عبروا الخليج الصغير، وبلا شك فإنّ من ورائهم قوّةً أوروبيةً تسعى إلى زعزعة الوضع، كما أنهم لا يستبعدون تدخّل فرنسا أيضًا، فأطماعها في السلطنة واضحة وجليّة، ولعابها يسيل نهرًا مالحًا يصبّ في البحر، ويصيرُ سُحبًا تحلّق في سماء الجزيرة إلى الأبد.

بعد أن نال قائد الشرطة صفعتين من كفّ السلطان الغاضب التي باركها الربّ مؤخَّرًا على وجهه الناعم المزيّن بلحية صغيرة

مخضّبة بالحناء، تمَّ عزله وإرساله مباشرة رفقة أسرته إلى عمّان، دون ممتلكات وأموالٍ، عاد إليها، فقيرًا كما جاء منها فقيرًا مُعدمًا، وتمّ تعيين جنرال بريطاني مكانه مسؤولا عن أمن المدينة، نظرًا إلى خبرته السّابقة في مجالٍ مُشابهٍ في الهند. حدث ذلك بتزكية فورية، كريمة من القنصل البريطاني الشاب، فأمنُ المدينة مسؤوليّة الجميع، ويجب أن يكون منزّهًا عن الاتهامات المغرضة التي سارعت بريطانيا إلى نفيها، قدّم السلطان اعتذارًا مقتضبًا، مشكوكًا في صدقه، إلى بريطانيا العظمى، ووجّه التهمة إلى عناصر تخريبية يعرفها الله وحده، مؤكّدًا أنّه سيردّ لهم الصاع صاعين.

ثمّ، ولأوّل مرّة منذ أعوام كثيرة، يمشي السلطان الذي باركه الربُّ مُؤخَّرًا على قدميه الطاهرتين في المدينة، متفقّدًا الموقع الذي جرت فيه الحادثة، وهو مخزن السّلاح الرسمي الواقع في طرف المدينة الغربيّ، غير بعيدٍ عن قصر الأميرة الذي لم يزره، لأنه كان يخفي أمر الأسلحة المخبّأة فيه عن الجميع، ويحتفظ بسرّه لأسباب شخصية لا يريد البوح بها، لكنّه عاد في نفس الليلة وزار القصر بمفرده، فلم يجد، كما هو متوقع، قطعة سلاح واحدة، أو كيسًا من أكياس الذخائر، فأمر بنقل أغراض ابنته إلى قصره، وتجهيزه ليكون إقامةً لضيوف القنصل البريطاني الذي رحبّ بالفكرة وشكره.

ثم قصد الجامع على قدميه الطاهرتين، بمعيّة الأعيان والتجّار والمهاجرين، وبعض من خدمه المقربين، وحرسه السّود الغلاظ وعلى رأسهم مُطيع. دخل السّادة الأنقياء، في حين مكث الخدم المشكوك في طهارتهم في الخارج، فالمخصيّون تسيل إفرازاتهم على

أجسادهم عندما يتبوّلون، كما أنّهم يتبوّلون أحيانًا لا إراديًا، هم في الغالب أنجاس لا يصحّ أن يدخلوا الجوامع، أو يؤدّوا الصلوات التي تتطلّب الطهارة، أمّا غير المخصيّين من الأسرى فيمكنهم الصلاة في الجوامع، لكن في الصفوف الخلفية. أدّى السلطان صلاة الظهر، ثم التقى منفردًا بالخاصّة والأعيان ورجال مشورته الذين يثق فيهم:

«العدو يحيط بنا من كل الجهات، أوروبيون، وأفارقة أتوا من البر الإفريقي بدعم من الأوروبيين أيضًا..

العدوّ يحيط بنا مدعيًّا سعيه إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التي سيهدم بها حقوقنا نحن الشرعية..

العدو يحيط بنا؛ فرقاطات وبوارج حربية في البحر، وجواسيس في الداخل..

العدو ينخرنا من الداخل نخر السّوس، إنّه منّا وفينا، أقصد العدوّ ذا البشرة البيضاء والقلوب السّوداء، إنّ المتآمرين علينا من بني جلدتنا..

العدوّ الأكبر هو الجهل المتفشي بيننا نحن.. قولوا لي، كم طفلاً من أطفالكم يجيد القراءة والكتابة، أو يحسن القيام بأيّ عمل؟

العدوّ يحيط بنا باتفاقيات وهمية إذعانية..

العدوّ يريد التهامنا كما تلتهم النّار الهشيم..

العدوّ يدمّر أرضنا بغضب من الرب، انظروا إلى هلاك أشجار القرنفل، وإلى فساد الأرض، وشح الأمطار!

هذه هي اللحظة المناسبة للتوقّف وطرح الأسئلة:

من نحن؟ ماذا نريد؟ هل نريد البقاء هنا أم الخروج الأبدي؟
هذه الأرض أصلحها أجدادنا بعَرقهم..
بنوها وأدخلوها إلى الحضارة..
لقد أخرجوا إنسانها الجاهل المتوحّش من كهوفه وضلاله إلى نور المدنيّة والإسلام.
ولكننّا نعجز الآن عن المحافظة على كل هذه المكتسبات..
جيشنا، ممّن يتألّف جيشنا؟ هل يوجد ابن واحد من أبنائكم في هذا الجيش؟
شرطتنا، من هم شرطتنا؟ هل بينهم شرطيّ واحد من أبنائكم؟
الأطبّاء بالمستشفى هنود وفرنجة..
العمّال في المزارع خدم سواحيليون وسودانيون!
حسنًا، يمكنني أن أواصل الحديث بهذه الطريقة أسبوعًا كاملاً، فأنا جزء من هذا الفشل، أعيش مثلكم في دعة، عاطلاً دون وظيفة، ولا أقدر حتى على رتق حذائي بنفسي.
اليوم، يوم القول الفصل..
اكتب أيها الشيخ، نعم ستكتب بالسواحيلية:
على كلّ عربيّ قادر على حمل السلاح أن يدخل فورا إلى معسكرات التدريب..
على كل من يملك سلاحًا أن يقدّمه لقائد الشرطة وأن يتسلّم وصلًا لقاء ذلك..
اليوم الذي ستحتاجون فيه إلى حماية أنفسكم بأنفسكم قد حان..

ها هي ابنتي تُؤخذ ولا أحد من الجنود كلّف نفسه عناء حمايتها..
لأنها ببساطة، غريبة عنه ولا تنتمي إليه..
على كل صاحب مزرعة أن يعمل بها يومًا في الأسبوع على الأقل، ليتعلّم من العمال؛ فاليوم الذي لا يُسمح فيه باستخدام الأسرى قد حان، على الناس أن يتعلّموا كسب أرزاقهم..
أخشى أن يكون كلامي هذا قد جاء متأخّرًا..
لقد كنتم سادة..
واليوم جاء من تقولون له: يا سيّدنا!
لقد كنتم أقوياء وأركعتم الجيوش البرتغالية.
والآن جاء من يُرْكِعم؛ إنهم الإنجليز.
أخشى أن نكون أندلس إفريقيا الضائعة!
تلك البلاد التي أضاعها حكّامها بالمجون والكسل، وظنّوا أن السيف والسّوط، قادران على حمايتهم والمحافظة على سلطانهم.
نحن أندلس إفريقيا..
اكتب أيها الشيخ:
لا خروج من الجزيرة إلاّ لرئيس الشرطة المخلوع وأسرته، يخرجون منها كما دخلوها، عُراةً حُفاةً يعشّش العنكبوت في جيوبهم.
ومن أراد الخروج، فعليه أن يترك كلّ ممتلكاته وأسراه وأولاده الذكور. لقد ولدوا هنا وعليهم أن يموتوا هنا دفاعًا عن الأرض التي أنجبتهم.

اكتب أيها الشيخ:

على كل مواطن أن يتبرّع بـ5 ريالات تريزا لبيت المال إسهامًا منه في تمويل الحرب.

على كل شيخ قبيلة، وكل حاكم منطقة، وكل سيّد في قومه، أن يطبّق هذه الإجراءات بدءًا من اليوم، وأن يقدّم لي، في صلاة الجمعة القادمة، تقريرًا وافيًا عمّا قام به.

على السيد القبطان، أن يمنع أيّ سفينة من مغادرة الجزيرة وبها مواطنٌ واحدٌ قد أخلّ بالشروط، لا أحد سيسافر إلاّ بجلبابه الذي على جسده فقط، حافي القدمين وعاري الرأس.

لقد جنيتم ثمارها، ولحستم عسلها..

والآن عليكم أن تتذوقوا لسعة النحلة ووخزة شوكة الشجرة.

ألا هل بلّغت!

ألا هل بلّغت!

ألا هل بلّغت!»

وعندما قرأ جاسوس إنجليزي الخطبة التي حصل عليها مكتوبة بالسواحلية ومختومة بختم السُّلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا، ضحك وهو يقول في سرّه بالسُّواحيلية أيضًا:

«maneno makali alisema mtu dhaifu»

الدولة تُدير نفسها

كان يهذي كالمجنون، بينما تدلك عشيقته المفضلة نُورا ظهره. وعلى الرغم من أنه يفضلها على جميع نسائه التسع والتسعين، فإنّه كثيرًا ما ينسى اسمها، كما ينسى أسماء نسائه الأخريات. الاسم الوحيد الذي لا ينساه هو اسم زوجته الأولى فقد أنجب منها الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرا، ولا تندهش نساؤه الأخريات ولا يستغربن من منادتهنّ باسمها أي «فاتوما جما» التي يدللها في لحظات سعادته وشبقه «مامو فاتو»، بل إنه ينادي غلامه الإنجليزي، وهو اللوطي الوحيد الذي احتفظ به مؤخّرا في بيت الحريم، «مامو فاتو» أيضًا. «شيئان لا يحتاجان إلى إدارة فعلية، إنهما يديران نفسيهما بنفسيهما؛ نسائي التسع والتسعون، وسلطتي.»

«حتمًا سأجلبها، حتمًا، ابنتي الوحيدة، مستقبل سلطنة أجدادي العظماء..

الآن يطاردهم شبحُ الضبع الأرقط بجنوده..

وسيقبض عليهم، وسنشنقهم هنا في أشجار المانجو العملاقة في سوق المدينة، ثم نتركهم طعاما للطيور الجائعة..

لا لا.. سنمزقهم إربا إربا..

سننتزع أياديهم وأرجلهم ثم أعينهم ثم نصلبهم.. نقيم عليهم حدّ الحرابة والسرقة ثم نحرقهم كما نحرق جثث الكلاب المسعورة..

أين أنت أيها الضبع الأرقط.. أيها المحارب الماكر؟!

يا صائد البشر والوحوش والجن!! أعرف أنهم إضافة إلى الإنجليز، قد استعانوا بالسحر الأسود..

لا أدري أين كان تابعي من الجن في تلك الآونة..

أين سحري الأسود؟!

لقد خانني الجنيّ اللئيم..

كل شيء يتركني..

إنهم يخونونني.. تبًا لي!»

كان يهذي كالمجنون، بينما تدلّك عشيقته المفضّلة نُورا ظهره. وعلى الرغم من أنه يفضلها على جميع نسائه التسع والتسعين، فإنّه كثيرًا ما ينسى اسمها، كما ينسى أسماء نسائه الأخريات، الاسم الوحيد الذي لا ينساه هو اسم زوجته الأولى فقد أنجب منها الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، ولا تندهش نساؤه الأخريات ولا يستغربن من منادتهنّ باسمها أي «فاتوما جما» التي كان يدلّلها في لحظات سعادته وشبقه «مامو فاتو»، بل إنه ينادي غلامه الإنجليزي، وهو اللوطي الوحيد الذي احتفظ به مؤخّرًا في بيت الحريم، «مامو فاتو» أيضًا.

«شيئان لا يحتاجان إلى إدارة فعلية، إنهما يديران نفسيهما بنفسيهما؛ نسائي التسع والتسعون، وسلطتي!»

الدولة تدير نفسها، فالكلّ يعمل لمصلحته، والكلّ يعي أنه إذا أخلّ بالنظام العُرفيّ غير المكتوب والمتفق عليه ضمنيًّا، سيضرّ ذلك بمصلحته، كما أنّ حياة السّادة بسيطة وغير معقّدة، تتمثل في إدارة العمل التجاري أو الزراعي عبر الأسرى، وإدارة النّساء وملحقاتهن من الأطفال والمنازل، فالنساء للتمتع وإنجاب الأطفال، والعمل لتحصيل المال من أجل الاستمتاع بالحياة، ومفهوم الحياة لا يحيد عن الأكل والشرب والسكن المريح وامتلاك الأسرى، فهُمْ من يقومون بكل شيء نيابة عن السادة الذين لا يقومون إلاّ بالأعمال الإدارية، وأحيانًا إذا فار غضب السيد يقوم بمهمّة ضرب الأسرى والأطفال والنساء الجانحات بنفسه، فعقاب الأسرى يقوم به أسرى آخرون، أمّا تأديب النّساء والأطفال ففي الغالب مهمّة السيد، فما هو الشيء

الذي تحتاجه الدولة؟

النساء ينظّمن مبيتهن بأنفسهن، كل واحدة تحفظ دورها وتعد له العدّة، وهل لديها مهنة أخرى تقوم بها غير ذلك؟ نعم، ينبغي لها أيضًا أن تعدّ طعامًا جيّدًا، غالبا ما يكون من لحوم الدّجاج أو الماعز، وعليها أن توفّر المشروب الذي يفضّل السيّد شربه عندها، ثم تعدّ جسدها، بالتطيّب والاستحمام وتنظيف بشرتها من الشعر الزائد، والبعض منهنّ تحبّ مسامرة السيّد بقصّ حكايات شعبية، وعليها بالطبع أن تتجنّب الطلبات الكثيرة التي تعكّر مزاجه، فوقت الطلبات لا يتوافق مع يوم المبيت، كلّ الطلبات تجَمّعُ لتقدّم قبل الأعياد الكبيرة، الأضحى والفطر.

الحياة بسيطة وغير معقّدة، ولكن منذ أن عرف الأوروبيون الطريق إلى الجزيرة، ظهرت للسلطان مهام أخرى صعبة ومعقّدة، إنّها لعبة البيضة والحجر، عليه أن يعي العالم من حوله ويفهم مصالح الجميع ويوازن بينها بدقة ليحافظ على وجوده، عليه أن يوقف تجارة الرقيق وأن يحتفظ بهم في الوقت نفسه، عليه أن يسلّم مقوده للإنجليز ويحافظ على استقلاله، وعليه أن يبني دولته بصورة مختلفة حديثة لكي يحافظ على النمط التقليدي السلطاني فيها. والآن تظهر له مشكلة أخرى؛ إنّها الثورات الفجائية غير المفهومة للسكان الأصليين الأفارقة، ماذا يريدون ومَن وراءهم ولماذا! والمشكلة الأكثر تعقيدًا، هي اختطاف ابنته! هل سيعتمد على شبح مات ألف مرّة ليعيدها إليه؟! وأين هو هذا الشبح؟! هل يستطيع الشبح العبور إلى البرّ الإفريقي الذي يسيطر عليه الألمان الشرسون! حيث عبر الزنوج بابنته؟

السيدةُ الجميلة التي نسي اسمها، تدلك ظهره القديم المتعب، بزيت الصندل. كان يحاول أن يتذكر اسمها، إنها في صحبته منذ أكثر من عشر سنوات على أقل تقدير. وفي تلك اللّحظة دخل عليه مطيع مُبلغًا إيّاه خبر حضور القنصل الإنجليزي الفجائي:

-إنه ينتظر في مجلس الضيافة.

حوقل واستعاذ بالله من غضب الله، ثم ذهب إلى غرفة الملابس وخلفه مطيع لكي يساعده على ارتداء ملابسه وهو يتلو آية الكرسي، يردّدها باستمرار عندما يرتدي ملابسه، إنّها مفيدة في أوقات المصائب وأمور الدنيا المعقّدة، لم يكن يظنّ أنّ هناك خيرًا وراء مجيء القنصل، فهو يتشاءم منه.

إنه الشهر الثالث منذ أن استلم القنصل القصر وهيّأه لسكنى منسوبيه وضيوفه، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، مات اثنان ممن سمّاهم ضيوف المملكة، نتيجة شربهما خمرا مسمومة، وجداها في مخبأ الخمور بالقصر.

«حسنًا.. ما دخلي أنا في ذلك؟! لم أعطهما الخمر، ولم أسمح لهما بالعبث بمحتويات القصر، بل لم يكن من ضمن شروط الإيجار استخدام تلك الغرف المغلقة التي تقبع في الجزء الأسفل من القصر تحت الأرض، أقل ما يُقال عنهما، إنهما جاسوسان، لصّان سرقا خمرا ونالا عقابهما.»

«لا.. ليس كذلك أيها السلطان الذي باركه الربّ مؤخّرًا، إن أحد رجالكم أو بعض الجواسيس قد سمّم الخمر، كما أن المقتولين كانا يريدان دفع ثمن الخمر التي احتسياها. من يدري؟ ثمّ هب

أنها سرقاها، هل لدى جلالتكم ما مفادهُ أنّ عقاب السارق هو القتل؟ والسؤال: لماذا تحتفظون بخمر مسمومة في قصر يستأجره القنصل الإنجليزي من أجل ضيوفه دون علمه؟ لقد قمنا سويًا بحصر كل موجودات القصر وتمّ تدوينها في قائمة هذه نسخة منها، ولا أثر فيها لسموم أو أسلحة، إنّ جلالة الملكة تريد منكم إجابة شافية.»

«المصائب لا تأتي فرادى، أيّ لعنة حلّت بي! حسنًا، ليس لديّ ما أقوله غير ما سمعته.»

«هذه أيضًا إجابة جيّدة، عليكم دفع تعويض معقول لأسرتي القتيلين، وأظن أنّ ذلك، حسب معرفتي، سيكلّفكم الكثير.»

-أنا لم أقتلهما.

قال القنصل وعلى فمه ابتسامة باهتة:

-هذا لا ينفي مسؤوليتكم القانونية، أنتم تحكمون، ولقد ذُكر في القرآن الذي تؤمنون به: «كلكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيته».

كان السّلطان يعرف أن ذلك ليس قرآنًا، ولكنّه لم يشأ أن يفتح جُبّ الأسئلة، فقال:

-من كان داخل مبنى القنصلية، فهو في رعاية السيد القنصل، هذا متفّق عليه، موقّعٌ، ومحفوظٌ لدينا أيضًا.

ابتسم القنصل وهو يقول:

-إذن.. دعنا نترك الأمر للقضاء البريطاني، إنه كفيل بحسم

الأمر، فقط أريد أن أذّكركم، بأنّه ضمن مواد القانون الجنائي البريطاني يُسلّطُ الإعدام على كل من تثبت عليه تهمة القتل العمد ويجبرُ على التعويض المجزي لأسرة المقتول في حالة القتل الخطأ.

ثم أضاف قبل أن يستأذن في الذهاب:

-ما هي عقوبة سارق الخمر عندكم؟

قال له السلطان دون تفكير:

-الخمر حرام عندنا.

فقال القنصل الشاب:

-هذا هو السؤال الذي يحيّر العقول، طالما أنّها حرام، لماذا تحتفظون بها في قصر يستأجره القنصل الإنجليزي؟ بل لماذا تجلبونها أساسا؟ لأي غرض تفعلون ذلك؟ ألا ترى أنّ الأمر معقّد، حتى بالنسبة إلى القضاة الإنجليز المتمرسين بالعمل؟! المنطق يقول: «وجود خمر مسمومة في معمل للتجارب مقبول ومعقول، أمّا وجوده في قصر لسلطان مسلم مبارك من الرب، فهذا أمر لا يتقبّله العقل الأوروبي الذي يحترم المنطق»، لو كنتَ أوروبيا لوصلت إلى نفس النتائج التي وصلت إليها أنا الآن.

ابتسم القنصل الإنجليزي الشاب وهو يضيف:

-إذا أردتم التسوية فنحن جاهزون، وإذا أردتم انتظار صدور الحكم، فلكم ذلك. أتمنّى لكم يومًا سعيدًا ومباركًا، ونحن آسفون لقطع قيلولتكم.

«ماذا يريد منا الأوروبيون؟ الجزيرة تخصّنا، بنيناها وأنشأناها وها نحن نحكمها، الأرض لنا والشعب لنا، نحن سادته، لم نستعن بأحد من الأوروبيين ولم نطلب المساعدة منهم ولا من غيرهم، عملنا كل شيء بأنفسنا، ركب جدودنا البحر، وغامروا وضحّوا بحياتهم من أجلها. نحن من أتينا بأشجار القرنفل وزرعناها، واستصلحنا الأرض البور، وجلبنا الزنوج المتخلّفين من غاباتهم ليفلحوا الأرض، نحن من نشرنا فيها الدين وعرّفناهم بالربّ، ليأتي الأوروبيون من خلف البحار ويتدخلوا في شؤوننا الخاصة. هل يسمحون هم لنا بأن نتدخل في شؤونهم الداخلية؟ بريطانيا تستعمر معظم دول الأرض، باعت من البشر الملايين، قتلت ونفت وشرّدت، إنها تفعل ما تشاء في بلاد الآخرين، فلماذا لا نفعل نحن بدورنا في بلادنا ما نشاء؟!

لن نقوم بتجارة الرقيق، ولكننا سنحتفظ بما لدينا منهم، إنهم ملك يميننا، ولدينا حقوق شرعية، تمكّننا من امتلاكهم، وعندما كنّا نتاجر بهم كنا نتّقي الله فيهم، ولا نعاملهم كما يعاملهم الأوروبيون والأمريكان، كنا نعاملهم وفقًا لشرع الله وسنّة رسوله. نعم تُوجد بعض الاستثناءات غير الأخلاقية وهذه أخطاء بشرية، فالكمال لله.»

«الآن عليك أن تدفع الثمن غاليًا، لقد طلبنا منك مرارًا وتكرارًا أن تقبل الحماية البريطانية على الجزيرة، ولكنك تفاجئنا كل يوم بخطة ثعلبية مكشوفة، حسنًا، ستدفع التعويض السخيّ لأسرتيْ المقتولين، وهذا يكلّفك تقريبا ثمن القصرين، قصر

الأميرة وقصر الفراديس، يكفيك أن تحتفظ بقصر الملك وقصر الغرائب، وعلاوةً على ذلك ستضيف إلى قيمة التعويض ثلثي الأراضي الزراعية والحقول والغابات التي تمتلكها. ما رفضته على طبق من الذهب عليك أن تقبله ذات يوم من فوهة المدفع. وإنّنا نعتبر، خطبتكم غير الموفّقة بمثابة إعلان حرب من طرف واحد، ماذا تريد من تجييش الشعب وتسليحه، لأي حرب تعدّه، ضدّ من ولمصلحة من؟ نحن نحصي كل تحركاتكم السريّة نحو الفرنسيين الذين أصبحوا أكثر من عدد الأشجار في بلادكم، ولكن مثل هذه الألعاب لا تفيد، نصيحتنا لك أن تقبل الحماية البريطانية على الجزر، وإلاّ ستواجه الفرقاطات الإنجليزية، وستحاوركم مدفعيتنا من البحر، وأنتم تعرفون لغتها جيدا، عندئذ ستحترمون مقترحاتها.»

التجأ السلطان الذي باركه الربّ مؤخرًا إلى الصلاة والتقرب إلى الله، بعد أن تخلى عنه شبح الضبع الأرقط الذي لم يعد يزوره، ولم يجبه الجن الذي يستخدمه ويقضي له حوائجه عند الضرورة، ولقد قال له ساحر استعان به: «إن السحر الأسود الإفريقي لا يؤثّر في البيض، فإنّ لهم سحرًا أبيض، والشيطان المسؤول عنه لا يعيش في إفريقيا.»

كان يقيم اللّيل متعبّدًا، قارئًا القرآن، سائلاً المولى، عزّ وجلّ، أن ينجيه من الإنجليز ومؤامراتهم، ومن الزنوج وحقدهم، ومن الفرنسيين وشرّهم، ومن الألمان وعنفهم، وبقي على هذه الحال مع الصيام المتواصل، مدّة شهر كامل، وكما قطع عليه القنصل ظهيرة ما، جاء وقطع عليه خلوته لإعلامه بأنّ ممتلكاته أصبحت حقًا مكتسبًا

لأسرتي المقتولين، وعليه، أن يُخلي القصرين بأسرع ما يمكن. حينها فقد الأمل في استجابة الربّ وجدوى الصلاة والصيام والدعاء، لم يلم الرب، بل لام نفسه، فالرب حر في اختيار من ينصر ومن يهمل، قرّر بصورة نهائية أن يسعى إلى التقرب من الإنجليز وإطاعتهم وتحقيق مطالبهم ما عدا القبول بالحماية التامة على الجزيرة. عليه أن يكون عمليًّا إلى أن يستجيب له الرب، عليه أن أن يفعل شيئًا بنفسه.

وَقَّعَ على التنازل عن القصرين، وثُلثيْ أرضه، تدخّلوا أيضًا في شأن محظياته، فلم يتركوا له غير اثنتين، وحرّروا الباقيات ومنحوهنّ من ثروة السلطان جانبًا لإعاشتهن، ولكن إكراما لجلالته تركوا له اللوطي الإنجليزي الشاب، فقد فضّل البقاء مع سيّده بكامل إرادته أو بإيعاز من سيادة القنصل. قبل دون أيّ مقاومة، فقوّة الضعيف في استسلامه للأمر الواقع. والشجرة التي لا تنحني للريح تقلعها العاصفة.

«حسنًا، طالما أوكلت أمري للإنجليز، فلماذا لا يساعدونني في استعادة ابنتي؟ خاصة بعد عودة القوة العسكرية والشرطة خائبة من دون الحصول على أثر للأميرة التي باركها الرب؟»

«طبعًا ذلك ممكن إذا لم يأخذها الثُوار إلى أراضي الحماية الألمانية، أنت تعرف أن علاقتنا مع الألمان ليست على ما يُرام، وكل المعلومات تقول إنهم عبروا إلى البرّ الإفريقي، ومعهم الأسلحة، والفتاة، والأسير سُندُس خادمها. الشرطة لم تجد لها أثرا وكأن الخاطفين ريح تخفّت بين الأعشاب، هكذا يقول قائد الشرطة الجديد الجنرال ديفيد، لقد قام بما في وسعه وبما يمليه عليه

ضميره.»

«لو كنتُ قويا بما يكفي، لجهزّتُ جيشًا وعبرتُ به إلى البرّ الإفريقي وعدت بها، ولَقمتُ بمحاسبة عصابة المجرمين تلك محاسبةً عسيرة، ولكن للأسف لا يمكن للإنسان أن يعتمد على نُصرة الآخرين له عندما يكون ضعيفًا، أمّا عندما يكون قويًا فلا يحتاج إلاّ إلى الاعتماد على نفسه، فالكلّ في خدمته؛ الشعب والشياطين والربّ أيضًا.»

الغريب في أمر السلطان الذي باركه الربّ مؤخَّرًا، أنه لم يخطر بباله وهو في أزمة فقدانه ابنته، أن يتذكر آلاف البشر الذين فصلهم عن أسرهم وباعهم في الأسواق مثل البهائم، لأنه ببساطة يعتبر ذلك أمرًا عاديًا، ولولا خوفه من فرقاطات النخاسة التائبين، لما توقف لحظةً عن الاتجار بالبشر، ولما أغلق تلك الأسواق الشاسعة المنتشرة في كل أنحاء الجزيرة التي يديرها نخّاسة محترفون في الأسعار والتقييم والتنسيب والترحيل والفحص، بل إنّه يعزو سبب ضعفه الأساسي الآن، وانهيار سلطانه وثروته، إلى إجباره على توقيع اتفاقية الحدّ من الاتجار بالبشر، على الرغم من أنه لم يلتزم بها حرفيًا.

«هل يدور التاريخ دورته الغاشمة على جسدي الآن؟

هل تنقلب موازين الكون في هذه اللحظات؟

الزمان لا أمان له، ولا دوام لخير، ولا لشر..

ولا ثبات لقيمة مهما كانت نبيلة..

ها هم الإنجليز يمنعوننا من ممارسة الرق، لنصبح نحن أرقّاء

لديهم..

كنا نحتقر السود للونهم وغبائهم، وها نحن عند الإنجليز سودٌ وأكثر غباءً..

كنا نظن أنّ لنا فضلاً على الوثنيين لإسلامنا، ويرانا الإنجليزي الآن ثلّةً من الضالّين الكافرين لا يدينون بدين المسيح..

كنا ننشر الإسلام وندعو إليه، والآن أصبحنا نُدعى إلى النصرانية..

وأخشى ما أخشاه، أن يحكمنا في يوم ما، مَنْ كنا نحكمهم قرونا من الزمان..

كل الموازين تنقلب الآن، لا بدّ أن هذا العالم قد أُصيب بمسّ من الجن، أيها الشعب، استيقظ، أيها الشعب النائم استيقظ، أيها الكسالى الحالمون هبّوا؛ عليكم لعنتي، ولعنة جدي النبي سليمان عليه السلام.»

كان مُطيع يستمع إلى كل ما يقوله سيّده الذي كان يفكر بصوت عال وهو يرقد على سريره، في ذلك الصباح الصيفي الساخن، رطوبة البحر كانت عالية جدًّا، وانعكاس أشعة الشمس على الماء ظلّ يصدر ضوءًا قويًا إلى داخل الجناح الذي انتقل إليه السلطان الذي باركه الربّ مؤخرًا بعد مصادرة قصر الفراديس. لم يستطع النوم طوال الليل، كان يهذي كالمجنون، ينادي ابنته، يصرخ في وجوه أشباح تملأ غرفته الواسعة، أشباح شياطين وزنوج وعمانيين، وأفيال وأشجار وإنجليز، كان أكثر ما يخيفه شبح القنصل الإنجليزي الشاب

صاحب الابتسامة الدائمة على وجهه، ذلك الشبح الذي يتحدث بصورة مستمرة محتفظًا بابتسامة مرعبة بين شفتيه الدقيقتين. يطمئنه بعض الشيء شبح «مامو فاتو» أمّ الأميرة. «أين الأميرة يا مامو فاتو؟ أين ابنتي اللعينة الداعرة؟» يضحكه بصورة هستيرية مشهد شبحين يعرفهما جيّدًا، تقاتلا بالخناجر حتى الموت في سبيل شجرة قرنفل واحدة اختلفا حول حقّ ملكيتها، ومازالا يتشاجران، وهما شبحان تافهان. يرعبه شبح سيدة إفريقية صغيرة أسرها الضبع الأرقط وباعها له، ولكنها ماتت في سرير النكاح، وطأها بقسوة وعنف فنزفت حتى الموت، تركت طفلا صغيرًا لا يدري أين اختفى، يُقال إن جدّه استطاع أن يتسلل إلى المدينة في هيئة ساحر جوّال، وأعاده إلى القرية، أو ربما باعه أحد نخاسي القصر، أو ربما مات. «لا أعرف أين هو!»

-لماذا لم تحضر لي وعاء الخراء، لماذا تقف عندك مثل الصنم أيها المخصي، اغرب عن وجهي.

ولكن مطيع على غير العادة كان ينظر إليه باستغراب واستخفاف بيّن، ثم فجأةً سأله:

-أين ولدي؟

نظر إليه السلطان مندهشا، هذه أوّل مرة يلقي عليه أسير سؤالا طيلة حياته الممتدة، أكثر من مائة عام عاشها هنا، في هذه البلاد.

-ولدك؟ من هو ولدك؟

قال مطيع في ثبات:

-سُندُس!

فصاح السلطان غاضبًا:

-أنت تستجوب السلطان عن ولدك الذي خطف ابنتي وهرب بها مع الزنوج المتوحشين إلى البر الإفريقي، ربما هم يشوونها الآن، يأكلون لحمها كما تؤكل الدجاجة، لِمَ لا تسأل عن الأميرة سيدتك وسيدة ابنك أيها الجاحد؟!

قال ببرود وثبات:

-إنه ابني!

قال السلطانُ الذي باركه الربّ مؤخرًا بغضب:

-أنت وابنك ملك لي، ليس لك ابن، أنتما فرخان لي ولابنتي.

قال مطيع غاضبًا وهو يرتجف كعشبة تعبثُ بها ريح سريعة:

-أنت الآن فرخ للإنجليز.

فنهض السلطان العجوز الذي باركه الربّ مؤخَّرًا من السرير كما ينهض الأسد الغاضب، وصفع مطيع على وجهه بكفّه المباركة القديمة وهو يصرخ:

-لقد حان اليوم الذي كنت أخشاه، أن يتحدث أسير تافه لا يساوي وسخ حذائي بتبجّح معي أنا، سيّده وسيد قومه كلهم منذ سيدنا آدم إلى يوم القيامة.

ضربه بوحشية، بكل ما وجده أمامه، رفسه بقدميه السمينتين، قذفه ببعض الأدوات المنزلية التي كانت على المنضدة، وبلباسه وبالمروحة التي تستخدم لطرد الذباب، بتحفة قديمة من الفخار،

وبها لا يعلم.

وكأنه يسحق في جسم مطيع القنصل البريطاني سحقًا..

وكأنه يبصق على التاج البريطاني، وينكح ملكات أوروبا العجوزات الماكرات في آذانهن..

وكأنه يتبول على فرقاطة إنجليزية تافهة، تقبع في لُجة المحيط، تنتظر اللحظة الحاسمة للانقضاض عليه..

وكأنه يذبح خاطفي ابنته بخنجره المصنوع من الذهب الخالص، الخنجر الذي لم يستلّه من غمده منذ أن تسلّمه من الصائغ الهندي الجوّال.

ونتيجة صراخه والجلبة التي أحدثها دخل الحراس مذعورين، فطلب منهم أن يأخذوا هذا الأسير الآبق إلى السجن تحت الأرض، وأن ينسوه هناك إلى الأبد، وعندما يتعفن، عليهم رميه إلى الكلاب، ثم صرخ مثل ذئب جريح:

-توقّفوا دقيقة، قلتُ لكم توقّفوا، اضربوه بالسياط أوّلاً حتّى يتمزق جلده، ثم تبوّلوا عليه، عليكم لعنتي.

حمله أسيران قويان، يعرفها جيدا، إلى السجن الذي يعرفه أيضًا، حيث يُوجد عشرات الأسرى الذين أَبِقُوا من قبل، ويُفترض بهم أنهم ضُربوا بالسياط إلى أن تمزقت جلودهم السوداء الغليظة، ثم تعفنوا في السجن ورُميت جثثهم المتحلّلة إلى الكلاب، همُ السجناءُ الذين كان يطعمهم ويسقيهم ويعتني بهم هو شخصيًا خلال سنوات طويلة، يطعمهم من بقايا مائدة السلطان الفاخرة، يحضر الطعام كل

يوم من قصر الفراديس إلى قصر الحكم حيث يقبعون، وجبة واحدة في اليوم، ولكنها تُعتبر رفاهية فعلية لأسرى محكوم عليهم بالتعفن في السجن، يفعل ذلك متواطئًا مع الحرّاس، فالصلات الأسرية والقبليّة، وعلاقة الدم والأرض واللون التي تجمعهم كانت أقوى من علاقة الأسير بالسيد التي يفرضها المكان، والسلطان لا يزور السجن مُطلقًا، يُقال إنه لا يتحمل مشاهدة الضحايا، فمه الذي يُطلق الأحكام ليس مثل عينيه اللتين تريان أفاعيل ما نطق به الفم، في حقيقة الأمر، هو لا يعرف مكان السجن بالضبط، كل ما يعرفه عن موقعه، أنه يُوجد في قبو القصر الذي يقيم فيه الآن، ويعرف أن من ينزل إليه لا يخرج منه إلاّ جثة متعفنة تُرمى إلى الكلاب الضالّة، تلك هي الأوامر التي يصدرها إلى الحراس عندما يقضي على كلّ آبِقٍ بإيداعه السجن.

بالتأكيد.. كانت هناك من وقت إلى آخر، معارك متفرقة في القرى التي حول المدينة، لأسباب مختلفة، خاصة في السنوات التي يضرب فيها الجفاف البلاد، حين تنهض ثورات الجوعى، وهدفها الحصول على الطعام. انتهت معظمها بالسحق التام والقبض على الثائرين الجياع، وإطعامهم بصورة طيبة وكريمة إلى أن تتحسن صحتهم وتلمع بشرتهم السوداء، ثُمّ يتم بيعهم في أسواق النخاسة بأسعار معقولة.

لم تكن الأميرة قد ذهبت إلى فراش النوم بعدُ، وكعادتها كانت تتمعن في لُجّة البحر المظلمة، تستمتع بهدير الأمواج، وصفير النوارس البعيدة، وأضواء السفن التي تقترب من الميناء، أو تلك المبتعدة عنه، تتبع أنوارها الباهتة إلى أن يبتلعها الأفق، تراقب منظر المنارات الصغيرة الطافية على المياه، إذ تلعب بها الأمواج فتختفي للحظات ثم تبدو مرة أخرى للعيان، ويساعد ضوؤها السفن على تحديد مساراتها، ويحفّز الأميرة على التركيز والاسترخاء والتأمل، لم يكن هناك ما يشغل تفكيرها في تلك اللحظات غير البحر والليل المظلم وجمال الأنجم البعيدة، كانت تعيش كل ليلة حالة حب مع الطبيعة، وبالفعل بدأت تغني بصورة ارتجالية بلهجتها السواحيلية المتميزة:

«أحبك أيها الليل، أحبّ النجوم البعيدة العالقة في سقف السماء..

ووجهك الأسود المزين بضوء السفن البعيدة..

أحب صوتك الممزوج من صفير الريح ونداء النوارس وهدير الموج..

أحبك أيها الليل وأغني لك وللبحر..

وأريد أن أسألك قبل ذلك...»

وكانت ستواصل أغنيتها ذات اللحن الإفريقي العربي الشجي،

لو لا أن دخل إليها سُندُس صائحًا :

-سآخذك معي.

لم تصدق أنها تستمع الآن لصوت سُندُس الصامت الأزلي، هل هي في حلم أم ثمّة شيطان خرج من لجة البحر متلبسا بجسد سُندُس وبلسانه! صاحت برعب، منادية سُندُس أن ينقذها:

-سُندُس، تعال إليَّ سريعًا، إنّ عفريتًا يهاجمني.

قال لها، وقلبه يدقّ بشدة مع وقع أنفاسه المتلاحقة:

-أنا سُندُس نفسه، لست عفريتًا من الجن، نعم، لقد استطعت الكلام، إنها معجزة ولكن لا وقت لدينا للتحدث في هذا الشأن، الثوّار في الخارج، علينا أن نرافقهم.

قالت بصوت مخنوق:

-من هم الثوار؟

قال متعجّلا وهو يمضي نحوها بخطى ثابتة:

-ستتعرفين عليهم في الإبّان.

ولم ينتظرها حتى تقرر أو تفيق من دهشتها، فقد حملها بين ساعديه وهرول بها، بينما كانت تصرخ دون أن تُصدِر صوتًا، إذ كان صراخها مكتوما مثلما يحدث في حُلم مرعبٍ أو كابوس لئيم، وضعها على الفراش، رقدت في استسلام تام دون أي حركة، فقط كانت تحملق بعينين جاحظتين في الفراغ، وتفغر فاها في حركة صراخ مستحيلة، مثل سمكة تحتضر على اليابسة، كانت شبه مشلولة، لا تدري أمن الرعب أم من الدهشة، لا تدري أهي سعيدة أم حزينة،

أم أنّها في حلم، مجرّد حلم. أخذ كلَّ ما ظنّ أنه مهم لها، أخذ حذاءً، ولباسا فضفاضا تلبسه السيدات العربيات يغطي جسدهن بصورة طيبة، وما وجده أمامه من زينتها.

توغّلوا في الغابات النائية، بطرق ملتوية يعرفونها، حتى إذا ما طاردهم جُند السلطان، لا يدركونهم. كان عددهم كبيرًا، قدّرهم سُندُس بخمسين شابا، ولكنهم في حقيقة الأمر مائة رجل ناضج، لم يهاجموا المدينة جميعهم، بل كان بعضهم ينتظر في نقاط متفرقة في الغابة، وينضمّون إلى المجموعة المهاجمة بين حين وآخر، كانت وسيلة التواصل بينهم الصفير الذي يُحاكي صوت البوم، يطلقونه من قرون الغزال، وكلّ مجموعة لها مهمّة حمائية مختلفة وفقا لموقعها، بعضها لتأمين الطريق، وبعضها للمراقبة، وبعضها الآخر للتدخل السريع في حالة تعرضت المجموعة المكلفة بالهجوم لخطر ما، إنّها المجموعة الوحيدة التي لديها أسلحة نارية، وهي تتمركز في أول نقطة داخل المدينة، كانوا يتوقعون معركة، لذلك جاؤوا بهذا العدد الكبير نسبيًّا.

لم تكن المرّة الأولى التي يهاجم فيها السكان الأصليون المدينة، بل حدث قبل ثلاثين عاما، أن هاجمها المحارب الشرس الملقب بسمبا، ولكنه لم يخرج منها غانمًا، إذ لاحقه جيش السلطان المكوّن من السواحيليين والسودانيين وهزمه على مشارف البر الإفريقي، ونتيجة لتلك الهزيمة خسر سمبا عددًا كبيرًا من محاربيه، ولكنه استطاع الفرار إلى الأدغال، ولم يحاول هو أو غيره تكرار الهجوم في ما بعد، كما أنّ هدف سمبا لم يكن الاستحواذ على السلاح، بل كان يريد أن ينتقم من السلطان نفسه، فقد خدعه في صفقة تجارية تحتوي على

مئات الأرطال من العاج وجلود الحيوانات النادرة. بالتأكيد كانت هناك من وقت لآخر، معارك متفرّقة في القرى حول المدينة، خاصة في السنوات التي يضرب فيها الجفاف البلاد، حين تنهض ثورات الجوعى، وهدفها الحصول على الطعام. انتهت معظمها بالسحق التام والقبض على الثائرين الجياع وإطعامهم بصورة طيبة وكريمة، إلى أن تتحسن صحّتهم وتلمع بشرتهم السوداء، ثُمَّ يتمّ بيعهم في أسواق النخاسة بأسعار معقولة.

كانت تمتطي حمارها الخاص، بينما كان يركب خلفها ليسندها ويحميها من السقوط. عبرا مع مجموعة الثوّار دغلًا صغيرًا متوحّشًا، يمرون بصعوبة عبر الأشجار المتشابكة في ممرات ضيقة. كانوا يمشون في صف واحد طويل، يمتد قرابة الكيلومتر، وهم يغنون أغنيات الحرب في سرور، ويحملون البنادق والذخيرة التي حصلوا عليها من غزوتهم الناجحة، يحتاجون إلى البنادق لأهداف بعيدة المدى وخطط يعرفها الشيوخ فقط، لقد نفّذوا الأوامر بالحصول عليها، أما بقية الخطة فليست من شأنهم. يمضون بسرعة بينما تحلّق على رؤوسهم أرواح أجدادهم التي تحميهم وتباركهم وترعاهم، وتخفي أثرهم عمّن يلاحقهم وينوي بهم شرّا، تتدلّى من أعناقهم التمائم التي زوّدهم بها ساحر القرية وزعيمها، إنّها ضد الثعابين والعقارب وهوام الأرض الأخرى. لقد خرجوا من ديارهم بعد إذن الربّ الإفريقي المقيم في كهفه البعيد، وضمن شروطه:

«من خذلهم الربّ هم من خذلوه فيما سبق..

ومن لم يحمه الربّ عليه أن يسأل نفسه ثلاث مرات عمّا ارتكب

من خطيئة..

ومن لم يتحدث إلى الرب بقلبه فلن ينظر إليه الربّ بعينيه..

ومن قال لا للرب، فكيف للرب أن يقول له نعم..

ومن عرف طريق الربّ ولم يسر عليه..

ومن ضلّ الطريق بعد أن عرفها..

ومن سرق قوت أخيه..

ومن اعتدى..

ومن لم يطع شيخه، فكيف يبصر في الظلام دون حكمة؟!»

لم يشعروا بجوع أو عطش، لم يهدّهم الإرهاق، لقد كانوا في قمة التفاؤل وحسن الطالع، لم يتحدثوا كثيرًا، كان قائد المجموعة يسير أماهم صامتا، وهم يتبعونه، لا يتوقفون، ولا يلتفتون إلى الوراء، فالنحس دائمًا ما يأتي لمن يتوقعه، ثم عبروا إلى البر الإفريقي الآمن من شر السلطان، عبر مراكب كانت مخفية في عُشب الشاطئ الكثيف، ولكن من يأمن غدر الحيوانات الضارية التي توجد في البر الإفريقي بكثرة، ولا توجد مثيلاتها في جزيرة أنغوجا، فقد تمت إبادتها جميعا عبر سنوات طويلة من الصيد، فالجزيرة صغيرة وطمع المهاجرين كان شاسعا، لذا تمت محاصرة الحيوانات بسهولة، فالحيوانات مهما كانت ضخامتها وشراستها، تعدم كلّ الحيل لتدافع عن حياتها أمام تفوّق السلاح الناري، إلى أن أضحت أنغوجا بلا حيوان عدا القرود والطيور وبعض الأرانب.

تم تصدير الأفيال، كعاج..

والقطط المتوحشة والزرافات والضباع الرقطاء والنعام، كجلود فاخرة..

والطواويس كرياش..

فلم يتبق من الفيل غير ذباباته الشهيرة، ومن القطط المتوحشة غير سيرتها في أحاجي الجدّات، ومن الزرافات غير صورها التي دُوّنت في الكهوف القديمة جنبا إلى جنب مع صورة الغول.

تم أخذ الحمار أيضًا في المركب، فهو من فصيلة جيدة تم استجلابها من اليمن، وليس من العدل تركه في الغابة، وبنصيحة من أحد الثوار، صبّوا مِرارًا كميةً من الماء على رأس الأميرة التي باركها الربّ مؤخرًا، حتّى استيقظت من غيبوبتها، لتسأل بصوت هزيل مبحوح:

-أين أنا؟!

رد عليها سُندُس:

-أنت معي.. وبخير.

قالت، وهي تحاول أن تتبين وجهه في ذلك الظلام الدامس:

-إذن أنت تتكلّم.

قال بصوت خفيض:

-نعم، إنها معجزة، لقد تكلمت.

قالت وهي تحسّن من ارتداء أثوابها:

-إلى أين تذهب بي؟

قال وهو يحملق في ما يفترض أن يكون وجهها:

-إلى قرية في البر الإفريقي.

قالت مستاءة:

-ولماذا تأخذونني إلى هناك؟

قال لها بهدوء:

-سئمت الحياة في المدينة، تلك المدينة التافهة، التي لا تحتوي سوى على نوعين من البشر؛ إما سادة وإما أسرى، إنني أحصل على حريتي، إنها فرصتي.

قالت وهي تجذب كمية كبيرة من الهواء:

-ولماذا تأخذني معك؟

قال بعد تردد:

-لا أدري لماذا، ولكنني أريدك معي.

لم يستطع أن يقول لها، إنها حريته الفعلية، أو بصورة أدق جسدها هو حريته، وإنه يرغب فقط في تغيير المكان. لم يستطع أن يعبّر عن حاله بصورة أكثر فصاحة، ولو كان يعرف كلمات مثل الحبّ والعشق والشهوة، لاستطاع أن يعبّر عمّا يحس به، تنقصه الكلمات ونسق الجمل والكفاءة في وصف الظرف والحال، فاللغة لم تعطه نفسها في كل وقت، إنّها مثل المرأة تمامًا، هبة اللحظة.

جميعهم يتحدثون السُّواحيلية بطلاقة، وهي لغة غير معقدة، خليط من اللغات المحلية وبعض الإنجليزية والكثير من العربية التي اعتادها السُّكان منذ أكثر من ألفي عام، سمعوها من البحارة والتجار والسادة وصائدي الرقيق وغيرهم. لا تجيد الأميرة لغة غير

السواحيلية، وتعرف أيضًا كيف تكتبها وتقرؤها بأحرف عربية، تعلّمتها من زوجها عندما ألحّت عليه أن يسمح لها بتعلّم الكتابة والقراءة، ويظنّ زوجها أنهما مفسدتان للمرأة، وتصيبان روحها بالتمرّد، فهما أكثر من حاجتها إلى أداء واجبها الأساسي في الحياة، فاللغة تحمل الكثير من الشرور التي تخبئها في بطن الكتب بين السطور، الكتاب الوحيد الذي يخلو من الشر هو القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله، وغيره مفسدة، وضرب لها مثلا امرأة ادّعت النُّبوة في زمن الرسول، عليه الصلاة والسلام، اسمها سجاح، «من أين تعلمت سجاح المحاججة والكُفر لولا أنها كانت تقرأ كتب الأولين! كما أنه كان خطأ والدها أيضًا فقد علّمها الحساب والتنجيم والسحر..»

سألته حينها:

-لماذا لا تفسد الكتابة والقراءة الرجل؟

قال لها ضاحكًا:

-الرجل لا يفسده شيء غير كيد النساء، فإن كيدهن عظيم.

قالت بإصرار:

-حسنًا، سأكلم أبي كي يحضر لي الفقيه العماني الشاب هنا في البيت ليعلّمني القراءة والكتابة، ويفهمني أيضًا عظمة كيدي.

وفهم زوجها، عليه الرحمة، ما تشير إليه، فتوكل على الله. على كلٍّ فالسواحيلية لغة محدودة، ولم تُكتب بها كُتب تحتوي على أفكار طائشة أو غير طائشة أيضًا، ولم تُترجم إليها أفكار الكفار والملحدين والأنبياء الكاذبة: حسنًا، دعينا نبدأ.

وتعلّم سُندُس منها الكتابة. لا يجيد المحاربون المائة القراءة ولا الكتابة. إنهم محاربون ومزارعون ورعاة، ليسوا في حاجةٍ إلى ممارسة الكتابة والقراءة اللتين لا تفيدان في شيء، بل سيبدو الأمر غريبًا جدًّا ومدهشا إذا علمنا أن الكثيرين منهم لم يعرفوا أنّ هناك شيئًا يُسمى كتابًا، فالمعرفة شفاهة من فم لأذن، وبالممارسة اليومية والمحاكاة، كما تتوارث الأخلاق والقيم من جيل إلى جيل، ويتم ذلك بصورة منظمة، فعندما يبلغ الأطفال سن العاشرة، يؤخذون إلى المربين، وهم أفراد كبار السن، يقومون برسم علامات العمر في مواقع معروفة من أجساد الصبية، لكل قبيلة ما يميزها، ولكل جيل علامة يشترك فيها مواليد السنة نفسها، وهي بمثابة شهادات الميلاد والهوية، ثم يقومون بتلقين الناشئة الأخلاق الحسنة والشجاعة ونُظُمَ الدفاع عن النفس ووسائل كسب العيش المتاحة في مجتمعاتهم وبعض العلوم المهمة، مثل التنجيم والقيافة وفهم لغة الأشياء والطبيعة من حولهم؛ كالمواسم وعلاماتها والمواقيت ومواقع النجوم.

عليهم عبور نهر صغير، بطيء الجريان، ومشهور بالتماسيح الشرسة التي تقطنه، يعود إلى البرتغاليين الفضل في بناء جسر صغير فوقه قدَّ من الحبال، يصونه القرويون كل عام في احتفالية تقليدية، فقد كان البرتغاليون يحتلون هذه الأمكنة قبل أن تنتصر عليهم القوات العمانية وتطردهم من مجمل البر الإفريقي. في ضوء الصباح الباكر استطاع سُندُس أن يقرأ الديباجة التي نُحتت على صخرة قرب الجسر، وقد كُتب عليها تاريخ البناء، في السادس من يونيو 1660 ميلاديًا.

ظلّت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا صامتة، كانت تتجوّل بنظرها حول المكان الذي بدأت معالمه في الظهور تدريجيًا مع ضوء الصباح. كانت مسحورةً أيضًا بجمال الطبيعة ومأخوذة بالأشجار التي لم ترها من قبل، كما أنها لأول مرة ترى بعض الحيوانات المفترسة الهاربة بعيدًا لتتجنّب المحاربين، ورأت الزرافات والغزلان، وشاهدت التماسيح بينما كانوا يعبرون النهر الصغير بواسطة الجسر، وما أدهشها أكثر أنها لأول مرة ترى هذا العدد من الشبان الزنوج الأحرار، وعلى الرغم من أنهم ناضجون جميعا، لم يقم أيٌّ منهم بالتحرش بها أو محاولة اغتصابها، على عكس جند والدها الّذين يعتبرون أيّ تحرّش أو اغتصاب أمرًا عاديًا وطبيعيًا، بل إنّ والدها لم يكن يخجل منها إذ يحكي أمامها أنّ نكاح الأسيرات لا حرمة فيه فهو حق مكتسب، بل إنه طبيعي جدا ومن حق المنتصر أن يقطف ثمرة نصره، كما أنه يحتفظ بخمسين من الأسيرات ضمن نسائه التسع والتسعين في أجنحة الحريم في قصوره. يعاملها الشبان باحترام ولا يحملقون في جسدها المغطى جيدا، أو في وجهها السافر وهي تركب حمارها الذي يكبح جماحه سُندُس بين الفينة والأخرى، وعندما أشرقت الشمس، كانوا في أرض شاسعة، تبدأ من حيث تشرق، وتنتهي في آخر الدنيا حيث تغرب:

«البلاد التي صنعها الرب..

ثم ملأها بالحيوانات والبشر والجبال والأشجار..

شق فيها الأنهر العذبة..

ثم أحاط خصرها بالمحيطات والبحار التي تأتي بالسحابة،

والسحابة بالماء، والماء يطعم الأرض، فتثمر الشجرة، فيأكل الإنسان ثمار الشجرة، فينجب الأطفال، ثم تأتي المراكب الكبيرة وفيها صائدو الإنسان والحيوان وقاطعو الشجرة.»

كلما اقترب المحاربون أكثر من القرية، ضجّت حناجرهم بالغناء والإنشاد وترتيل التعاويذ القديمة، وأصبحوا أكثر نشاطا وهمّةً، إنهم يحققون حلم آبائهم وشيوخهم، ها قد جاؤوا منتصرين.

قال قائد المجموعة بعد أن جمعهم في حلقة واحدة كبيرة:

-حسنًا، نحن الآن على مشارف القرية، ها هي أصوات الطبول تأتي إلينا من بعيد، ولكن ثمّة مشكلة ستواجهنا، عندما يسألوننا عن هذه السيدة! أظن أنّ سُندُس الوحيد الذي عليه أن يجيب، فهي مسؤوليته أوّلاً وأخيرًا.

فهم الجميع أنّ هناك مشكلةً حتميّةً، ما عدا سُندُس والأميرة، لم يستطيعا فهم ماهية المشكلة. ولماذا تكون هناك مُشكلة بشأن السيدة؟

فِي الحُبِّ والحرية

قال مقاطعًا قبل أن تتم جملتها:
«اسمعي.. أقول لك، ليس للنساء البيضاوات مؤخّرات مثيرة للاهتمام، البرد القارس يجعلهن يستهلكن كل الشحوم في أجسادهن، وهذه أيضًا حكمة الطبيعة، هن من هذه الناحية أشبه بالرجال.»

وُلِدت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، في الخامس من أكتوبر 1855، في جزيرة أنغوجا، أو زنجبار حسب تسمية الفُرس لها، أي بَرّ الزنج، أنجبتها المرأة التي تزوجها السلطان رسميا، وهذا مهم في ما يخص الميراث والخلافة والمظهر الاجتماعي الخارجي، كانت طفلة السلطان الوحيدة، وقد تركتها أمها في يوم ميلادها الأوّل، إذ توفاها الله في عمر مبكر. ويُقال إن شبق جلالته بالنساء يرجع إلى محاولته إنجاب ولد يرث العرش، ويحافظ على نسل الأسرة من الانقطاع والتلاشي، هو لا يرغب في أن تكون وريثته في السلطان امرأة، يريده سلطانا رجلا، لسبب غريب يراه هو مقنعًا، أما الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا فترغب بشدة في أن تصبح السلطانة، فلها الحق الشرعي في ذلك، كما أنها ليست أول سيدة تصبح سلطانة، وضربت مثلا لأبيها قائلة، وهي تحاوره في مسألة ميراث السلطنة:

-سلطانة موهيلي يا أبي، السلطانة جومبية فاطمة!!

قال الأب مستاءً، ودون حياء كعادته:

-نعم، من أجل هذه المرأة بالذات لا أرغب في أن تصبح ابنتي سلطانة، انظري كم مرة تزوجت جومبية فاطمة، كم رجلا يرغب في الزواج منها؟ كم رجلا طلقها؟ كم فرنسيًا؟ وكم عمانيًا؟ وكم من واحد غيرهم؟ إنها سيدة ذكية جدا

وذات همة عالية، ولكنّ الرجال لا يرون فيها غير مؤخرتها، هؤلاء الإنجليز والفرنسيون والعمانيون المشردون في بحار المحيطات وعلى الجُزر، يتصارعون ليل نهار في خطبة امرأة، بل إنّ الحكومة الفرنسيّة نفسَها بأباطرتها وأساطيلها البحرية قد تدخّلت في مسألة زواج فتاة. ما هذا؟ كل الرجال في العالم تحركهم مؤخّرات النساء، تبًّا لي!

قالت له الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا وهي تحاول أن تتجنب الضحك:

-لماذا لا يرى الرجال في المرأة غير مؤخرتها يا أبي؟

قال ضاحكا:

-هكذا خلقهم الله، لا شأن لي في ذلك، فالله يفعل ما يشاء.

قالت وهي مستاءة:

-إذن هذه مشكلة الرجال وليست مشكلة السلطانة.

قال ضاحكا:

-هذا صحيح، لكن طالما أنّها ستحكم رجالًا، فتلك مشكلتها أيضًا، كل الرجال الطامعين في الحكم يحاولون الوصول إليه عبر...

قالت مقاطعة، وهي تصرّ على محاججة أبيها الذي يتبنى أفكارا غريبة ويؤمن بها:

-حسنا، الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا، والملكة تريزا...

قال مقاطعا قبل أن تتم جملتها:

-اسمعي.. أقول لك، ليس للنساء البيضاوات مؤخّرات مثيرة للاهتمام، البرد القارس يجعلهن يستهلكن كل الشحوم في أجسادهن، وهذه أيضًا حكمة الطبيعة، وهنّ من هذه الناحية أشبه بالرجال.

قالت بإصرار:

-أنت الآن عجوز، ولن تنجب ولدًا، إذن ماذا سيحل بسلطانك؟

قال ببساطة وطمأنينة:

-أنتظر أن تنجبي لي أنت ولدًا، ليرث العرش، وليس عَصِيًّا على الله أن يرزقني طفلا بعد هذا العمر من امرأة طيبة ذات أصل نبيل، فالكثير من نسائي من أصل نبيل كما تعلمين، ولا تنسي أن النبي زكريا أنجب ولدا وقد بلغ من الكبر عتيا.

وظل السلطان يتزوج مزيدا من النساء، ويتخذ العشيقات، ولكن ظلت أمها المتوفاة المرأة الوحيدة التي أنجبت له مولودا، وهي أيضًا المرأة الوحيدة التي يتذكرها دائمًا، أما بقية نسائه فلا يدري حتى متى التقطهن وأين، وبعضهن بنات أسر كبيرة، وهِبن له تقرّبا منه وطمعًا في وراثة عرشه، ويُحكى أنه فجأةً تذكر إحداهن، وطلب من راعية بيت الحريم أن تحضرها لفراشه، ففوجئ بأنها توفيت منذ أكثر من عشرين عامًا.

-لم يخبرني أحد بذلك.

-لقد صليتَ أنت على جنازتها بنفسك، وهي الآن تنتظرك في سِدرة المنتهى، مع نسائك المكرمات عليهن الرحمة.

لم تتخل الأميرة التي باركها الربّ عن فكرة السلطنة، فهي تعرف أن المسألة مسألة وقت لا أكثر، وأن والدها لن ينجب، هذا مؤكد. إنّها لا تعلم إرادة الله، ولكن طالما لم يستطع الإنجاب خلال حياته الطويلة السابقة مع النساء، فلن يستطيع ذلك الآن وقد أصبح عجوزًا باليًا في عمر مجهول لا أحد يعرفه، على الرغم من توقف أزمنته الخاصة في 54 سنةً سحرية. كل غرضه من النساء أن يدلكن ظهره، ويمسدن عضلاته، ويقصصن له حكايات أسطورية وشعبية، ويحكين له عن النساء الأخريات، وما يصل إلى آذانهن مما يدور في سلطنته والجزر التي حولها، وينقلن إليه بعض الأقوال والنمائم، فهو مغرم بذلك كثيرًا. أمّا الأميرة فعليها أن تستمتع بحياتها إلى أن يُشيَّع والدها إلى مثواه الأخير، فحكم الشعبِ عاشقِ المؤخّراتِ سيكون من نصيبها دون أدنى شك.

بعد وفاة زوجها، انتبهت بصورة عنيفة لجانبٍ لم يكن مُلحًّا عليها قبل الزواج، وهو الشعور بحاجات الجسد، وتلك مسألة معقدة، إنّها لا تحن إلى رجل بذاته، أي أن حاجات الجسد في تصورها محصورة في جسدها نفسه، إنها منه وإليه، أو هكذا تظن، ربما لخوفها من الرجل الانتهازيّ، فجاذبيتها عند الكثيرين تتمركز في موقعها الاجتماعي، فمن مِن الرجال رأى جسدها أو تمعن في وجهها فافتتن به! هي في تجوالها ورحلاتها وتسوقها وفي كل المناسبات العامة، ترتدي زيا عربيا فضفاضا يسترها بصورة تامة، فليس مسموحًا لها كسيدة حرة بالتبرج، فالتبرج من شأن الخادمات والأسيرات المجلوبات من خلف البحار من أجل المتع الجسدية، كعشيقات أو

بائعات هوى أو ملك أيمان لرجل ثري أو حاكم أو تاجر ميسور الحال. كانت تجربتها مع زوجها السابق، من الناحية الجسدية، ممتعة. حضوره القليل المتقطع من أسفاره الطويلة يبهجها في كثير من الأوقات، ولكن عدم إحساسها بالأمان، وشعورها بالخيانة المسموح بها للرجل فقط، يقضّان مضجعها، وتحس نفسها واحدة من عاهراته المنتشرات في الأرض وعلى السفن البحرية القذرة، ما يميزها هو أنها وحيدة السلطان، وهذا هو الأمر الذي لا تحبه، فلذة الجسد عندها لذة اجتماعية متكاملة، لا مجرّد محطات في الفراش أومناورات من أجل السلطة أو المنافع اليومية.

لقد تعلمت منه الكثير، نقل إليها خبرات كل عشيقاته المجهولات، مارس معها فنونا من اللذة غير مطروقة، خليطا من الكاماسوترا التي تعلمها من الهنديات، وألعاب اللسان من مدرسة الجسد الفرنسية، من داعرات من بني الأصفر عابرات. وكان ماهرًا أيضًا في الجنس الفموي، ولغة الغزل التي أتقنها أثناء حياته في الإسكندرية والقاهرة، وهو ما أيقظ ساعة جسدها التي كانت تظنها معطوبة. والآن، بعد مرور زمن طويل منذ أن ووري جسده الثرى، عليه الرحمة، لم تتوقف تلك الساعة، كانت تدق بإيقاع قد يكون غير منتظم، أو مزاجيا، ولكنه موجود، يضج في صمت مهيب. وإن تكن نالت فائدة من زواجها القصير منه، فهي انفتاحها على فن النكاح، وعندما تخبر بأنواعه صديقاتها المحرومات، اللاتي تزوجن رجالا ليس من مهنتهم الأسفار، فإنهن يندبن حظوظهن العاثرة، فمادامو غير وفيين وداعرين، فليدعروا في ما يفيد. ولكن بينها وبين نفسها،

فإن أسوأ ما يجرح قلبها هو دعارة زوجها، إنها من عينة النساء اللاتي يكفرن بتعدد علاقات الرجل، شرعيا أو غير شرعي. كانت تقول للنساء:

-لقد تعلم زوجي ذلك من الكتب التي يقرؤها.

ولكن النساء لا يحتجن إلى أيّ تبريرات، فزوجها معروف في المدينة بقلة أدبه، وبأنه عندما يسكر مع أزواجهن، يحكي عن مغامراته النسائية، مُنصِّبًا بذلك نفسه بطلًاجنسيًّا فريدًا، وزيرَ نساءٍ قلما وُجد مثله في التاريخ، ويُقال إنّه الرجل الوحيد الذي نكح من كل سكان قارات الأرض، ولكن في واقع الأمر، وما هو مؤكد، أنه الوحيد في ما يُعرف بجزر الزنج الذي كانت لديه محظية من الصين، وهو أمر غير مفهوم، ولكنه حقيقي.

فكرت الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا في مسألة شائكة، في ما يخص ملك أيمانها هي، والمقصود هنا خادمها الأسير سُندُس، وفكرت جديا في سؤال: ما هو الجنس المحرم؟ أليس هو الإيلاج والخلوة مع الرجل الأجنبي! فإن صح ما تعتقده فإن سُندُس ليس برجل، لذلك سُمح له بمصاحبتها والعناية بها ورعايتها ومشاهدتها وهي عارية كما ولدتها أمها، كما أنها تأتمن سُندُس وتفضله على زوجها، خاصة من ناحية علاقته بالنساء، فكل مغامراته الجنسية كانت عبارة عن لمسات بسيطة لثدييها، تعلم أن ذلك لم يكن بريئا، وأنه لا يخلو من اشتهاء مكبوت صامت. لماذا لا تذهب إلى أبعد من ذلك معه، لماذا لا تحاول إشباع جسدها، واكتشاف سبل للمتعة في مصاحبته أعمق من تلك اللذة الخجول المُتَجَاهَلة والمسكُوت عنها

من الجانبين، فهو ليس برجلٍ وهو ملك يمينها، ولقد سمعت الفقيه يقول ذات مرة: سبب حرمة الزنا، هو تجنب اختلاط الأنساب.

لم تكن عميقة في تديّنها، أي مثلها مثل شعب أبيها، أثّرت فيهم الثقافة الإفريقية واللغة الجديدة، وأصبح تدينهم خليطا من السحر الإفريقي، والقليل الظاهر من الإسلام، خاصّة فيما يتعلّق بالعبادات مثل الصلاة والصيام والحج، وأيضا فيما يتعلّق بالمظهر الخارجي للمرأة والرجل، وهو أقرب إلى التراث العربي والفارسي منه إلى الدين الإسلامي، ورغم ذلك فهي تحتاج في عمقها إلى الطمأنينة. لم تفكر بهذا الأسلوب عندما طلبت من الساحر قتل زوجها، قوة ذاتية عنيفة أزاحت الأسئلة الأخلاقية بعيدًا، إنها قوة الغيرة الشيطانية العمياء كما تسميها هي، أو كما يطلق عليها زوجها المرحوم نفسه: كيدُ النساء، وقد وصفه الخالق عز وجل، في القرآن بأنه عظيم.

كان صوت مربيتها الهندية العجوز التي توحدت روحها بروح البراهما تقول لها: لا تفكري كثيرًا في الأمر، لا يرجو الإنسان عدلا من الكون، عليه أن يحقق العدل بنفسه، عليه أن يبحث عمّا يخصّه بنفسه، وعندما يجده، عليه أن يؤمن بما وجد، وأن يحقق إيمانه بالعمل دون تردد، فالحياة لا تنتظر.

أمّا من جانب سُندُس، فقد ظلت التجربة غريبة ومُدهشة، ولأول مرة يحس بأن شبح عضوه ليس وهمًا كاملًا، وبأنه يشعر بإحساس نادر وجديد تمامًا بالنسبة إليه، فجسد الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا، ليس دمية يقوم بغسلها واللعب بها وتدليلها وإطعامها وحراستها والتجول معها وامتلاكها، إنه جسد حي ودافئ ويختزن

متعًا غريبة، رائحة جسدها التي تنعشه كل صباح تنبع من روحها مباشرة. أهذا هو الحبُّ!

-هنا، نعم هنا، اقترب بأنفك أكثر.

في البدء كان مترددا، مثله مثل كل الخدام الأسرى، يخاف من ارتكاب الخطأ الذي ينتج عنه الضرب أو السجن إذا لم يكن الموت أيضًا. كان يقبض على نهديها إثر كل حمام بحذر شديد، وسيحاول تبرير ذلك، في حالة سوء الفهم من جانبها، بأنه يقوم بغسلهما كجزء من عملية الاستحمام التي يؤديها، أما أن يشم عضوا حساسًا في جسدها، ويعبث به بلسانه الذي لا يستطيع النطق... حسنا طالما كانت تطلب ذلك.

-أنا آمرك، آمرك أن تفعل ذلك، ألا تطيع سيدتك!

صار شبح عضوه يتحرك، وينتصب في الفراغ، مثل أنبوب من الهواء الساخن، كانت تقبله بين وقت وآخر من يديه ورأسه، تعبث بأظفَارها الطويلة في شعره وإبطيه، وتلعق بلسانها موضع عضوه المبتور، بالطبع هي لا يمكنها رؤية شبح العضو المثار بصورة كاملة. همست في أذنه، بأن جسده جميل ومشدود. قالت له:

-هل أعجبك؟ هل تحس بمتعة؟

تلتقط الإجابة من عينيه الشاسعتين اللتين أصبحتا أكثر اتساعًا، من الرعشات التي تسري في جسده وتنتقل إليها، ومن أنفاسه المتلاحقة، يهمّها كثيرًا أن يحس بالمتعة، أن يشاركها مغامرة الجسد، ويهمّها أيضًا أن تعرف أنه يستمتع فعلا، وأنه يرغب فيها بإرادته

ووعيه، أن يبادر هو أيضًا ولا يبقى سلبيًا محتكمًا إلى أفعالها وردود فعل جسده غير الإرادية، تريد أن تتخلص من الأسئلة الأخلاقية الصعبة:

-«لا أدري، هل أنا أستخدمه كملك خاصّ بي أم أنا أعشقه..؟ أيحس هو بأنه ليس سوى خادم يؤدي ما أمرته به، أم هو يفعل ذلك لأنّه ممتع ومتبادل»؟!

أما سُندُس، فصار يحس بأن الجسد الذي كان يتملكه بنفسه، كهبة من الطبيعة، أصبح الآن أكثر خصوصية، إنه يكتشف ما وراء الظاهر منه، ويعني روح النشوة، يعني تلك الرعشة السحرية التي تسري في جسده، حالة فقدان الوعي ونسيان العالم ومحو الذاكرة وإعادة إنتاج الأشياء والمعاني، إنه يحس أيضًا بحريته كأمر واقع وملموس، يحس بجانب من الحياة لا يدركه سوى من يتمتعون بإرادة الفعل كاملةً، وهو الامتلاك، إن المسألة أكبر مما يسمّونه ممارسة الجنس التي يهيم بها السادة: هل أنا أمارس الجنس فعليًا، أم هي نشوة التملّك والاستحواذ والاندماج في الآخر التي لا غرض لها أو حدود، فمنتهاها في بدايتها؟!

ها هو الربّ الذي وضعه في مركب النخاس، يسلمه مقودها، ويهبه ريحًا طيبة تعود به إلى شاطئ الحرية، راوده هذا الإحساس بعمق، وأخذت الدموع تجرى من عينيه وهو يرى القرويين يستقبلونهم بالأغنيات والأبواق والطبول الإفريقية فقد افتقد كلّ ذلك منذ طفولته التي اختطفها منه النخاسون، يعود إلى أرض لا ينقسم أهلها سادةً وخُدّامًا، إنهم بشر يحتفون بالحياة والعمل

من أجل كسب العيش، لا ينتظرون من يخدمهم لأنهم الأكثر قوة والأفضل خلقًا ومكانة، وهو الأدنى منزلة، يود لو يقبّلهمُ واحدًا واحدًا، ويقبّل الأشجار والتراب والطبول. ها هو يعود ومعه السيدة التي تخصه هو بالذات، يحمل قلبه معه وجسده، لا يدري ماذا يفعل هنا بالتحديد، ولكن طالما توجد أمطار وأرض وله يدان قويتان، فإنه سيفلح بستانه مثله مثل الآخرين؛ فالأرض التي أنجبته حتمًا ستطعمه.

تمسك الأميرة التي باركها الربّ مؤخّرًا بيده جيّدًا، وهي تحاول أن تلصق جسدها بجسده، تُريد أن تحس به قريبًا منها ومعها، تريد أن تشعر بأنها في حمايته، وبأنّه يخصها كما تخصه، تريد ذلك وهي تنظر مندهشةً إلى ما حولها، كل شيء جديد وغير معتاد وغريب ومُدهش، البشر الذين لا تعرف عنهم غير أنهم سحرة متوحّشون، وبعضهم آكلو لحوم البشر، ها هم يرقصون ويغنون ويشكرون الربّ الذي أعاد أبناءهم سالمين وغانمين، يحملون أسلحةً سيحررون بها بلادهم من النخاسين والمستعمرين الوافدين عليهم من خلف البحار التي أنشأها الربّ لحماية إفريقيا، ولكنه عندما استراح، تسلل عبرها اللصوص والنخاسون.

الروحُ الناقصةُ

الشكر الأوّل للرّبّ، لروح الأجداد، لبركة دعاء الأمّهات الطّيّبات، للسّحرة الّذين حصّنوا الشباب، وللمعلّمين الّذين درّبوهم على الحياة الحقيقيّة، حياة العمل والطّاعة والمعرفة، الشّكر للقائد الشجاع مَوَانَا وا إمْبُوا، وهو شابّ صغير في السّنّ، ولكنّ روح الجد الأكبر الّتي نزلت على جسده عمرها طويل مثل شجرة التبلدي، الشّكر للشّباب الشّجعان، وفي يوم ما يا أبنائي ستحكمون بلدكم، والغراب لا يترك عشّه لطائر السمبر؛ لأنه أكبر منه حجمًا، وأكثر سَوادًا، وأعلى صوتًا، وأطول منقارًا، ولكن يظلّ يهاجمه إلى أن يرحل، وما لم تكن منحنيًا فلن يستطيع أحد الصعود على ظهرك، وإذا أردت ضوء الشمس عليك أن تخرج من قطيتك، والآن نحن نريد ضوء الشّمس.

فوجئ جميع سكّان القرية عندما شاهدوا السيّدة الغريبة الّتي كانت صحبة الشبّان، وبدا لهم مظهر سُندُس النّاعم غيرَ مألوف، خاصّة أنّه مازال يحتفظ بحلقتي الذّهب المتدليّتين من أذنيه، وملابس الحرير الزاهية، وعمامة صغيرة يلفها على رأسه، ولكن من عادة القرويين عدم الاستعجال في الحكم على الأشياء وفق ما تبدو عليه في ظاهرها، فلكلّ شيء وقته. هم يؤمنون بالمثل القائل: «هراكا هينا براكا»، يفعلون كلّ شيء ببطء شديد، لا يتعجلون في أداء شؤون حياتهم، حتّى مشيهم على الأرض يكون بتمهّل. تقوم حكمتهم الأساسيّة على التروي وعدم الاستعجال.

تحدّث زعيم القرية وساحرها في خُطبة مرتجلة مشحونة بالأمثال:

«سبعون بندقيةً، وثلاثون كيسًا من الذّخيرة، هذا جيّد ومطلوب، وأداء موفّق للمهمّة، أبنائي، عندما أنجبت الحمارة قالت، الآن استراح ظهري.»

«كنتم قلّة، ولكن يقول المثل، يمكن لشخصين السّيطرة على ثور أو جاموس.»

«ويحدث ذلك بحسن التّدبّر والنّظام والشّجاعة والثّبات وحفظ الأسرار، فعندما ترتفع أصوات الطبل ارتفاعا شديدًا، توشك على الانفجار».

«الشّكر الأوّل للرّبّ، لروح الأجداد، لبركة دعاء الأمّهات الطّيّبات، للسّحرة الّذين حصّنوا الشباب، وللمعلّمين الّذين درّبوهم على الحياة الحقيقيّة، حياة العمل والطّاعة والمعرفة، الشّكر للقائد الشجاع مَوَانًا وا إمْبُوا، وهو شابّ صغير في السّنّ، ولكنّ روح الجد الأكبر الّتي نزلت على جسده عمرها طويل مثل شجرة التبلدي، الشّكر للشّباب الشّجعان، وفي يوم ما، يا أبنائي ستحكمون بلدكم، والغراب لا يترك عشّه لطائر السمبر؛ لأنه أكبر منه حجمًا، وأكثر سَوادًا، وأعلى صوتًا، وأطول منقارًا، ولكن يظلّ يهاجمه إلى أن يرحل، وما لم تكن منحنيًا فلن يستطيع أحد الصعود على ظهرك، وإذا أردت ضوء الشمس عليك أن تخرج من قطيتك، والآن نحن نريد ضوء الشّمس.

أبنائي.. الطريق أمامنا طويل، ولكن كلما طال الطريق، اكتسبنا معرفة بشعابه، وتعلمنا كيف نقاوم الجوع والعطش والخوف.

شكرًا للآباء الّذين أنجبوا أمثالكم، دعونا نمض إلى القرية، هنالك أمور تجب مناقشتها برويّة، فالعجلة تكسب النّدامة.»

غسلوا أقدام الفتيان بماء الملح الدافئ، دلكوا سيقانهم جيدًا بالزيت، انتزعوا ما عليها من أشواك السدر والعُشب المتوحش، أطعموهم جيدًا لحم الغزلان البرية والماعز، سقوهم ماءً ولبنًا وخمرًا، كانوا مرهقين، فناموا مبكرًا.

قُدِّمت للأميرة الّتي باركها الرّبّ مؤخّرًا غرفة من القشّ والبامبو ملحقة ببيت الزعيم لتنام فيها، في حين استضيف سُندُس في حجرة أخرى ملحقة أيضًا ببيت الزعيم، فهم لا يعرفون طبيعة العلاقة

بينهما، ولم يسألوا، فوقت السؤال لم يحن بعد. سؤال الضيف إهانة له وعلامة على عدم الترحيب به، سيتحدث بنفسه ويفصح عن هُويته عندما يستريح من وعثاء السفر ويطمئن للمكان، وعلى الضيف أيضًا ألاّ يطيل صمته، فإنّ ذلك يُفسّر من باب قِلّة الذوق وسوء الطوية، فالحكمة تتطلب التوازن، ما بين صبرِ المُضيف وصمتِ الضيف.

لم يكن هنالك خيار أمام الأميرة غير أن تحلم في نومها بقصرها والبحر وأبيها، أن تحلم بالنوارس على شرفتها، وأصوات السفن الّتي تأتي إليها من عمق المحيط، ولكن من المستغرب أن ترى في ذلك الحلم أيضًا مأتمًا غريبًا، يُقام على جنازة كبيرة، لإمرأة وُجدت ميّتة على ساحل البحر. كانت الجثة تتكلم باستمرار ودون توقّف، حتّى ووريت الثرى. وكما هو معتاد في مراسم الدفن بجزيرة أنغوجا كان الجميع رجالًا، وظلت النسور تحوم في السماء تنتظر أن يعود الرجال إلى بيوتهم لتلتهم الجثة الّتي خرجت من تلقاء نفسها للعراء مرة أخرى بعد دفنها، تخلصت الجثةُ من الأكفان البيضاء وعرضتْ نفسها للصّقور، وبينما كانت النّسور تلتهمها، لم تتوقف الجثةُ عن الثرثرة.

لم يحلم سُندُس بشيء، فهو لم ينم طوال الوقت. كان يفكر في شيء غريب حدّثه عنه أبوه ذات يوم، عندما استيقظ من غيبوبته ساعة خصيه في بيت السُّلطان، قال له:

«في يوم ما سيعود لك عضوك الذكري، إن الرّبّ يحتفظ به في مكان ما.»

هي الأسطورة الّتي يُطمئن بها المخصيون أنفسهم بأن وضع

فقدان الأعضاء الذكرية لا يدوم إلى الأبد، وقد نشأت هذه الأسطورة في ظل الهجوم العنيف على البشر في الجزيرة والبرّ الإفريقي أيضًا، لا يعلم أحدٌ من أوّل من أطلقها، ولو أن عمرها يفوق الألفي عام، وهو عمر ممارسة الخصي من قبل الغرباء تجاه المواطنين الأفارقة، ربما أطلقها تاجرُ رقيق ذو خيال خصب من أجل تقليل هلع المأسورين من الخصي، ثم انتقلت إلى التراث السحريّ عند المواطنين الأصليّين، وأضحت جزءًا من إيمانهم وعقائدهم الدينية، وصدّقها أيضًا الربّ الإفريقي، أو استجاب لها، فصارت إحدى الحقائق الّتي يجب الإيمان بها، أي أنّ الأعضاء التناسليّة الّتي يتمّ بترها، إنما تعود إلى الرب، وهو يحتفظ بها في كهفه من أجل أن يسلّمها لأصحابها إذا عادوا ذات يوم إلى موطنهم أحياء، وإذا ماتوا في المنافي البعيدة، فإنَّ أرواحهم تأتي لاستلام ما يخصّها من أعضاء، وذلك من أجل اكتمال الروح، لأن الجسد النّاقص يحتوي على روح ناقصة، إنهم يحتاجون إليها من أجل الحياة الأخرى، لكي يتم بعثهم من جديد بروح كاملة. كان يفكّر بعمق في مسألة عضوه، فهي لا تنفصل عن حُريته، وعن الأميرة الّتي باركها الرّبّ مؤخَّرًا. يريد أن يصبح حُرًّا بروح كاملة وجسدٍ كامل، لا بشبح عضو غريب وروح ناقصة: حُريتي تكمن في جسدي، في اكتمال جسدي.

لم يحسّ بالنُّعاس أو بالإرهاق، أو ربما هو لم يتعود النوم نهارًا، إنه اليوم الأول في حرّيته الّتي غادرها منذ طفولته، حرّيته الّتي لم يحسّ بأنها مكتملة، لا يدري بالتحديد لماذا لا يحس بالتّعب أو النُّعاس، لديه طاقة كامنة لا حدود لها، لقد ذهب جميع الشّبان إلى النوم باكرًا،

ونامت الأميرة دون شك، رغم وصولهم في وقت مبكّر والشمس مازالت في السماء، إذ أنهم وصلوا القرية في أوّل الصباح، وقضوا وقتًا طويلاً في احتفالات الترحيب والأكل والاستحمام وصلوات الشكر.

نهض من مرقده، خرج بهدوء شديد، ارتدى حذاءه العمانيّ المصنوع من جلود الثيران، لم يأت بملابس إضافية غير الّتي يرتديها، لم تكن شديدة الاتّساخ، ولم تكن نظيفة، تعلّم أن يهتم بأناقته ونظافة ملبسه، فخدمته الخاصة للأميرة الّتي باركها الربّ مؤخّرًا تحتّم عليه أن يصبح خادمًا ملكيًا أنيقًا. أزعجته بعض الأوساخ العالقة بجلبابه الحريري، لقد استحم مثله مثل الجميع، ونظّفت النّساء القرويّات قدميه بماء الملح، ودلّكنه بزيت النّخيل الدافئ، مثلما فعلن للآخرين. كان الجوّ دافئًا، ومازال القرويون يدقون الطبول ويرقصون، ليسوا بعيدين عن مسكنه، أغانيهم تطربه وتلهب الحنين في أعماقه، تذكّره بطفولته المبكرة، بقريته وبأسرته الممتدّة، تذكّره بوالده الّذي مازال أسيرا لدى السُّلطان الّذي باركه الرّبّ مؤخّرًا. انقبضت نفسه، خرج من القُطية في هدوء، بخطوات رشيقة مضى نحو تجمّع القرويّين، ووقف على مسافة منهم. أخذ يراقبهم باهتمام، تدور الأفكار في رأسه، يريد أن يقابل الزعيم ويحكي له قصته، يريد أن يقول كلّ شيء، الأفكار تجرحه، وتمزّق أحشاءه كالسكين.

لم ير الزعيم من بين الراقصين والمغنّين وضاربي الطبول، كانوا جميعا شبّانًا وشابات في مقتبل أعمارهم، يلبسون أردية من جلود الماعز الناعمة، تغطّي الأجزاء السفلى من أجسادهم المتعرّقة بفعل

حرارة الجوّ والرّقص، أمّا الأجزاء العليا من أجسادهم فهي عارية، ذكّره ذلك بالمغنّية أوهورو السّاحرة..

ذكّرته أوهورو بالسّوق..

ذكّره السّوق بالصّائغ الهنديّ العجوز ذي الظهر المنحني قليلًا على الذهب..

ذكّره الصائغ بخادمه الأسير المربوط على وتد الحديد، تلك الكتلة السّوداء المتّسخة من اللحم الآدميّ..

ذكّره ذلك بأبيه..

ذكّره أبوه بعضوه المبتور، ذلك الشبح الّذي يتحرّك الآن تحت جلباب الحرير المقلم..

ذكّره جسده بحرّيته الّتي تنام الآن في قُطية ليست بعيدة عنه..

ذكّرته الأميرة بروحه النّاقصة.

سأل شابًا صغيرًا عن موقع قُطِية الزعيم، دلّهُ عليها، ليست بعيدة عنه، وكان يستطيعُ أن يميزها إذا فكّر قليلًا وتمعّن في القطاطي الّتي قربه، فكان حجمها كبيرا، أكبر من القطيات الّتي تنتشر في المكان حولها، مطلية بالجير الأبيض، وعليها رسوم متقنة لزرافات وقرود وبعض المحاربين الّذين يلبسون أقنعة سحريّة، كانت جميلة ومتميّزة بصورة واضحة، يميزها أكثر قرنا ثور الجاموس الكبيران في قمّة الجزء المخروطي من القطية، بابها من خشب صلب منحوت عليه أيضًا بدقّة حربتان طويلتان، وهما رمزا القوة والسلطة، منذ طفولته يعرف أنها ما يميز بيوت الزعماء الكبار، وسحرة المجتمع وهم بقوّة

الزّعماء أيضًا، وغالبا ما تتوحد السلطة الروحية السحرية وسلطة الحكم في شخص واحد، كما هو الحال في قرية سيمبوزي.

ليس بعيدًا عن القطية تُوجد شجرة «تبلدي» عملاقة، ما يؤكّد أنّ بيت الزعيم ليس ببعيد عن هذا المكان، لأنهم يستخدمون ظلّها في قريته السّابقة مجلسًا للمشورة، ومحكمةً، ومكتبًا إداريا مفتوحا للزعيم. اتّجه نحو الشّجرة المباركة، تمعّن قليلا في شكلها الغريب، كان لكل شجرة منها نموّ مميز، يفسّره القرويّون بمرجعيّة سحريّة وتاريخيّة، فالـ«تبلدي» مخزن الأسرار والتاريخ والعلامات الروحيّة، كبار السنّ يحفظون تاريخ كل إشارة على ساق الشّجرة، ويسجّلون عليها أيضًا بالرّسم والخدش ما يريدون الاحتفاظ به من أحداث عظام؛ من كوارث وأفراح وأتراح وزيجات وميلاد وموت السلاطين، لم يستطع التعرف على معنى الكثير من الرّموز المسجّلة، فلكلّ مجتمع رموزه وطلاسمه السّحريّة، كما أن الإضاءة ليست جيدة لتمكّنه من إدراك التفاصيل الدقيقة.

واصل سيره إلى حيث قطية الزعيم، يعرف أنّه مستيقظ، لم يشكّ لحظة في أن الوقت ليس مناسبا للزيارة، فزيارة الزّعيم لا تحدّد بوقت، وهو دائما في انتظار من يزوره، فمهمّته هي الاستماع إلى الجميع في كل الأوقات، طالما لم يكن في سرير إحدى زوجاته، لأنّ الوقت حينها يخصّ الزّوجة لا الزّعيم، صاح قرب الباب الموارب بالتحية، فرد عليه سريعا صوت الزّعيم من الدّاخل بأن يدخل، نزع حذاءه، تخلّص من جلباب الحرير، من الحكمة والتواضع ألا تلبس الرّعية أحسن ممّا يلبس الزّعيم، انحنى أمام مجلس الزعيم، وجده جالسًا

على كرسي كبير من الخشب، في حجرة مضاءة بفانوس صغير يعمل بالزيت، وأمامه منضدة بها بعض الأطعمة على أوعية من الفخّار، خلف مجلس السلطان سريره الكبير المصنوع من الخشب وبعض الأعشاب، تفوح من الحجرة رائحة الرّطوبة والقرنفل مختلطة بالمانجو، يبدو أن الزعيم يحب المانجو، إذ لاحظ سُندُس أن بعض بذورها تملأ وعاءً من الفخّار يقبع قرب سرير الزعيم، جرّة كبيرة من الماء مغطّاة بصينيّة من المعدن، تحتها يرقد ثعبان متوسّط الحجم، يسمّونه محليّا بالنوامة أو ساكن، وتسمّيه بعض القبائل أتيم، وهو شبه مقدس؛ لأنه الرّبّ الحامل لحكمة: «إذا أيقظت الشر فإنه لن يدعك تنام»، لذا يتركونه نائمًا، ليس من الحكمة إيقاظه، لأنه إذا صحا فلا تحمد عقبى أنيابه وسمّه القاتل.

أشار إليه الزعيم بأن يجلس، فاختار مقعدًا من الخشب بعيدًا عن الثعبان النائم:

«جئت إليك من أجل غرض يخصني.»

رد الزعيم، وهو يحملق في عيني سُندُس محاولاً قراءة ما يود قوله:

«تفضّل يا بني!»

تردد سُندُس قليلا، قبل أن يقول له وهو يحسّ أنّ حنجرته جافّة:

«أريد أن أستعيد عضوي الذكري!»

عدّل الزعيم جلسته، احتسى قليلًا من الحساء الموضوع أمامه، ثم قال:

«عضوك عند الرّبّ كما تعلم.»

قال سُندُس، وقد أحس بالعطش، بينما كان شبحُ عضوِه يتحرك بصورة غريبة، وقد خاف أن يلاحظ الزعيم ذلك:

«أريد أن أستعيده من الرب.»

رد الزعيم بثقة:

«تستطيع أن تأخذه، ولو أن ذلك يحتاج منك رحلة شاقة إلى حيث يقيم الرب.»

ثم أضاف الزعيم فجأةً:

«اذهب لكي تستريح، ستتم مناقشته كل شيء في مجلس القبيلة.»

قال سُندُس:

«أعلم ذلك، ولكن أرجو ألا يتناول الناس موضوع عضوي في مجلس القبيلة، أريد أن تناقشني أنت فقط في ذلك.»

قال الزعيم:

«إنّ عضوك الآن مع الربّ، والربّ رب الجميع، وعلى المجلس أيضًا أن يقول كلمته، لا أستطيع أن أعدك بذلك، إذا كنت ترغب فعلا في استعادة عضوك، عليك قبول الطريقة الّتي يتمّ بها ذلك، ما المشكلة في مناقشة ذَكر شخص؟ لا عيب في ذلك.»

لم يقتنع بحُجّةِ جَعْلِ عضوه موضوعًا عامًّا، تحرك شبح العضو فظنّه سُندُس احتجاجًا، نهض سُندُس، استأذن في الانصراف، ولكن الزعيم لاحقه بسؤال:

«هل أنت مسلم أم مسيحي؟»

ردّ باقتضاب، وهو يتلمّس طريقه نحو الباب الموارب:

«لا أعرف.»

لاحقه الزّعيم بسؤال آخر:

«هل تعرف قبيلتك؟»

قال وقد توقف عند الباب فجأةً:

«كلاّ.»

قال له الزعيم:

-أرني ظهرك!

فجلس القرفصاء، معطيا ظهره للزعيم الّذي أخذ يتمعّن في علامات البلوغ الموسومة بالنار على ظهر سُندُس، لحظات قليلة، ثم طلب منه النهوض، وقال له:

-أنت من قبيلة سيمبوزي، عمرك خمسة وعشرون عامًا، ولكن أخشى أن قبيلتك اندثرت الآن، لقد تمّ أسر أفرادها كلّهم تقريبا، وما بقي منهم سوى عدد قليل هاجروا إلى ممبسا.

ما لم يقله له الزعيم، هو أن شعبه، كلّ شعبه قد أُصيب بالنّحس، وأنه يحمل بذرة النّحس، معه أينما حلَّ، وهو ما قد يؤثّر بصورة كبيرة في ما سيقرّره مجلس القرية بشأنه في المستقبل.

لم يستطع النوم، وعندما توقف إيقاع النقارة أيضًا لم ينم، عندما سمع عواء الضّباع الآتي من عمق الأدغال أحسّ بأنّ الحياة تمضي، وشعر بالأمل يتسرب إلى روحه الناقصة؛ فعواء الذّئاب يذكّره بطفولته في القرية، يذكّره بقلق أمّه ونهوضها الليليّ للتأكد من أنّ الأغنام في مأمن، وأنّ دجاجاتها في الأقفاص، وأنّ حمارهم أيضًا في

كوخه المبني من الخشب القويّ، وأنّ كلّ الأطفال نيام في أماكنهم المحدّدة، وأنّ زوجها قد آب من رحلة الصّيد الليليّة.

ظلّ مؤرّقا ولم ينم، فكّر في أن يذهب إلى حجرة الأميرة الّتي باركها الرّبّ مُؤخّرًا، يريد أن يستطلع حالها. في الحقيقة إنه يشتاق إليها، يشتاق إلى أنفاسها ودفء جسدها وملمسه النّاعم الطيّب، يشتاق إلى معرفة انطباعها ورأيها وإحساسها، ويشتهيها شبحُ عُضوه أيضًا. نهض من مرقده، تمشّى قليلاً في الحجرة المظلمة، لبس جلباب الحرير، كان باردًا وناعمًا جدًّا، ومازالت تفوح منه رائحة عطر هندي يستخدمه عادة وتحبّ الأميرة أن تشمه عليه، نزع حشرة صغيرة تحاول أن تتعشى ببعض دم من إبطه، قرّبها لعينيه ليتأكد من نوعها، ولكن الظلام منعه من ذلك إضافة إلى رائحة شديدة العفونة أطلقتها الحشرة دفاعًا عن نفسها وحقّها في دمه، رمى بها بعيدًا دون أن يسحقها بأصابعه.

اختفى القمر خلف الأفق، هبط الظلام على الأمكنة، وغطّاها بجلبابه الداكن، وبهدوئه الّذي لا يربكه سوى عواء الضّباع إذ تبحث عن غذائها، وصفير الريح إذ تعبر أغصان الأشجار، وهرهرة بعض الكلاب الخائفة المحفوظة في أكواخها، خوفا عليها من الضباع الّتي لا تتوانى عن التهامها. شاهد، وهو يخرج من حجرته، بعض الضوء يأتي من أمكنة متفرقة نتيجة لإشعال النار في بعض العشب الجاف والحطب، يعلم أن ذلك من أجل طرد الضباع والثعالب وبعض الزواحف مثل الثعابين الكبيرة، كان يعرف موقع قطيتها، ليست بعيدة، بل تقع خلفه مباشرة في حوش الزعيم الواسع. طرق

بابها بيد مرتعشة، سمع صوتها من الداخل وهي تصيح:

«سُندُس؟»

أجابها:

«نعم، سُندُس، افتحي الباب.»

كانت حجرتها مضاءة بفانوس صغير يعمل بالزيت، من نفس عيّنة فانوس الزعيم ولو أنه أصغر حجمًا، الغرفة دافئة أو ساخنة بعض الشيء، بفعل حرارة الطقس عمومًا، واستطاع أن يشاهد فراشها الصّغير الخالي تقريبًا من الوسائد، ولكنّ به قماشًا سميكًا من الكتّان أو القطن أو الجلد لم يستطع أن يتأكد من ذلك، هي عارية عدا قطعة قماش تلفّ بها عادةً ما دون وسطها، لا يُوجد مكان للجلوس غير مرقدها نفسه، جلس قربها، عرف أنها لم تنم هي أيضًا، ظلت خائفة من عواء الذئاب ونباح الكلاب، ولكنها تنتظر قدومه بين فينة وأخرى:

«لماذا أهملتني كل هذا الوقت؟ لماذا يا سُندُس؟»

«لم أهملك، كان عليّ أن أنتظر، بالإضافة إلى ذلك قابلت الزعيم.»

سألت في لهفة:

«عمّ تحدثتما؟ هل سيبيعونني رقيقًا؟»

قال وقد فاجأته بسؤالها:

«كلاّ، بالطبع، في الحقيقة، لم يكن حديثنا بشأنك، بل بشأني.»

قالت مندهشة:

«بشأنك أنت؟ ألست من هؤلاء القوم؟»

قال وهو يقترب منها:

«كلاً.. ولم نتحدث عن هذا أيضًا، ولكن عن أشياء أخرى.»

«هل لي أن أعرف تلك الأشياء الأخرى أم هي من الأسرار؟»

«بلى، سأقول لك.»

صمتا برهة من الزمن، كانت قصيرةً جدًّا بحساباته، وطويلة جدًّا بالنسبة إليها، جذب نفسًا عميقًا طويلاً، وقال:

«عنّي، كان الحديث».

«نعم عنك، ماذا عنك؟»

قال، وهو يبعد أناملها الّتي أخذت تعبث بشعره:

«عن شيء يخصني.»

قالت وهي تلتصق به أكثر وتحاول تقبيله:

«قل لي.. أرجوك! أنا خائفة، هل سيؤذونك؟»

قال بسرعة:

«عن ذَكري.»

صمتت قليلا ثم قالت:

«آسفة جدًّا يا سُندُس، اغفر لي أرجوك، إنّ أهلي متوحّشون، اغفر لي، أنت لا تحتاج إليه معي، أنا لا أحتاج إليه أيضًا، اغفر لي، أنا لك دونه، إنك تمتعني، ألا تستمتع معي؟ اغفر لي.»

بقيا في صمتٍ مشوب بالتوتّر لزمن يعسر قياسه، وضعت رأسها في حجره، بلّلته بدموع ساخنة، أمسكت أصابع يديه بكلتا كفّيها،

ألصقت لسانها بسرّته وعبثت بها، عضّته مرارًا وتكرارًا في بطنه، ثمّ نهضت فجأةً، ألقته على الفراش، وأخذت تقبّله بجنون، أطلقت نصفها الأسفل من ستره، أطلقت جسد سُندُس عاريًا، كان طيّعًا وليّنًا وساخنًا، تحركه كما شاءت، تلقي به يمينًا ويسارًا، أمّا هو فقد أعطاها نفسه بصورة نهائيّة، أحبّ ما تفعله به، أرادها أن تلتهمه، أن تقضي عليه، أن تنهي تلك الحياة الناقصة الّتي يعيشها، أن تفعل ذلك بالاستمتاع الّذي يحسه الآن، أن تقضي عليه بشهوانيتها، أن تبتلعه كما يبتلع التمساح فريسته.

ظلّ تفكيره مشوشًا جدًّا، ما بين أن يترك نفسه للمتعة، وبين ما سيؤول إليه الحال في استعادة ذكره، أصبح الأمر ملحًّا جدًّا عنده في الآونة الأخيرة، وأصبح مصدر قلقه الأساسيّ. كان يرغب في أن يفعل بالأميرة ما يفعله الرجال بالنساء، أن يفعل بها ما كان يفعله زوجها التّافه الّذي لم يحبّه يوما، صورة ذكر زوجها المنتصب المبتلّ بسوائلها تثير فيه الغيرة والغثيان، والحسد في آن معا، صورة عالقة بذهنه، «سأستعيد ذكَري من كهوف الرب، وسأجعل الأميرة تتذوّقه كما ينبغي، سيكون كبيرًا وطويلاً ومنتصبًا بصورة دائمة، سيبتل بسوائلها، حينها سأصبح شخصًا كامل الحرية.»

أما الأميرة، في تلك اللحظات، فكانت تهتم فعلاً بما هو أمامها، تمتّع جسدها بصورة عميقة وتامة، لم تفكر في غير لحظتها الآنية الحاضرة، وهي مستقرة في جنون الجسد، يشغلها الشبق عن كل ما سواه، في ذلك الجسد القوي الناعم الذكوري المستسلم لها طواعية، وهذا ما كانت تفتقده في زوجها المرحوم، إذ كان يفسد

لحظاتها بذكورته الطاغية، بسيطرته على جسدها، بحرمانها من المبادرة وإحساسها بضعفها وحاجته إليها، يعجبها الجانب الأنثوي في سُندُس، جانب الاستسلام الكامل، إنه يوقظ فيها ذكورة منسية ونائمة في كهف أنوثتها، حلمها بأن تصبح رجلاً يحكم سلطنة الجدود، ويحقق رغبة والدها في الميراث المستدام، رجلاً يسيطر على أجساد النساء، ويُعجب -حسب نظرية والدها- بأردافهن الكبيرة، فمن فضائل الرجال ورذائلهم إعجابهم بالمؤخرات المتميزة، تُريد أن تكون رجلاً وامرأةً أيضًا، بحرًا وبرًّا.

عندما أخذت تمتص بقايا ما نسيه الجرّاح الوحشي من عضوه المبتور، وتعبث بأناملها في كُرتيه المتضخّمتين اللّتين أهملهما الجرّاح الوحشيّ، مكتفيًا بقطع العضو الذَّكَريّ، بالطّبع لم يفعل ذلك مع الأب، فقد جرّد الأب من ذكره وخصيتيه بصورة تامة، انتبه سُندُس أنّ هنالك شيئًا يحدث، شيئًا مختلفًا بعض الشيء، وأن شبحَ عُضوه به إحساس لذيذ، وما هي إلا لحظات حتى أطلق جسده سائلا انتظرته الأميرة طويلا، تلقفته بلسانها وهي في شبه إغماءة من لذة الاكتفاء.

استيقظا على طرقات الباب عند الصباح الباكر، ولكنّ الطارق لم ينتظر أن يفتح له، أدخل رأسه واندفعت معه حزمة كبيرة من ضوء الشمس، ليرى بوضوح العاشقين عاريين نائمين في عناق على السرير الخشبي الصغير. كانت الطارقة إحدى نساء الزّعيم، تحمل أوعية شاي الصباح، ومعه بعض الأوقال واللبن، وهو الإفطار اليومي للقرويين في هذه النواحي، لم تُبدِ دهشةً كبيرة، وسيعلم هو في المستقبل أنها لم تجده في غرفته عندما حملت إليه الإفطار، وسيعلم

أيضًا أنّ كلّ من في القرية عرف بتسلّله ليلاً إلى غرفة الأميرة الّتي باركها الرّبّ مؤخّرًا، هم لا يدرون السّبب الّذي يدفع رجلا مخصيًا إلى المبيت مع فتاة، ولكنّ الرّبّ وحده يستطيع تفسير ذلك، وقد يكون ما حدث من تدبيره أيضًا. «على كلّ.. ليس الموضوع من شؤوني، مجلس القرية سيتناول ذلك فيما بعد: صباحكم خير.»

نهضا مذعورين، صارعا للحظات أشعّة ضوء الشمس القوية وهي تندفع نحو عيونهما عبر باب القُطية الّذي فتحته المرأة، قاوما الخوف والمفاجأة وهما يشاهدان امرأة تتسلّل إلى الحجرة، ولا يدريان من هي، ولا كيف يكون ردّ فعلها، لبسا في عُجالة، أخذت الأميرة الشّاي واللّبن والأوقال من يدي السيّدة الممدودتين، بينما مقلتاها تحملقان في سُندُس، تبحثان فيما بين فخذيه، تفتشان السرّ المتحدث عنه بكلّ لسان في القرية. «على كل.. ليس الموضوع من شؤوني، مجلس القرية سيتناول ذلك فيما بعد: أفطرا بسلام، هل تحبّان الأوقال؟»

«شكرًا ماما، نعم أنا وسُندُس نحب الأوقال، واللبن أيضًا.»

يبدو واضحا على زوجة الزّعيم أنها كبيرة في العمر، من طريقة لبسها، وصدرها العاري ذي النّهدين المسترخيين اللّذين أهلكا بإرضاع الأطفال، وهي نحيفة أيضًا، ذات شعر خطّه الشيب، في وجهها جمال لا يمكن أن تخطئه عين، جمال قديم يعلن عن نفسه، وربما يبقى معها إلى أن تذهب إلى القبر. إنها من عيّنة البشر الّذين يحتفظون بملامح وجوههم الّتي تَكوَّنت بعد المراهقة، أي في سنوات نضجهم الجسديّ، حسدتها الأميرة في سرّها على ذلك الجمال القابع تحت تاج من الشّعر الأبيض، وتمرّ عليه فصول السنوات الطويلة ولا

تعصف به رياح الخراب، وكانت تعرف أيضًا أنه من النادر أن تصيب التجاعيد وجوه الإفريقيات السوداوات المحمّصة جيّدًا بالشمس، خاصة إذا احتفظن بأسنانهن، إذ تقوم بعض القبائل بنزع القليل من الأسنان ظنًّا منها أن ذلك يكسب الفتيات والفتيان جمالًا، ولكنه يؤثر في هيكل بنية الوجه لاحقًا. كانت أسنانها كاملة، وبيضاء لامعة، وفي فتحة أنفها اليمنى حلقةٌ صغيرةٌ من عظمةِ حيوان ما، جمال وجهها يظهرها طيّبة جدًّا، بل ربما ساذجة بعض الشيء، وهذا صحيح إلى درجة كبيرة، فهي كالطفلة في تلقائيتها، ولكن لا يمكن وصفها بالسذاجة. إنها امرأة حكيمة جدًّا، كما ينبغي لأيّ عجوز عرفت الحياة، عركتها، وخبرتها وتعلمت منها وتركت بصمتها على الأقل في شكل بشر، فقد أنجبت للزعيم 14 طفلاً وطفلةً، الآن هم رجال ونساء ولهم أبناء وبنات، نشؤوا بين يديها، وتحت بصرها ولغتها ولبنها وعرقها وما طبخته أناملها، ورؤوسهم مشحونة بالحكايات والقصص الّتي ابتكرتها من أجلهم، ونقلت لهم ما توارثت منها أيضًا، فالحكايات هي مدرسة الحياة الطّبيعيّة في القرية، إنها المدرسة الأمّ، ومن خلالها تنتقل القيم والأخلاق والمعرفة من جيل إلى جيل، والحكي هو المكون الفعلي للعقل، فيكفي أنها امرأة تجيد فنّ الحكي حتّى لا تُوصف بالسّذاجة.

ومن نفس نافذة الحكي ذاتها، وما دامت هي الشّخص الوحيد الّذي شاهد الضّيفين الغريبين ينامان على مرقد واحد عاريين، فهي المصدر الوحيد والأساسي الّذي نُقلت عنه الحكاية من لسان إلى لسان إلى لسان، هذا لا ينتقص من حكمتها أو رجاحة عقلها وطيب

نواياها، فأن يحكي شخص ما، ما شاهده بصدق، ليس عيبًا ولا محرّمًا أو ممنوعًا، طالما لم يزد في ما شاهد سوى القليل من الكذبات من أجل الإخراج الفنيّ للحكاية، على كلٍّ، ما أضافته لم يكن سوى كذبة مستديرة ملساء لا تأثير لها في ما حدث بالفعل، ويمكن تجاوز تلك الكذبة -كما هو معتاد- اجتماعيًا، فهي لم تزد شيئًا يخلّ بمصداقية الحدث أو يُربكها، فقط أكّدت بصورة قاطعة في سردها للحادثة، أنّها لم ينتبها لدخولها في القُطية نتيجة لاندماجهما في ما سمّته الزنا، وأنّها ظلت واقفة عند الباب لفترة طويلة مُندهشة ممّا ترى غير مصدّقة عينيها، إلى أن كادت آنية الطعام تسقط من بين يديها، ويندلق اللّبن على الأرض، وحينها ستحدث الكارثة لأن انسكاب اللّبن على الأرض يجلب اللّعنة: هذا العالم مملوء بالغرائب، «أنا فقدت إيماني بأنّ هنالك ما يمكن تسميته بالخصي، أدركني سريعًا برعايتك يا جدّي الكبير الّذي لا يجب ذكر اسمه في مثل هذه الأوقات!!»

قالت الأميرة الّتي باركها الرّبّ مؤخّرًا لمُندُس، بعدما غادرت السيدة وهي تدعو لهما بإفطار مبارك وطيب:

«لقد أخطأنا، ترى ماذا يقول الناس عنّا؟ ربما ارتكبنا خطأً جسيمًا، ألا تظن ذلك؟ ما فعلناه ليس مريحًا، على الأقل لدى هذه المرأة؟»

قال بصوت مخنوق:

«لا أدري، سنرى.»

قالت:

«أحسّ بانقباض في قلبي، وليست لي رغبة في الطعام.»

قال لها مطمئنًا:

«لا يمكن أن يحدث هنا، في هذه القرى، أسوأ ممّا شهدته بأمّ عيني في مدينة أنغوجا، لا تخافي، دعينا نتفاءل وننتظر ما يحدث.»

قالت له وهي خائفة:

«خذ الإفطار واذهب به إلى حجرتك، لا.. لا تتركني وحدي، ابق هنا، ولكن اجلس هناك بعيدًا عنّي، إنّني خائفة، لقد أخطأتَ بأخذي إلى هنا، وأنا أيضًا أخطأت حين تساهلت معك، فقط لأنني كنت أريد أن أبقى إلى جانبك، لا أريدك أن تذهب مع الثّوار وتتركني وحدي في أنغوجا، كانت فرصةً جيّدةً لي لكي أخرج من حياة الملل والرّتابة اليوميّة في القصر، لقد أردت المغامرة، يبدو أن روح أمّي المغامرة قد تلبّستني، أنا خائفة الآن.»

أمسكت به، وضعت رأسها على صدره وأجهشت بالبكاء.

لأوّل مرة يراها تبكي، وكان هذا الأمر مُستغربًا جدًّا وغريبًا عنه. ما كان يظنّها تستطيع البكاء، لقد ظلّت دائما قويّة وصلدة ومتماسكة، في كلّ اللّحظات الّتي شاهدها فيها، حتى في طفولتها المبكّرة، وعندما تصرخ وهي غاضبة، مثلها مثل كل الأطفال، كانت تصرخ بقوة وبثقة في النفس، بل بكامل جبروتها، لم يحسّ بضعفها أبدًا، ولو أنه كثيرًا ما يشعر بخوفها وقلقها، ولكنه لم يشعر بها يشعر به الآن، لم ير أدمعها حتّى في اليوم الّذي خُطفت فيه، اليوم أحسّ أنّها في كامل الضّعف والبؤس، وهو ما أدخل الرُّعب في نفسه. ربما كانت مَثَلُهُ الأعلى في الصبر والتحمّل والمَكر أيضًا، ولا ينسى كيف كانت تخطّط

لقتل زوجها في صبر ورباطة جأش، وعندما أغمي عليها لحظة سماعها خبر موته، لم ير دموعها أيضًا، «هل كانت تبكي بالفعل في ذلك الحين؟ حسنًا إنّ الأمر يبدو مختلفًا.»

«ما يخيفك؟ ألأنهم عَرفوا أننا نمنا هنا في هذه الحجرة معًا؟»

قالت وهي تنظر إليه، في عينيه مباشرة:

«كلاّ.»

قال مندهشا:

«إذن لماذا؟»

قالت له، وما تزال الدّموع تقطر من عينيها:

«المرأة!»

«ما بها المرأة؟»

قالت:

«كانت المرأة تنظر إليَّ بكراهية شديدة، أنا أعرف النّساء، عيونها تقول شيئًا عجيبًا، فمن الأحسن ألاّ نأكل هذا الطعام، أخاف أن يكون مسمومًا، قال لي أبي من قبل إنّ النّساء الإفريقيات إذا كرهن شخصًا سمّمنه، أو وضعن له السّحر في الطّعام أو الشّراب، لذا كان يخاف من محظيّاته السّوداوات، لا أدري صحّة موضوع السمّ والسّحر، ولكنّ أبي كان يخاف بالفعل منهنّ، يقول: إنّهن يتحوّلن إلى ساحرات وشريرات مع التقدم في السن، جميعهن دون استثناء.»

أخذ قطعة كبيرة من الأوقال، خلطها باللبن جيّدا بأصابعه، ثم

ابتلعها أمامها، وبعدها شرب بعضًا من اللبن مرّة أخرى، قال لها ضاحكًا:

«إذا متُّ مسمومًا فعليك تجنّب الطعام هنا.»

مسحت أدمعها، جلست القرفصاء على الأرض، وضعت الطّعام أمامها، غسلت يديها بماء من الوعاء، رتّلت بصوت مسموع باللغة العربيّة، «بسم الله الرّحمن الرّحيم»، ثم أخذت تخلط الأوقال باللّبن بأنامل يدها اليمنى، وتبتلعه متردّدة في البداية، ثمّ التهمته بشهيّة كبيرة، كانت جائعة جدًّا، وطغى جوعها على مخاوفها، كما يفعل الجُوع دائمًا، قالت له والطّعام في فمها:

«سنُسْحر معا أو نُسمم معًا، إذا لم نمت بالسّمّ أو بالسّحر فقد يقتلنا السّكّان أيضًا.»

كان يشاركها الطّعام في صمت، يفكّر في محنته المركزيّة، في اكتمال روحه النّاقصة، في حياته بعد أن يعاد إليه الجزء المنزوع من جسده، سيُصبح رجلاً حُرًّا بالفعل، مثله مثل كلّ البشر من حوله، وعندما يموت في يوم من الأيّام، فإنّه سينعم بحياة كاملة في العالم الآخر، ولو أنّ ذلك لا يشغله كثيرًا، فهو يعلم أنّ روحه ستستردّ اكتمالها من الرّبّ حين يتوفّاها.

غسل مواعين الطّعام، وضعها جانبًا، جلس كلّ منهما بعيدًا عن الآخر، فتحا الباب الموارب بصورة كليّة، كي يتمكّن كلّ من يمرّ أمام الباب مِن رؤية ما بالداخل ومَنْ بِهِ، يستطيعان أن يسمعا جلبة الحياة في الخارج؛ أصوات الأطفال والدّيوك، نهيق الحمير، ونداء الكبار، نُباح الكلاب، أصوات عصافير على شجرة قُرب الحجرة.

سألته وعلى فمها ابتسامة قلقة:

«أين يمكنني أن أتبوّل؟»

لوى شفتيه بما يعني «أنا أيضًا لا أدري»، تحاورا في عدة موضوعات لا علاقة لها بالمراحيض، ثمَّ خرجا، كانا يشعران بأنّهما متسخان، فقد اعتادا على تغيير ملابسهما مرارًا وتكرارًا خلال اليوم، والاستحمام والتطيّب، واعتادت هي على أن يكون شعرها مصفّفًا بصورة جيّدة، وأن يكون جسدها مغسولًا بماء الورد، وبشرتها مجليّة بزيت الصّندل، وأن تبدأ يومها بمناجاة النّوارس والمحيط الشاسع الممتدّ تحت شرفة قصرها المنيف إلى ما لا تدري من نهاية، وتحبّ الأميرة الّتي باركها مؤخّرًا، في لحظات حزنها أو فرحتها أن تصلي ركعات لله، ولكنّ هذا أيضًا صعب اليوم، فهي تحتاج إلى الاغتسال من الجنابة، «هل أحتاج فعلاً لأن أغتسل من الجنابة؟ أيّ جنابة؟ حسنًا، الأهمّ الآن هو المرحاض، وإلاّ تبوّلتُ على نفسي.»

«سُندُس، سأذهب إلى بيت إحدى زوجات الزّعيم، وأستأذنها في دخول مرحاضها، هل تعتقد أنّ لديهم مراحيض، أم يتبرّزون في العراء؟»

«لديهم مراحيض، ولكن ليس كما لديك في القصر بالطّبع، ولكنّها تفي بالحاجة، اذهبي لتري، وعندما تعودين سأذهب أنا أيضًا، كما يمكنني أن أتوغّل قليلا في الغابة وأتبرّز هنالك، لا تُوجد مشكلة فكلّ الحيوانات تتبرّز في الغابة. كنّا ونحن صغار نفعل ذلك في قريتنا، حيث لا يذهب إلى المرحاض إلا كبار السنّ.»

راقت له فكرة التّبرّز في العراء، تناول إبريقا من الفخّار مملوءًا بالماء يُستخدم للغُسل، بينما مضت الأميرة نحو بيت إحدى زوجات الزّعيم، كان يتقدم هو نحو العُشب الكثيف المحيط بالمكان، وخلف أجمة تيقّن أنها ستخفيه عن أعين سُكّان القرية الّتي يحسُّ بها تلاحقه، جلس مرتبكًا، بعد أن تفحص المكان حوله خوفًا من وجود الثعابين السامّة أو العقارب، كان يراقب القرية من مجلسه ذلك من بين الأعشاب، لم يكن هنالك الكثيرون، أغلبهم ذهب إلى العمل في المزارع أو الصيد، وبعضهم ممّن يشتغل بالتّجارة، كثيرو السفر قد تنقّلوا بحاجيّاتهم إلى الأسواق المجاورة من أجل المقايضة أو البيع والشّراء، ويحدث ذلك عادة في الصباح الباكر، ولا يبقى في القرية إلاّ بعض المرضى والعجزة والنساء الحوامل في أيّامهن الأخيرة، أو من ليس لهم عمل يقومون به خارج القرية، فإنّهم في مثل هذا الوقت يقومون بعمل ما في منازلهم، لذا لم ير من مخبئه هذا غير قلة تتسكع في الطرقات، كلٌّ له شأنه، لا أحد ينظر في اتجاه مخبئه، أو يقترب من قُطيته أو سكن الأميرة، فاطمأن وأخذ في قضاء حاجته، بينما انتقل تفكيره فجأةً إلى والده بأنغوجا، «ماذا يكون قد جرى له مع السلطان والد الأميرة؟ هل سيؤذيه لأنّني أخذت الأميرة معي؟ لا لا، هذا شيء مختلف، لا أظن أنّ السلطان سيكون بهذه القسوة، بل قد يكون أكثر قسوة.. نعم، لم أر في حياتي من هو أكثر قسوة منه.» وخطرت في ذهنه تلك الحادثة الّتي لم ينسها، يوم تمّ بتر عضوه في حضور السلطان نفسه، ومازال يرى طيف وجه السلطان الضاحك وهو يحملق فيه عندما كان هو يصرخ مستعطفا الحضور بألاّ يتمّ بتره، كان وجه

السلطان الضّاحك يصفه بالجبن ويطلب منه الصبر، «أيها المُتوحش الصغير»، ثم يقهقه في رعب، ولكن من جانب آخر هل سيكون أبي سعيدًا بهروبي، أم سيتبع ما قاله لي من قبل بأنّ الرّسول العربيّ ينهى المُستَعْبَدين عن الخروج عن طاعة سادتهم أو يأبقون، وإذا فعلوا فإنّ مصيرهم الجحيم يوم القيامة، يعرف أنّه قد تمّ فرض التّديّن على أبيه كما فُرض عليه، فهما مملوكان ومن حقّ السّادة أن يصنعوا بهما ما يشاؤون، وهذه فكرة مُطَيِّع الأسرى أو مُؤدِّبهم، وهو مخلوق عنيف ثرثار عليه إدخال الأسرى في الإسلام أوّلاً، ثمّ تلقينهم ما يحفظه هو من الدين الإسلامي، وهو عبارة عن قلّة من الأحاديث ومقولات ينسبها إلى الرّسول العربيّ تخدمه في السّيطرة الرّوحيّة على الأسرى، أو ما يُسمّيهم العبيد، بتخويفهم ممّا ينتظرهم يوم القيامة إذا لم يكونوا طائعين، أو إذا أَبقوا. إنّه أسوأ بكثير ممّا يصيبهم في الحياة الدنيا هنا في أنغوجا أو وراء المحيط، إنّه الجحيم وما أدراكم ما الجحيم!! كما أنّ من واجبه إيقاع العقوبات الجسدية على من أبق هنا في الدنيا، بالطبع لا يمكنه أن يترك الكافرين منهم حتى يحصلوا على ما يستحقونه من عقاب بعد موتهم.

وبينما كان سُندُس يُخرج فضلات جسده، تدور الموضوعات والأشياء في رأسه؛ القرويون، السلطان، أبوه، جحيم يوم القيامة، نَهيق المُؤدِّب الشرس، أَسرى يُشوون، وبعضهم يأبقون، أطفال يُخصون، بشر يُحشرون في سفن ضخمة تمخر بهم نحو المجهول، صليل أجراس النّخاسة، سلاطين يضحكون في استمتاع، بينما تطلق ألسنتهم الشّتائم وتوبّخ في عُنف أسرى بائسين تُجرى لهم عمليات

خَصي، غزوات لقرى إفريقية يقودها شبح تيبو تيب الرّهيب، إنجليز وفرنسيون، سيّاح في مهام جواسيس، سحرة وثوار وإله إفريقيّ يحرسُ كهفًا مملوءًا بالأعضاء البشريّة... ويظلّ سُندُس في توهانه إلى أن يشعر بشيء شديد الصلابة ينطحه بقوة في مؤخرته، ويلقي به على الأرض مُنكفئًا على وجهه لاطمًا رأسه بالتربة الصلدة وأعشابها الجافة، أحسّ بدوار فجائيّ وتشوّش في الرؤية وخوف رهيب يسيطر عليه تماما، استطاع بعد لحظات قليلة النّهوض على رجليه، على الرغم من الآلام المُبرحة الّتي يحسّ بها في ظهره، ليرى الشيء الّذي دفعه. شاهد خنزيرًا بريًا كبيرًا من النُوع المُستأنس الّذي يربيه المواطنون في المنازل. كان يلتهم فضلات سُندُس باستمتاع ويُصدر صوتًا تحذيريًا أقرب إلى الشّخير.

مجلسُ القريـة الاستشاري

قاطعه البعضُ بضحكات شبه مكتومة، أحسّ سُندُس بأنّ الرّجل قد يعنيه هو أيضًا، فسُندُس ناقص الرّوح ومنزوع الذّكر، مخصيّ، وعبد سابق، وأسير طائع، وفرد من قبيلة ملعونة: «أنا كلّ شيء سيّئ، وكلّ شيء قبيح، كلّ شيء يُخاف منه، وهذا حظّي في الحياة؛ مخصيٌّ لعينٌ ناقص الرّوح في عُرف قومي الأفارقة، وآبقٌ كافرٌ سأدخلُ الجحيم في عُرف المسلمين بأنغوجا، لعنتي عليّ!!»

-أمِنْ ندرة النساء هنا في القرية حتى تجلبوا امرأة عربية من أنغوجا؟

كان هذا أصعب سؤال يُوَاجِه به الزعيم مجموعة المحاربين الّذين دعاهم لحضور انعقاد مجلس القرية، والتحاور معهم في شأن عبورهم الأخير إلى أنغوجا، وفي خصوص سُندُس والأميرة، ابنة سلطان أنغوجا. لم يجب أحد على سؤاله. كان عليهم انتظار الزعيم حتى يفرغ نهائيًّا من كلامه، وأن يعلّق الرّجال المتزوّجون الأكبر سنًّا فالأكبرُ بالتناوب، ثمّ الشباب المتزوّجون، أمّا غير المتزوجين ففي غالب الأحيان ليس لديهم رأي يبدونه، إلاّ إذا طُلب من بعضهم ذلك، فهم لم يبلغوا بعدُ النضج الكافي اجتماعيًّا، حتّى لو كان السّؤال المطروح مركزيًّا ويحتاج إلى إجابة عاجلة، أو كان مجتمعهم في حالة طوارئ، أو أصابتهم كارثة، فغير المتزوّج لا رأي له، ولا حكمة لديه، لذلك لا أحد يحترمه، حتّى والده.

أضاف شيخ له فم خال من الأسنان:

-من أغرب ما يفعله هذا الجيل هو العبث بالقيم والأخلاق، لم أعرف طوال حياتي الّتي تمتد قرابة الثمانين فصلا مطيرا أنّ رجلاً كريمًا نبيلاً من قومنا قد أَخَذَ امرأةً من أسرتها عنوة، وهرب بها أينما شاء وكيفما شاء، دون زواج، ودفع المَهر

المستحقّ لأسرتها..

«هذه أخلاق النخّاسة الّذين أتى بهم المحيط من اليابسة البعيدة، يابسة الجنّ..

النخاسة الّذين خلقهم الشّيطان بنفسه، ولا ربّ لهم..

يستخدمهم خالقهم الشّيطان في محاربة الأرباب الأفارقة الحقيقيّين، أبنائي، ماذا دهاكم، هل تلبّستكم روح الجنّ الّذي أتى به أبناء الشيطان؟

أريد أن أفهم، كيف تأخذون امرأة من أهلها عنوةً؟

كنت دائما أصلّي لربّي ألاّ يجعلني أنتظر مثل هذا اليوم، لأنّ اللّعنة الّتي نخافها جميعا ستحلّ بنا الآن، هل أنتم مستعدّون؟ اللّعنة الّتي أصابت قبيلة سيمبوزي، ومسحتهم من هنا، وألقت بهم على شاطئ البحر في مُبسا، بلد الغرائب واللّعنات.

ربّي..

لا تُسكنّي مُبسا..

ولا تُلقي بأحفادي فيها..

لأنّ نهاية الكون ستبدأ من مُبسا، بألف مَوْسِمِ مطيرٍ كاملٍ..

كما بدأت الخليقةُ منها بألف موسم مطيرٍ، قبل أن تنتشر في بقيّة الكون.»

ثمّ صمت، ليبدأ الكلام بعده مباشرة من يصغره عُمرًا، ويبدو ممّا يلبسه وما يتقلده من زينة أنّه صيّاد، قال بصوت جهوريّ:

«إنّني أشمّ رائحة الحرب، ماذا ينتظر النّاس من أبيها السّلطان

الشرس؟ هل سيسكت على خطف ابنته الوحيدة؟ صحيح أنّه سبى آلاف الأفارقة، ومحا قبائل بأكملها من الوجود، ولكنّه لن يتهاون في ردّ ابنته ولن يغفر سبيها، قد لا يهتمّ للسّلاح الّذي أخذه المحاربون الشجعان من مخزنه، أو لا ينشغل بشأن الذخائر المفقودة، فهذان سببان غير كافيين ليقدم على الحرب، أما أن تسبى ابنته الوحيدة، فالأمر جائز. فهل نحن مستعدّون للحرب، هل لدينا مقدرة على مواجهة جيوش سلطان أنغوجا أو جيوش الشبح تيبو تيب؟ ولماذا نحارب إذا كنّا سنفقد شبابنا في معارك لا تعنينا؟ فهذه المرأة لا تنتمي إلى قبيلتنا، ولا أنت تنتمي إلينا أيها الشاب، فأنت ممّا تبقّى من قبيلة سيمبوزي، فكيف تطلبون أن تضحّي القبيلة من أجلكما؟ بل لماذا تريد أنت أو غيرك من المحاربين الاحتفاظ بهذه السيدة العربية هنا؟ ولدينا في القرية نساء كثيرات، جميلات وغير متزوجات، ما نفع الإتيان بأخرى منزوعة البظر، ناقصة الروح مثلها مثل كلّ نساء أنغوجا المخصيّات اللواتي تجلبن اللعنة وسوء الطّالع؟»

قاطعه البعضُ بضحكات شبه مكتومة، أحسّ سُندُس بأنّ الرجل، يقصده هو أيضًا، فسُندُس، ناقص الروح ومنزوع الذّكَر، مخصيّ، وعبد سابق، وأسير طائع، وفرد من قبيلة ملعونة: «أنا كلّ شيء سيّئ، وكلّ شيء قبيح، كلّ شيء يُخاف منه، وهذا حظّي في الحياة؛ مخصيٌّ لعينٌ ناقص الروح في عُرف قومي الأفارقة، وآبقٌ كافرٌ سأدخلُ الجحيم في عُرف المسلمين بأنغوجا، لعنتي عليّ!!!»

تكلم المتزوجون، ثم غير المتزوجين ممّن أذن لهم الزعيم، ثم غير

المتزوجين ممّن طلبوا فرصة للكلام، تحدثت النساء العجائز الطاعنات في السن، تحدثت ساحرة المدينة ومغنيتها، ومن ثم طُلب من سُندُس أن يعقّب ويجيب عن الأسئلة وهي: لماذا أخذت امرأة دون دفع مهرٍ لأسرتها؟ وماذا تنوي أن تفعل بها وأنت لا تنجب؟!

فجأةً ودون استئذان، نهض المحارب الّذي يسمّونه «ابن الكلبة mwana wa bitch» وقال، بعد أن اعتذر لأخذ فرصة للحديث بهذه الطريقة غير المقبولة اجتماعيّا:

«هل تعلمون عدد اللاّتي سباهنّ السلطان؟

هل تعلمون عدد النساء اللاتي اغتصبهنّ والد هذه الفتاة؟

هل تعلمون عدد الفتيان الّذين باعهم وأرسلهم عبر المحيطات إلى المجهول؟

هل تعلمون عدد اللاّتي يُستعبدن الآن في أنغوجا ويمتلكهنّ السّادة القادمون من خلف البحار؟

هل تعلمون من ينهضون بأعباء الحياة في أنغوجا، ويفعلون كلّ شيء، وهم جوعى ومربوطون بالجنازير، يأكلون بقايا ما يتركه أحفاد الّذين دفع بهم البحر إلى بلادنا، نحن الّذين نزرع، ونحن الّذين نحصد، ونصطاد الأسماك والغزلان، ونجلب العسل، ونصنع السّمن ونرعى الماشية، ونحن الّذين نأكل بقايا الموائد، ونحرم من تذوق السّمن والعسل!

نعم، تعلمون..

ولكنّكم الآن تتحدّثون عن فتاة واحدة فقط، وربما هي أوّل من

تمّ أخذه من نساء النّخاسة، منذ أن جاؤوا إلى هذا المكان، من برتغاليين وإنجليز وألمان وفرنسيين وعرب وغيرهم، سؤالي لكم أيّها السّادة:

لماذا تحرموننا من أن نعاملهم بالمثل؟!

لا يُوجد دم أرخص من دم، ولا روح أرخص من روح، ولا إنسان عليه أن يكون عبدًا، وآخر له أن يكون سيدًا، يحدث في أرضنا وبلدنا أن نكون عبيدا، ويأتي السادة من خلف الماء، وعندما نأتي بسيدة قام والدها بقتل أهلنا واستعبدهم وشرّدهم وباعهم، يحتجّ الناس في القرية؟ ويتحدثون عن العيب والشرّ والربّ واللعنات.»

تحدث الزعيم، بعد أن تحرّك في مجلسه يمنة ويسرة، قائلاً:

«إذا عملت عمل الشّيطان فستصبح شيطانًا، إنّك لا تجفّف النّهر انتقامًا من تمساح ابتلع والدك. وأَسْرُ سيّدة، مهما كانت سلالتها، لا يطرد اللّعنة الّتي يجلبها ذلك الفعل، ولا يمكن أن تتحمل فتاة مسؤولية جرائم والدها، ولماذا لم تأتوا بالأب نفسه؟! الأب الّذي قتل وباع وشرّد وسرق، هل فكّرتم في ما سيصيب قومكم من لعنات؟ لقد فكّرتم في ما هو سهل، أقول لكم: سيأتي يوم تنتقمون فيه، آجلاً أو عاجلاً، ولكن سيأتي حتمًا، وسيتحمل كلّ مجرم ثقل ما فعل، لكن عليكم تجنّب اللّعنة الآن، عليكم إعادة السّيدة إلى أُسْرَتها من المكان الّذي أخذتموها منه.»

استأذن سُندُس، وقال:

«أنا أريد أن أتزوّجها.»

كانت الضحكات الّتي يكتمها الجميع واضحةً أمام عينيه، وهم يوضعون أيديهم على أفواههم وصدورهم تهتزّ، بينما تكاد أعينهم تنفجر من الدموع، ولكنّه واصل حديثه:

«نعم سأتزوّجها، وبذلك لن تكون هنالك لعنة.»

قاطعه الزعيم:

«الزّواج دائما برضى الآباء وبدفع المهر، فهل ستقوم بدفع مهرها لوالدها في أنغوجا؟ هل سيوافق والدها أن يزوّجها لك وقد كنت أسيرًا عنده، ويعلم أنّك لا تنجب؟»

قال بإصرار:

«سأعيد عضوي من الرب!! وأنا الآن رجل حرٌّ، ولا تهمّني موافقته، يهمني أن تقبل هي فقط، إنّها لي، أنا سيّدها، أنا الّذي أمتلكها، نعم كنت أعمل خادمًا لها، ولكن ليست تلك هي الحقيقة، إنّني أخدمها لأنّها تخصّني.»

عند هذا الحدّ لم يستطع أعضاء المجلس كتمان ضحكاتهم، فانفجروا مقهقهين بهستيريا، بعضهم نزلت الدّموع من عينيه، بعضهم ضرط ضرطات متتاليات بصورة شائنة لأنّ هناك نساءً بالمجلس، إلى أن هتف الزعيم بصوت أجشّ طالبًا من الجميع التزام الصّمت.

قال الزعيم بعد صمت طويل قضاه في المسح على لحيته القصيرة الخشنة، والتقاط بعض الشعيرات الميتة منها ورميها جانبًا، بينما كان

الجميع يتشوق لسماع ما سيقوله، في الحقيقة إنه يفكر جيّدا في أمر خطير، أمر غير ميتافيزيقيّ، أي أنه كان واقعيًا جدّا، وهو: «ماذا لو سَيَّر السّلطان جيشا عرمرمًا بقيادة الشبح أو غيره؟ بالاتّفاق مع الألمان والإنجليز أو حتى الفرنسيين، وغزا القرية من أجل استعادة ابنته والانتقام من المحاربين! كيف سيؤول الأمر بشعبه، وهو غير مستعدّ بعدُ للمعركة الأخيرة ضد السلطان؟ مازال يجمع الأسلحة، وهي قليلة ولا تصمد أمام أي تحالف للغرباء، ولكنّه احتفظ بتفكيره لنفسه، فاللّعنة مقدور عليها في أحيان كثيرة بالتّقرب إلى الرّبّ وذبح الأضحيات، وقد يقبل الرّبّ الرّحيم ويرفع لعنته عن الشّعب، وقد لا يقبل، فهنالك أمل، ولكن من يُرضي القتلة الآتين من خلف البحار العميقة الشاسعة، وهم متعطّشون للدّماء والثّروات والبشر؟»

حاول أن يطرد الفكرة بعيدًا، حاول أن يغيّر الموضوع برمّته، أو أن ينحو به منحًى جديدًا، فقال فجأةً:

«من يحضر الفتاة هنا؟!»

نهضت إحدى زوجاته الجالسات بقربه، وخرجت في عجالة، وهي تقول بصوت متوتر: «أنا سأحضرها الآن.»

أخذ الزّعيم يتحدّث مرّة أخرى بصورة ميتافيزيقيّة:

«النّاس هنا يتشاءمون من الملعونين أينما حلّوا، أنا لا أفهم جيّدًا معنى أنّها ملكك، ولكنّ الرّبّ يفهم ذلك، نحن لا نفهم كما يفهم الربّ. إنّه يفهم بصورة معقولة جدًّا، فلتذهبا إليه، إذا شئتما.»

ثم سأله سؤالا مباغتًا:

«هل تقصد أنّك تمتلكها في الفراش، أنا أيضًا أمتلك زوجاتي في الفراش، ولكن كيف تستطيع ذلك؟»

قال سُندُس وهو يحاول أن يختار كلمات معقولة:

«الربّ يفهم ذلك كما قلت.»

حينها أتت الأميرة بصحبة زوجة الزّعيم وامرأتين أخريين، تحملان طفلين رضيعين، رحّب الزّعيم بها وأعطاها مجلسًا ليس ببعيدٍ عنه. شعرها مبعثر على كتفها، تكاد بعض الخصلات تغطّي عينيها، وفمها جاف بصورة تامة، ولونها شاحب كالموتى، ابتسمت بصعوبة وهي تجلس على المقعد الخشبيّ الّذي قدّمه لها الزّعيم، وعندما استقرت وبدت متماسكة وهي تنظر إليها مستفسرة، قال لها:

«يا بنيّتي، لقد أتى بك الشّباب إلى هنا، وذلك ليس بإرادة أسرتك، وليس بكامل إراداتك أيضًا، نحن نعتذر عن هذا الخطأ، ونرجو ألاّ يصاب شعبنا بلعنة ذلك الفعل المشين، أرجو أن تعفي عنّا، وسنعيدك إلى أهلك قريبًا.»

قالت بلغة سواحيلية جيّدة ذات لكنة مدنيّة، إذ أنّها من المورابو، أي العرب الّذين وُلدوا في أنغوجا، وليست من المانغا، الّذين أتوا إلى أنغوجا بعد ميلادهم وتعلّموا السواحيليّة تعلّمًا، وفي حقيقة الأمر فإنّ والدها وجدّها ووالد جدّها كلّهم من المورابو، وهم جميعًا مثلها لا يتحدّثون غير السّواحيليّة، يعرفون بعض الكلمات العربيّة لها علاقة بالتعبد والتديّن الإسلاميّيْن، إنّهم مسلمون على نهج وثنيّ إفريقيّ، عرب بمحتوى إفريقيّ، وكلّ ما يفرقهم عن الأفارقة هو تمسكهم بالمكاسب السياسية والاجتماعية والاقتصادية الّتي تحصّلوا

عليها نتيجة تمركز القوى التاريخيّ بين أيديهم.

«نعم.. أحب أن أعود إلى أهلي بأسرع ما يمكن، إنّني لا أستطيع أن أعيش هنا، أنا اعتدت على حياة أخرى، كما أنّ أبي سيكون حزينًا جدًّا على فقدي، سيحزن كثيرا.»

قال الزعيم:

«سنعيدك قريبًا، عندما يُظلم القمر مرة أخرى، ولكن عليك إلى ذلك الحين العيش على طريقتنا، عليك أن تصنعي طعامك، وتجلبي الماء من البئر، وتغسلي ملابسك، ستساعدك إحدى زوجاتي، وستكون في صحبتك بصورة مستمرّة، لدينا هنا الكثير من الأطعمة الطيّبة، الجراد والكبابو والحلوى والفيلوزا والبودين، ولدينا السمك الجاف، وكما تعلمين، نحن نبعد كثيرًا عن البحر، في الحقيقة نحن نخاف البحر، صحيح أنّه يأتي بالأسماك الكبيرة الشّهيّة، ولكنّه أيضًا يأتي بالوحوش صائدي البشر وقاتلي الأفيال والزّرافات. نحن نخاف منه، إنه أكبر لعنة تركها الرّبّ لنا هنا، يمكننا العيش دون أسماك، ولكن لا يمكن أن نعيش دون أبنائنا وحيواناتنا وأرضنا.»

قالت بصوت مبحوح:

«أفهم ذلك.»

قال وهو ينظر إليها:

«عليك أن تحذري الخروج ليلا، ما لم تكوني برفقة أحدهم، لدينا الكثير من الضّباع والثّعابين الكبيرة الّتي تبتلع البشر.»

قالت وهي تنظر إلى سُندُس:

«طالما كان سُندُس قريبًا منّي فأنا لا أخشى شيئًا!»

قال وهو ينظر إلى سُندُس:

«يمكنك أن تعود معها أيضًا، إذا رغبت!»

قال سُندُس:

«بعدما أعيد عضوي من الرّبّ يمكننا أن نقرّر، ولكنّني لا أرغب في العودة إلى المدينة مرة أخرى، سنتدبر أمورنا.»

قالت الأميرة بصورة جادة، وهي تحملق في عيني سُندُس كأنها تريد استنطاقهما:

«سأذهب مع سُندُس أينما ذهب.»

همهم الجميع في وقت واحد مستغربين، أطلق سُندُس ابتسامة انتصار شاسعة، وكاد يضحك من البهجة إلاّ أنه تمالك نفسه.

خاطبها الزّعيم مندهشا:

«ألم تقولي إنّك تنوين العودة إلى أسرتك.»

قالت ببساطة ودون أن تنظر إليه:

«سُندُس أيضًا أسرتي، لقد كنا دائما أسرة واحدة، إذا عاد معي سأضمن سلامته، وإذا لم يعد معي، سأظلّ معه.»

عاد الزعيمُ للعبث بلحيته القصيرة، التقط شعرتيْن ميّتتيْن رمى بهما جانبًا، بصق على الأرض بقايا ألياف مانجو كانت عالقة بأسنانه القديمة المُصفرّة، تنفّس الصُّعداء، ثم قال بصوت مبحوح خفيض:

«الآن فهمت!»

قال لنفسه، «لا يُوجد دخان من غير نار، ومن حكم الرّبّ العصيّة على الفهم أن تعشق المرأة رجلًا مخصيًّا، ومن حكمه أيضًا أن يمارسا الجنس كما نفعل نحن غير المخصيّين ولنا أرواح كاملة، وقد شاهدت زوجتي ذلك بأم عينيها، وهذا ما يجلب اللعنة عاجلاً أم آجلًا، ومن يدري؟! فقد تكون اللّعنة هي جيش عرمرم يُعدّ الآن، يقوده شبح تيبو تيب الملعون، يتقدّم عبر الغابات نحو قرى البرّ الإفريقي، ويجد من يقول لهم إنّها هنا.»

طلب من الشيوخ البقاء، ومن الشّباب وغير المتزوّجين الانصراف، سوى سُندُس. خرجت الأميرة بصحبة زوجة الزّعيم، الّتي أوصلتها بسرعة بالغة إلى حجرتها، وعادت مهرولة لكي لا تفوتها القرارات النهائيّة الّتي سيصدرها مجلس الشّيوخ والمتزوّجين، تريد أن تسمعها طازجة وغير منقولة من الزوجات الأخريات وغيرهنّ من الشيوخ، فالحكاية المنقولة مثل الطعام البائت له طعم مختلف ورائحة لا تمتّ بصلة لرائحته الأصلية.

عندما عادت زوجته، بدأ يتحدّث، قال مخاطبًا سُندُس:

«خذ يا بنيّ هذه اللّعنة عن الشّعب وارحل، خذها حيثما شئت، إلى أبيها أو إلى ممبسا، فإنّ ممبسا مدينة كبيرة وشاسعة، وليس بها ربّ معروف، يسكنها كثير من الّذين لا أصل لهم، والبحّارة والعرب والأوربّيون وبعض الأفارقة المستعبدين والتّجّار والهنود، وهنالك لا أحد ينتبه إليكما، ويمكنك العثور على بعض أفراد قبيلتك سيمبوزي الّذين هربوا إليها ونجوا من السّبي، ممبسا شاسعة ولعينة وغنية، وما من رب يهمّه أمر ممبسا، فإنّ

الّذي أنشأ ممبسا هو الجنّ الّذي أتى مع العرب، وظلّ ضالاً في البحار منتظرًا عودتهم، ولكنهم بقوا في البرّ الإفريقي إلى الأبد فتبعهم وبنى لهم القصور.

خذها واذهب، ولو أنك تعلم أن السّلطان سليمان بن سليم لن يترك ابنته الوحيدة، الملكة بعده، هذه الفتاة البلهاء الّتي لا تعرف كيف تنظف مؤخّرتها من الخراء، ولو استخدمت كل شيء وجدته في المرحاض من أجل ذلك، ستصبح ملكة أنغوجا، وسيخطبها فرنسيّون وإنجليز وعرب وغيرهم، وحتمًا سيكون مصيرك مشهودًا، ونهايتك معلّقًا على شجرة مثل وطواط.

خذها الآن وارحل.

إنّها شؤم، والرّبّ سينزل علينا لعنة سببها، سينزلها على الشعب المسكين، لدينا ما يكفي من الفتيات، فليس هنالك ما يجبرنا على إبقائها هنا، هل فهمتني؟!»

قال له سُندُس:

«نعم فهمت، ولكن أرجو منكم شيئًا واحدًا، وهو أن تدلّوني على طريق الرّبّ، إنّني أريد أن أذهب إليه أوّلًا.»

قال الزعيم:

«اذهب إلى الربّ، فله طرق كثيرة، ومداخل كثيرة، وأحد هذه المداخل ليس بعيدًا عن القرية، عبر البئر، في عمقها يبدأ الطّريق إلى الكهف الّذي يقيم فيه، توجد سلالم من الخشب عليك استخدامها، ولكنّ الأهم من ذلك، هو ما ستواجهه عند الطريق

إلى الرّبّ، إنّ ذلك ليس سهلاً، قد تدفع حياتك قبل الوصول إليه، ستواجهك صعاب قاتلة ومؤلمة، سترى ما لا يمكن رؤيته حتى في الأحلام، ولكن إذا نجحت في العبور، ستظفر بعضوك وستصبح إنسانًا كاملَ الروحِ، فالرّوحُ كما تعلم تنقص بنقصان أعضاء الجسد، وتكتمل بكمالها، وناقص الرّوح مشؤوم.»

«اشرح لي.»

قال الزعيم:

«هل أشرح لك نقصان الروح أم الطريق إلى الله؟»

قال سُندُس بعد أن رسم على فمه ابتسامة جريحة:

«هل أستطيع استعادة عضوي، وكيف؟»

قال الزعيم بعد أن وضع في فمه حفنة صغيرة من التبغ، ومعها قطعة من حجر النطرون، ومن ثمَّ رد على ابتسامة سُندُس الحزينة بابتسامة مقتضبة، وهو يصلح وضع التّبغ في لسانه:

«شاويري يا موجود»، ثم أضاف بعد صمت قصير، «حسنًا، ستحضر إليّ صباح السبت، قبل طلوع الشمس، بعدما يصمت الدّيك عن الصّياح، ويذهب الشّعب إلى العمل في المزارع، والصيّادون إلى الغابة، وينام القمل والبعوض، ويسكن البوم، وتعلّق الوطاويط أنفسها على فروع أشجار المانجو، تحضر إلى هنا ومعك أشواك من شجرة المكونازي، وعود نار من اليوبيكشا، وماء ثمرة جوز الهند.»

قال العجوز الأعمى، وقد قبض بكلتا كفيه القويتين على يد سُنندُس، وكأنه يخاف أن يهرب منه، وقد استشعر سُنندُس فيها دفئًا وعاطفة ومحبة:
هذا صحيح، كل الأعضاء والأرواح مع الرب، ولكنني أتحدث عن طريق العودة، إذا شئت أن ترجع وتعيش مع فتاتك، فإنّ ذلك مستحيل، أنا أحسّ بألمك يا بُنيّ، أحسّ بوجع قلبك، أنا أيضًا فقدتُ ابني وابنتي وزوج ابنتي، كانت ابنتي في ريعان شبابها وحديثة الزواج، تركت لي طفلًا حديث الولادة، وهذه قصّة أخرى لا وقت لها، وفقد أخي الأكبر ولده البكر الّذي كان في عُمر ولدي، لقد أنجبتهما زوجتانا في الأسبوع نفسه، خطفهم جميعا النّخاسة الأشرار، ولا ندري أين أبناؤنا، ولكن ما هو مؤكد أنّ ابنتي قد توفيت، أمّا الشبان فقد تمّ بيعهم لسفينة ما، وإذا كانوا موجودين الآن، فإنّهم قد يكونون رجالًا أشدّاء في عمر والدك.

في الصّباح الباكر من يوم السبت، على زقزقة العصافير، وصياح الدّيوك، قبل طلوع الشمس بوقت قليل، نهض من فراشه، ولم يصمت الديك عن الصياح بعد، غسل وجهه بماء بارد من جرّة ماء الشّرب، فالماء البارد يطرد النُعاس وكوابيس اللّيل، ويمحو أثر الأحلام المزعجة من وجهه، ويفتح مُقلتيه على العالم، ثم خرج من حجرته، وجد الشّعب يذهب أفواجًا وجماعاتٍ إلى العمل في المزارع، والصيادون في طريقهم إلى الغابة، توقّف عند شجرة المانجو الكائنة قرب حجرته، شاهد الوطاويط معلّقة على أغصانها، لم يعد يسمع صياح الديكة، إنّما نقنقة الدّجاجات وصوصوة الفراخ الصغيرة، تأكد لديه أن القمل قد نام، وأن البعوض قد هجع إلى مرقده النهاري، وسكن البوم. مضى نحو الغابة، وليس ببعيد عن المكان الّذي هاجمه فيه الخنزير البرّيّ حصل على شجرة مكونازي عملاقة، تنشر فروعها الشوّكيّة حول نفسها، ليست ذات ثمار، وقد تساقطت أوراقها على الأرض الصّلبة إعلانا عن نهاية الفصل المطير، أخذ منها بحذر شديد غصنًا شائكًا، عالجه بيديه لأنّه لا يمتلك فأسا، ثم مضى عميقًا متوغلًا في الغابة، إلى أن حصل على شجرة النّار المعروفة بـ«يوبيكشا»، وجد على الأرض تحتها عودًا صغيرًا جافًا، ربّما سقط من بعض الحطّابين، ولأنّ لديه في المنزل ثمرة كبيرة وطازجة من جوز الهند، عاد أدراجه إلى القرية، تغمره سعادة مجهولة المصدر،

ونشوة ونشاط.

صاح ديك طائش، تردّد قليلا قبل الدخول إلى حجرة الزّعيم، صاح الدّيك الطّائش مرّتين متتاليتين، ولّى أدراجه إلى حجرته، فالوقت ليس مناسبًا، كما أن صياح الدّيك بعث فيه حافزا سلبيًّا، تذكّر أنّه نسي أن يأخذ معه عصارة جوز الهند، ولج حجرته، أخذها بسرعة، وبدلا من أن يذهب إلى غرفة الزعيم، حملته خطاه إلى مسكن الأميرة، مازالت على فراشها نائمة، ولكنها استيقظت بمجرد أن فتح الباب واندفع ضوء الصّباح إلى الداخل، جلس قربها، رائحة جسدها قوية، ليست كما كانت، إنّها رائحة جسد فعليّة غريبة ولكنّها شهيّة، لم يكن لفوح الصّندل أو العطور العربية الّتي كانت تستخدمها في أنغوجا أي آثار، لقد تحرر جسدها تمامًا من كل ذلك، قبّلها على خدّها، احتضنته بعطف ثم قالت له:

-أراك مستعدا ليوم السبت.

قال وهو يطلق جسده من بين ذراعيها:

-نعم، كنت في طريقي إلى حجرة الزعيم، ولكن صاح الدّيك ثلاث مرات، فغيّرت اتجاهي.

ابتسمت، وهي تحاول النهوض:

-اذهب إليه الآن، وعد إليّ سريعًا لتخبرني بما جرى بينكما.

خرج سريعًا، دون أن ينظر إلى وجهها مرّة أخرى، كانت القرية قد خلت تقريبًا من كلّ سكّانها القادرين على العمل، صادف عجوزين يقفان قريبًا من حجرة الزعيم، حيّاهما، توقّفا وردّا التحية

بالمصافحة، خاطبه أحد العجوزين قائلًا :

-هل تريد الذهاب إلى الرّبّ كما يُقال هنا في القرية!

قال وهو يحملق في وجهه:

-نعم!

قال له العجوز ومازال يقبض على يده، «أخي هذا يريد التحدّث إليك، إنّه أعمى، وأنا أقوده، إنّ لديه ما يقول لك.»

فاقترب سُندُس من الأعمى وسلّم عليه بيده، قال الأعمى العجوز، بعد أن حيّاه وباركه، وظلّ ممسكا بكف سُندُس: «يا ولدي، من الأحسن ألا تذهب إليه، كلّ الّذين ذهبوا إليه لم يعد منهم أحدٌ، إنّ الطّريق إلى الرّبّ لا يقود إلى أي مكان آخر سوى الرّبّ نفسه، وهي النهاية، ومن ذهب لا يجد طريق العودة، لأنّ طريق العودة لا وجود له.»

قال متعجّبًا وهو ينظر إلى عيني الأعمى المطفأتين:

-ولكن، قال لي الزّعيم إنّه بإمكاني الحصول على عضوي!

قال العجوز الأعمى، وقد قبض بكلتا كفّيه القويّتين على يد سُندُس، وكأنّه يخاف أن يهرب منه، وقد استشعر سُندُس فيهما دفئًا وعاطفة ومحبّة:

«هذا صحيح، كل الأعضاء والأرواح مع الرّبّ، ولكنّني أتحدث عن طريق العودة، إذا شئت أن ترجع وتعيش مع فتاتك، فإنّ ذلك مستحيل، أنا أحسّ بألمك يا بُنيّ، أحسّ بوجع قلبك، أنا أيضًا فقدتُ ابني وابنتي وزوج ابنتي، كانت ابنتي في ريعان

شبابها وحديثة الزواج، تركت لي طفلًا حديث الولادة، وهذه قصة أخرى لا وقت لها، وفقد أخي الأكبر ولده البكر الّذي كان في عُمر ولدي، لقد أنجبتهما زوجتانا في الأسبوع نفسه، خطفهم جميعًا النخّاسة الأشرار، ولا ندري أين أبناؤنا، ولكن ما هو مؤكّد أنّ ابنتي قد توفيت، أما الشبّان فقد تم بيعهم لسفينة ما، وإذا كانوا موجودين الآن، فقد يكونون رجالًا أشداء في عمر والدك.

نحن نتابع حكايتك منذ أن أتيت إلى هنا، الناس يضحكون من قصتك ويسخرون، ويدعونك المخصيّ الموهوم، ولكنّني أحزن وأبكي، جئنا هنا لنقابلك، نحذّرك وننصحك ليس إلاّ، من في صحبتي هو أخي الأكبر، هو يستطيع أن يرى وأن يتكلّم، ولكنه لا يسمع جيّدًا، لقد كانت حياتنا صعبة جدًّا، وخبرنا الحياة جيّدًا، ونحن نصر عليك ألاّ تدخل البئر؛ لأنّك لن تعود.»

ثم أطلق كفّيه من يد سُندُس، قبض على يد أخيه، وذهبا يتحدثان بصوت أقرب إلى الهتاف، تابعهما سُندُس ببصره حتّى اختفيا تمامًا خلف أكواخ القرية، خطا خطوات قليلة نحو حجرة الزّعيم، ثمّ توقّف، كان يقلّب كلام العجوز الأعمى في رأسه، ثم تقدم بخطوات ثابتة نحو حجرة الزعيم مرة أخرى، إلى أن توقف أخيرا أمام الباب الضّخم المصنوع من الخشب، كان يحمل غصنًا صغيرًا شائكًا من شجرة المكونازي، وعود نار من اليوبيكشا، وثمرةً طازجة من جوز الهند في سلة صغيرة من سعف النخيل، التقطها من حجرة الأميرة، أحسّ بأنّه أصبح غير متماسكٍ بعدما جرى بينه

وبين العجوز الأعمى من حديث، ولا يدري ما إذا كان راغبًا بعدُ في المضيّ قُدما نحو استعادة عضوه من الرّبّ، أم أنّه غير متأكّد من ذلك، ليس هنالك ما يحمل العجوز على الكذب عليَّ، فالعجوز كان صادقًا معي، أحسست بذلك من عمق قلبي، ولكنني أريد أن أنجز هذه المهمة، أريد أن أصبح رجلاً حرًّا كامل الروح والجسد.

اطرق الباب وادخل دون تردّد، اسأله عن كل التفاصيل، ربما هناك مخرج ما متاح لك.

قدمَّ له الزّعيم كرسيًّا قصيرا من الخشب، قريبًا من موقع الثّعبان النّائم بصورة دائمة، وناوله وعاءً صغيرًا من الماء، وصحفة من الخشب عليها قطع مانجو صغيرة معدّة للأكل يحوم حولها الذّباب، ومن ثمَّ أخذ يشرح له كيف يكون الطريق إلى الرّبّ:

«المدخل إلى الرّبّ هو بئر هذه القرية، في قرى أخرى لديه مداخل أخرى، إنّه يقيم في كهفه تحت الأرض، ولديه في كلّ مكان باب، بعض الأبواب غير معروفة للنّاس، لا يعرف موقعها غير الأنبياء.

صعوبة الوصول إلى الرّبّ تكمن في شيئين؛ الخوف والوحش.

قبل أن تنزل إلى البئر، عليك أن تتخلّص من الخوف، وليست هنالك تميمة للتخلّص منه، وليس هنالك علاج له، إذن عليك أن تتجنب الإصابة به، وإلاّ متَّ رعبًا، وستخرج جثّتك في اليوم الثّالث من البئر، وسيجدها النّاس منثورة في العراء، فالحكيم هو الّذي يستطيع أن يحوّل خوفه إلى مظهر شجاعة، أي أن يتقدّم دون تردّد، عندما يخاف القطّ فإنه يُهاجَم بشدة.

أمّا الوحش، فهو ليس شيئًا آخر غير الشّيطان نفسه في صورة ما يشبه الكلب، نعلم أن الرّبّ خلقه، ولكن لو لم يرغب الرّبّ في أفعال الشيطان لما أبقاه لحظة، فإنه يمنع الوصول إلى الرّبّ، وهذه هي مهمّته، ولكنّ الرّبّ خلق أيضًا النّبيّ، ولو لم يرغب الرّبّ في عمل النّبيّ لما أبقاه لحظة، الناس يحتاجون إلى نبيّ يقيم بينهم، ففي كل قبيلة نبيّ. النبي هو من يستطيع أن يقدّم الرّأي الصّائب، ويعرف ما يحدث، ويفسّر ما حدث، ويبطل عمل الوحش، هنا أنا النّبي، ولكن عليك أن تتّبع كلّ ما أقوله لك بدقّة.»

كان سُندُس يستمع في صمتٍ، بكل حواسه، يسجّل كلّ كلمة قالها الزّعيم الّذي عرف عنه للتوّ أنّه نبيٌّ أيضًا، لا يعرف سُندُس مهمّة النّبيّ جيّدًا، ولو أنه عرف الكثير عن النّبيّ العربيّ، ولكنّه لم يتخيّل النّبيّ في صورة هذا الزّعيم، الشّخص البسيط الّذي يعشق المانجو، ويبتسم بين الفينة والأخرى، ويعبث بشعر لحيته وذقنه، ويستطيع أن يقاوم الوحش، وليس لديه جيوش أو كتاب، وهو شبه عار. لكنّه لم يستطع التخلص من مقالة الرجل العجوز الأعمى أيضًا، سيسأل عن العودة في الوقت المناسب، وليست كلّ الأوقات مناسبة للأسئلة.

واصل الزّعيم حديثه بثقة: «يا بنيّ، تميمة الوحش الآن معك، وعليك أن تستخدمها دون أخطاء، والخطأ يعني الموت، سيهاجمك الوحش هجومًا عنيفًا، عليك أن تعمل بحكمة القطّ، أن تحوّل خوفك كلّه إلى قوّة، أن تَثبت بشجاعة، وإذا فعلت ذلك، ستوقف الوحش

لحظة، عند توقفه عليك برمي غصن شوك شجرة المكونازي، وتتقدّم إلى الأمام، ستتحول أشواك المكونازي إلى غابة شائكة ومظلمة، تحدّ من حركة الوحش، ستخزه أشواكها في كل قطعة من جسده الضخم، وسينزف دمًا كثيرًا، ويصاب بجراح بالغة، ويتألم ألمًا مُبرحًا، لن تراه ولكنك ستسمع أنينه ونُباحه، إنّ نباحه في قوة زئير الأسد، وأنينه كخوار ثور الجاموس الغاضب، وهذه الغابة الشائكة المظلمة لن تمنعه من أن يعبرها ليدركك، قد تأخذ منه مسيرة يومين ولكنّ سرعته لا تضاهى، ما تعبره أنت في اليومين يمضيه الوحش في ربع اليوم، وسيتعافى من جراحه، ويغيّر جلده ولحمه مئات المرات، ويصبح أنينه ضحكا مرعبًا، وعندما تصل إلى مسمعك قهقهاته المرعبة تأكّد أنّه يتبعك، وأنّه على بُعد مسير اليومين وربع اليوم، عليك إذن أن تلقي إليه بهاء جوز الهند، وسيصبح بحرًا شاسعًا يفصلك عنه، سيشرب الوحش ماء البحر، إلى أن تنفجر بطنه، ولكنّ بطنا جديدة ستنمو له في الحال، وهكذا.. إلى أن يقضي على ماء البحر، وعندما تأتي إلى مسمعك قهقهاته المرعبة، فإنّها تجعل المكان حولك يهتزّ، ويرتجف قلبك مثل عُشبة في مهبّ العاصفة، إذن هو على بُعد مسير يومين آخرين وربع اليوم منك، ولكنّك في ذلك الحين تكون قد اقتربت من كهوف الرّبّ، ويفصلك عنها مسير يومين وربع اليوم أيضًا، عليك ألاّ تنام ولا تُرهق، ألاّ تتردّد وألاّ ترجع، وأن تحوّل كل خوفك ويأسك وتردّدك ونعاسك إلى قوّة القطّ، عليك أن تتقدّم إلى الأمام إلى أن يصير الوحش في مسافة قريبة منك، عليك أن تنظر إليه في عينيه، ثمّ ترمي إليه بعود النّار، حينها سيصير غابة من الشّوك،

تلتهمها النّار أمام عينيك، ثمّ يصير بحرًا شاسعًا، هنا تنطفئ نارك، وتشتعل نار الرّبّ الّتي ستضيء لك كلّ الكهوف؛ كهف الأرواح، كهف الكلام، لكلّ عضو من جسد الإنسان كهف، لكلّ عضو من الحيوانات كهف، وهنالك كهف الشّمس وكهف القمر، كهف النّار والماء والتّراب والهواء، عليك حينها أن تسجد للرّبّ، ولست في حاجة لأن تقول له من أنت وماذا تريد، عليك أن تبقى ساجدا، بصرك نحو الأرض، إلى أن يخاطبك الرّبّ قائلًا : انهض.

عندها تنظر أمامك، فتجد كهف أعضاء الذّكورة، به كلّ الأعضاء الّتي بترها الأشرار منذ أن عبروا البحر إلى إفريقيا، أي منذ أن ركن الرّبّ إلى كهفه تاركًا العالم لمصائر الإنسان. لا يمكنك التّعرّف على عضوك، ولكنّه سيتعرّف عليك، وسيناديك باسمك: وااااا نانو.»

وسمع نانو صوت عضوه، فتحرّك الشّبحُ بين فخذيه بجنون فجائيّ، وكأنّه من لحم ودم، وليس من وهم عقله وجنوح خيال رغائبه، همس الشّبح في أذن سُندُس:

-فلنذهب إلى الرّبّ!

هنا سأل سُندُس الزّعيم النّبيّ سؤالاً:

-هل بإمكاني أخذ عضو الأميرة الّذي تم بتره أيضًا، إن أعضاء كل نساء أنغوجا يتم بترها منذ طفولتهن المبكرة.

صمت الزعيم النبي لزمن طويل، لقد فاجأه السؤال بصورة تامّة، أطعم نفسه قطعة صغيرة من المانجو، بعد أن هشّ بمروحة صغيرة من السّعف ما حطّ عليها من ذباب:

«عندما تكون أمام الرّبّ بإمكانك أن تسأله عن كلّ شيء، أنا لا أدري ما إذا كان ذلك ممكنًا أم لا؟»

ثم سأله سُندُس سؤالاً ظلّ يؤرّقه منذ أن التقى بالشيخين:

«وكيف تكون العودة بعدما أحصل على عضوي أو العضوين معًا .»

ردَّ الزعيم النبي مستهلاً كلامه: «شاويري يا موجود»، ثم أضاف قائلًا : «أنت تذهب من هنا وفقَ مقدرتنا المتواضعة في هزيمة الوحش، أمّا هنالك حيث الرّبّ، فهو الّذي سيعيدك إلى هنا غانمًا وكامل الروح والجسد بمشيئته، وطرائق الرّبّ ليست طرائق البشر، ولكن أقول لك أيضًا، الكثير من النّاس يفضّلون البقاء حيث الرّبّ، قريبين منه تحت رعايته، وهؤلاء هم اليائسون الّذين لا يرجون خيرًا من الحياة الّتي نعيشها هنا، والخائفون من البشر الأشرار، لا أحد يعلم عدد القرويين الّذين ذهبوا إلى الرّبّ متجنبين الاسترقاق، هبطوا في البئر، ولأن معظمهم لا يعرف كيف يقاوم الخوف والوحش، ولم يكن لديهم الوقت الكافي لاستشارة نبيهم، أصبحوا وجبة للشيطان، وهم بذلك يصبحون جزءًا منه إلى الأبد، يزيدون من حجمه، ويصبح أكثر وحشية وأكثر مقدرة على العدو، أما الّذين وصلوا إلى كهوف الرّبّ سالمين فقد استقروا هناك، وستجدهم في مكان ما في كهف الربّ أرواحًا هائمة، لأنهم فضلوا البقاء على العودة، أما أنت، فلديك ما تعود لأجله، وأظنّك لا تستطيع فراق تلك السّيّدة العربيّة، وهي أيضًا متعلّقة بك، أنا عن نفسي أحبّ أن أكون في هذه الحياة، في قريتي وأكمل حياتي الأرضيّة بصعابها وبهجتها لأنّني أراها

جميلة، عند الربّ لا تُوجد سوى الأرواح، ليس هناك نساء ورجال وأطفال وحيوانات، إنّما مجرد أرواح، تهيم مثل الهواء أو السّحب، وعندما يأخذ الربّ روحي إلى كهوفه فَلَنْ أمانع، فَلْيَفْعَلْ ذلك وقتما يشاء، وسأكون راضيًا بأن أقيم في كهوفه تنازلاً لمشيئته، لا رغبة حقّة منّي، خلقنا الرّبّ لهذه الحياة، وأنا أفضّل أن أكون بشرًا من لحم ودم لا هواءً أو سحابة.»

ابتسم، أخذ ينظر حوله كأنما يبحث عن شيء بعينه، ثمّ أطعم نفسه بعض المانجو من وعاء خشبي مملوء بها، عبث بلحيته، التقط بعض الشُّعيرات الطّويلة العالقة بها، ويبدو واضحا أنّها شَعرة إحدى نسائه، بحث عن بعض الشّعيرات الميّتة، ولكنّه اصطاد شُعيرة أخرى تخصّ إحدى زوجاته كانت عالقة منذ ليلة الأمس بلحيته الخشنة، من ملمس الشعرة تعرف على صاحبتها، ألقى بها جانبًا، ثم واصل مخاطبته لسُندُس:

-اترك أشواك المكونازي وعود النّار وجوز الهند هنا معي، سأقوم بمعالجتها وتجهيزها لك، إنّها تحتاج إلى أسبوعين كاملين من العمل، فالأمر ليس سهلاً، وهذا كلّ ما في استطاعتي تقديمه لك، عُد إلى فتاتك فهي في انتظارك.

السجناءُ ينتقمون

تقدّم أحدُ السجناء نحو السلطان، كان طويلاً نحيفًا شاحبَ اللون كثَّ الشّعر يتطاير الشّرر من عينيه، له رائحة شديدة العفونة لعدم استحمامه، كان في السّابق من حرّاس السلطان المقرّبين جدًّا، ورغم ضجيج المدافع وقعقعة الرّشاشات ظلّ صوته واضحًا بل مجلجلًا :

هل تعرفني؟

تجاهله السّلطان تمامًا وهو ينظر إلى السقف، مدّعيًا تفحّصه وخوفه من أن يسقط على رأسه، بينما أبعده الحرّاس عن السّلطان، ولكنّه أزاح الحرّاس بعيدًا عنه، وعندما أراد استخدام القوة، تدخّل السّجناء الآخرون لمنعه، صاح السّجين مرة أخرى وهو يقترب أكثر من السلطان، بل وضع وجهه المشعّر أمام وجه السّلطان مباشرة:

هل تتذكرني؟

فردّ عليه السّلطان:

نعم أتذكّرك.

هل تتذكّر ما فعلت بي وبزوجتي وأطفالي؟

لم يُفاجأ السلطان سُليهان بن سليم بالهجوم الإنجليزي على أنغوجا، صباح يوم 27-8-1890. فقد بدأ ذلك الصّباح الّذي يعتبره الأكثر نحسًا في حياته، عاديًّا وطبيعيًّا جدًّا، ولو أنه منذ أودع خادمه المقرّب مُطيع غياهب السجن، أخذ يفتقده بشدّة كلّ صباح، خاصة عندما يهمّ إلى قضاء الحاجة، فإنه يحتاجه بشدة من أجل غسل إسته المباركة من بقايا الخراء وآثار البول، وذلك ما لا تجيده الخادمة الجديدة الّتي حلّت مكان مُطيع، ويقرف هو نفسه من القيام به.

بدأ الصّباح عاديًّا، استيقظ على صوت الأذان، تمطّى قليلاً، ربّت على كتف الزّوجة النائمة قربه لكي تنهض وتعود إلى غرفتها في جناح النّساء، فكّر قليلًا في اسمها، حاول أن يتذكّره، إنّها زوجته منذ زمن طويل، ربّما تكون من بنات أحد الأثرياء أو أقربائه، ربّما وربها، أخيرًا ناداها: فاتوما جُما، وذلك اسم زوجته الأولى أمّ الأميرة ابنته الوحيدة الغائبة، ثمّ نسي الأمر، نهضت الزّوجة المسكينة من مرقدها، تثاءبت قليلًا، ارتدت ملابسها بكسل، حملت المواعين وقارورات عطرها الملونة الجميلة وأدوات ليلتها وخرجت. ثمّ أحضرت إليه الخادمة وعاء التّبرّز الحديديّ الضّخم الّذي يليق بمؤخّرة سلطانيّة شاسعة.

وفي اللّحظة الّتي جلس فيها على الوعاء، واسترخت أعصابه تمامًا، وبدأ سليل البول في التدفق، بمتعة يصطحبها حرقان خفيف نتيجة تناوله قدرًا كبيرًا من الزّنجبيل في الليلة السابقة، سمع دويّ

مدفع المكسيم الإنجليزيّ المشهور، ثمّ دويّ ارتطام قذيفة بمكان ما في القصر، وعندما اهتزّ مبنى القصر في رعب، كما لو أنّ زلزالاً قد ضربه، نهض من وعاء الخراء فزعًا، وهتف في وجه الخادمة: الإنجليز، لعنتي الخاصّة عليهم، أين الحرّاس الملاعين؟!

وعندما دوّت القذيفة الثّانية، بعد ثوان معدودات، كان الحرّاس الزنوج قد التفّوا حوله، وأخذوه عاريا من وعاء الخراء وجروا به في عجالة نحو قبو القصر، وهو المكان الوحيد الآمن، وبُني في الأصل مخبأ لحالات الطّوارئ، وهو كذلك المكان الوحيد الّذي سيبقى سالمًا في حالة انهيار القصر تمامًا، لهذا الغرض صمّمه مهندس هنديّ بارع مجهول الاسم، وهو الّذي أشرف على بناء عشرات القصور في الهند، ثمّ في شرق إفريقيا والمستعمرات الإنجليزيّة الأخرى.

تحوّل القبو منذ سنوات عديدة إلى سجن مؤقّت، بقرار من السّلطان سُليمان بن سليم الّذي باركه الرّبّ مؤخّرًا، وذلك عندما أراد عقاب بعض السّبيّ العاقّين بطريقة أبشع من الموت، لأنّه رأى في الموت السّريع رحمةً بالمقتولين، ففكر في التعذيب المؤقت وحرمانهم من الأكل والشّراب وضوء الشّمس، مع الضّرب بالسّياط والتبوّل على جراحهم حتّى يتعفّنوا، ويصيروا جثثًا حيّة. ثمّ يموتون ثمّ ترمى جثثهم إلى الكلاب الضّالّة والنّسور، وأن يحدث ذلك في فترة لا تتعدّى الأسبوعين بالنّسبة إلى كلّ سجين، أي إذا لم يمت بعد الأسبوعين فعلى الحرّاس قتله؛ عبرةً لمن يعتبر، وهو يضمن أيضًا دخولهم الجحيم بعد موتهم، فهي مآل العبيد الآبقين الخارجين على طاعة سادتهم.

لم يفاجئه هجوم الإنجليز، فلقد أُنذرَ من قبل القنصل البريطانيّ الشابّ المقيم بأنغوجا في القصر الّذي كان لابنته الأميرة الّتي باركها الربّ مؤخّرًا، ولكن ما فاجأه بالفعل هو اكتظاظ القبو بعشرات الأفارقة المحكوم عليهم بالتعذيب والتعفّن والسّجن والموت البطيء، وجدهم جميعًا أحياء وفي صحّة جيّدة، فقط أصبحت ألوانهم شاحبة لعدم توفّر ضوء الشّمس، وشعورهم كثّة، وصاروا عُراةً لتمزّق ملابسهم بفعل الرّطوبة العالية بالقبو، وتسرّب ماء الملح من المحيط بين وقت وآخر، إذ يُوجد القبو تحت مستوى الماء، صاح في حُراسه الزّنوج:

-من هؤلاء؟

ردّ عليه خادمه مُطيع السّجين من بين الحشود:

-إنّهم الموتى الّذين أكلتهم الكلاب والنّسور بعد أن تعفّنوا.

صاح في رُعب في وجه الحرّاس:

-خذوني إلى الخارج خذوني!

أراد الهرب، ثم دوّى المدفع مرّة أخرى، وتبعته زوبعة من أصوات الرّشّاشات، ودويّ سقوط أجزاء أخرى من القصر، في تلك اللّحظة أيضًا اقتحم القبو الرّجل الإنجليزيّ، وهو لوطيّ تعرّف عليه عن طريق البعثة البريطانيّة بأنغوجا، وكان يقيم مع السّلطان عشيقًا خاصًّا، وربما هي فكرة خطرت ببال بعض الدّبلوماسيّين الأوروبّيين بأنغوجا لسببين؛ الأوّل إغناء السّلطان عن ممارسة اللّواط مع الصّبية الأفارقة صغار السّنّ المسبيّين، ويظنّ السّلطان أن السّبب الآخر هو

لأغراض التجسّس عليه والتآمر على ملكه، وعلى الإسلام الّذي ظنّ أنّ أسرته نشرته بين الأفارقة.

تقدّم أحد السّجناء نحو السّلطان، كان طويلاً نحيفًا شاحبَ اللون كثّ الشّعر يتطاير الشّرر من عينيه، له رائحة شديدة العفونة لعدم استحمامه، كان في السّابق من حرّاس السّلطان المقرّبين جدّا، ورغم ضجيج المدافع وقعقعة الرّشّاشات ظلّ صوته واضحًا بل مجلجلًا :

-هل تعرفني؟

تجاهله السّلطان تمامًا وهو ينظر إلى السّقف، مدّعيا تفحّصه وخوفه من أن يسقط على رأسه، بينما أبعده الحرّاس عن السّلطان، ولكنّه أزاح الحرّاس بعيدًا عنه، وعندما أراد استخدام القوّة، تدخّل السّجناء الآخرون لمنعه، صاح السّجين مرّة أخرى وهو يقترب أكثر من السّلطان، بل وضع وجهه المشعّر أمام وجه السّلطان مباشرة:

-هل تتذكّرني؟

فردّ عليه السّلطان:

-نعم أتذكّرك.

-هل تتذكّر ما فعلت بي وبزوجتي وأطفالي؟

قال السّلطان بصوت هزيل:

إنّها إرادة الله، هذا ما كتب الله لهم، لقد كنت عبدي المفضّل، وتربطنا علاقة جيّدة، وأكرمتك أيّما كرم، ولكنّها إرادة الله.

فقال له السّجين في غضب:

سأريك اليوم إرادة الله أيضًا، وما كتبه لك، بل سنريك جميعًا إرادة الله الّذي أرسلك إلينا هنا.

وبصق السّجين الغاضب في وجه السّلطان النّظيف الطّاهر، ومن ثمّ هجم عليه السّجناءُ، ضربًا على جسده العملاق العاري تمامًا، وقاموا أيضًا بتجريد الحراس من أسلحتهم، ولكنهم لم يعتدوا عليهم، فلقد أطعمهم الحرّاس وسقوهم وحافظوا على حيواتهم سنوات طويلة. كانوا يعلمون علم اليقين أن السّلطان لا يمكن أن يأتي إلى السجن، لأنّه لا يعلم مكانه في الأصل، بل يتجنب معرفة أيّ معلومة عنه، وبالأحرى لم يكن يظنّ أنّ هنالك سجينًا على قيد الحياة، إذا طبّق الحرّاس أوامره كما هي، كان السّجناء لا يعرفون ماذا يفعلون بالسّلطان بالضّبط، لقد فاجأهم بوجوده بينهم، فأخذوا يضربونه بصورة عشوائيّة، ويبصقون عليه، إلى أن صاح واحد منهم: أمسكوه جيدا، وباعدوا لي بين رجليه، عليّ أن أخصيه كما خصاني.

حينها صرخ السّلطان الّذي باركه الرّبّ مؤخَّرًا، بكلّ ما لديه من قوّة، ثم أخذ يرجوهم ألاّ يفعلوا، ولكن يبدو أنّ الفكرة قد راقت للمساجين التعساء، لم تكن لديهم عدّة جيّدة للتّنفيذ، ولكنّ عجوزا مريضا نصحهم بدقّ بيض السّلطان وذكره بمؤخّرة البندقيّة على أرضيّة القبو الحجريّة: «دُقّوا مذاكيره حتّى تتساوى مع الأرض»، ففعلوا ذلك غير مراعين لكبر سنّه المخفيّ بحنكة بفعل السّاحر، فقد بلغ في ذلك الحين كعادته الـ 54 عامًا وبضعة أشهر وقليلاً من الأيّام والسّاعات، وكان سيحتفل بعيد ميلاده في الشّهر القادم، أي عيد ميلاده الـ54 الّذي ظلّ يحتفل به في كلّ عام. ولم يكترثوا للإسهال

المائيّ العفن الّذي نثره حول أجسادهم العارية، لم يكترثوا لعويله ونواحه، تركوه على البلاط يئنّ من الألم، البعض فكّر في القضاء عليه، إلاّ أنّ الإنجليزيّ رجاهم قائلاً: أظنّكم فعلتم به ما يكفي، وهذه عدالة السّماء، فلا تقتلوه، رجاءً، يحتاج الإنجليز إليه حيًّا.

في خلال 25 دقيقة بالتّمام توقفت قعقعة الأسلحة، وعمّ الصّمت المكان، إلاّ من صرخات السّلطان المتتالية وشتائمه الّتي يطلقها بين حين وآخر على المساجين المُنتشين بانتصارهم العرضيّ العبثيّ عليه، ولو أنّهم اتّفقوا جميعًا على أن الربّ هو الّذي أتاح لهم هذه الفرصة، لكي يحقق العدالة الّتي انتظروها طويلًا. وبعد خمس دقائق أخرى ولج القبو عدد كبير من الجنود الهنود والسودانيّين والإنجليز، تبادل بعض الجنود البريطانيّين الحوار مع السّيّد الإنجليزيّ بلغتهم الخاصّة، اعتقلوا حرّاس السّلطان وأخذوا جميع أسلحتهم، ثمّ حملوا السّلطان وتبعهم السيّد الإنجليزيّ عشيق السّلطان، وانصرفوا، وكانوا قبل ذلك قد طلبوا من السجناء الخروج والبحث عن ذويهم، أو تدبير أمور حياتهم بالطريقة الّتي يرونها، ومن يعرف أين هي قريته عليه أن يسرع نحوها، لا يدري أحد كيف يصير الأمر مع السّلطان.

لم يمت السلطان، أسعفه الأطباء الحربيّون الهنود، بأن استأصلوا مذاكيره المهشّمة جميعها بعمليّة جراحيّة سريعة وناجحة، ووضعوا له ماسورة صغيرة من الذهب في فتحة التبول حتى لا يسدها التهاب الجرح، وأبقوه في العناية المركّزة حتّى شفي في بحر ثلاثين يومًا .

وكما هو معروف، فقد عاش السّلطان فيما بعد زمنا طويلاً، فقد ولد في 13-2 من عام نسيه الجميع بفعل السّحرة، وعاش

إلى 12-1-1964، أو بعد ذلك أو قبله بقليل، لأنّه اختفى عن الوجود، تلاشى كما تتلاشى الظّلمة في الضّوء، دون أثر يُستدل به.
وفي هذه المدّة الزمنيّة الّتي لا يمكن التيقّن من مقدارها:

- قتل 883 إفريقيًّا، وسبعة من العرب العمانيّين، وعشرين يمنيًّا.
-أباد جميع الحيوانات الضخمة، مثل الزّرافات والأفيال والفهود والأسود الّتي كانت تعيش في جزيرة أنغوجا.
-باع من السبي نساء وأطفالا ورجالا 2.779.670.
-نكح 300 سبية، وأفرغ في مهابلهن ما يقارب 15 جالونًا من المنيّ.
-أنجب طفلة واحدة.
-وبما أنّه كان مفتونا أيضًا بنكاح الغلمان، فقد أفرغ في مستقيماتهم ما يساوي جالونا من المنيّ، ولم ترتح منه أدبار الأطفال الأفارقة المسبيّين وفُقراء العرب، إلاّ بعد أن وهبه الإنجليز مثليًّا من الفرنجة محترفًا للدّعارة، أبيض ناعم البشرة ووسيمًا جدًا، ليّن الجسد يتحدث كحفيف الأشجار، إلى درجة أن السّلطان عندما شاهده أول مرّة تخيّله أحد ولِدان الجنّة المخلّدين الّذين في مخيلته الدّاعرة.
-في صباه أودع صبيانُ علية القوم؛ من تجّار نخاسة وملاّك أراض وتجّار قَرَنْفُل وزنجبيل ولبان وصائدي بشر، وأبناء غيرهم من الوجهاء، ما يُقارب الرّطلين من السّوائل المنويّة في مؤخّرته الّتي أصبحت فيما بعد مؤخّرة سلطانيّة مباركة بفضل

نَسَبِهِ السُّليمانيّ المُدّعى.

- أكل 70 طنًا من اللحوم والخضار والحبوب، أخرج منها 30 طنًا في هيئة خراء وإسهال وأشياء أخرى.
- بال ما يُقارب 10000 لتر من الماء المخلوط بالسّموم والبولينا.
- حطّم 805 قرية إفريقيّة تحطيما تامًا وسبى أهلها.
- سبى 90 بالمائة من مجمل سُكان أنغوجا.

هذا سجلّ لبعض أفعاله طوال حياته، معظمها حدثت قبل بلوغه الـ54 عاما المسحورة، ويجب ملاحظة أنّ حياته تغيّرت بعض الشّيء، بعد حادثة القبو والمسجونين، ليس لأنه أصبح عاجزًا أو لأنّ ضميره قد استيقظ، ولكن لأسباب أخرى لها علاقة بمراكز القوى في العالم وأطماع الإنجليز والفرنسيّين وأفعال الألمان في البرّ الإفريقيّ، أي لهزيمته الشّنيعة في صراع هو أضعف أطرافه. وبالعودة السّريعة إلى مجريات الأحداث بعد الهجوم الإنجليزي الّذي انتهى بالحرب الّتي سُجلت في الصّحف العالميّة والكتب الحربيّة كأقصر حرب في تاريخ البشريّة المدوّن، باسم «حرب الـ25 دقيقة»، خاضتها بريطانيا العظمى ضد جيش السّلطان سليمان بن سليم الّذي باركه الرّبّ مؤخّرًا بجزيرة أنغوجا، يمكننا تفهّم الكثير المثير.

عندما شفي السُّلطان تمامًا من جراحه، جلس معه الإنجليز على طاولة الحساب، شرحوا له أسباب الهجوم على الجزيرة، وهي أسباب مستهلكة معروفة لديه، ويعتبرها كلها غير حقيقية وغير منصفة ولا تمتّ إلى واقع الأمر بصلة، وهو يؤمن بالحكمة الّتي تقول: عندما

تكون قويًّا فإنّك لا تحتاج إلى المنطق.

محاربة الرقّ؛ على الرّغم من أنّك وقّعت معنا اتّفاقيّة الحدّ من الرّقّ في الخامس من يونيو 1873، فإنّك كنت تنوي المناورة وخداع المجتمع الدّوليّ الحريص على وقف تجارة الرّقّ، الدّاعم للحرّيّات الإنسانيّة والمساواة والعدل، فلم تلتزم بها. لقد كنّا نراقب مراكبكم ليل نهار، وهي محمّلة بالأفارقة المقهورين. استوليتم على بلادهم واستعبدتموهم واستخدمتموهم لأغراضكم الخاصّة، والآن قد قمنا بإطلاق سراح كلّ المسجونين والأسرى والمسبيّين، والّذين يعملون بالسُّخرة في بلادكم، تماشيًا مع الحرّيّات الّتي تحدثت عنها الاتّفاقيّة الّتي وقّعتم عليها بكامل إرادتكم.

التقارب مع فرنسا؛ مناوراتكم للتقارب مع العدو الفرنسي، كانت تقلق بريطانيا العظمى، وتهدد مصالحها وأمنها القوميّ، وأمن مستعمراتها الآسيويّة، وأمن أساطيلها في المحيط الهنديّ، فلقد سمحتم للجواسيس الفرنسيّين أن يعبروا عن طريقكم إلى البرّ الإفريقيّ، وتحت حمايتكم ورعايتكم، ومن ثم يسيطرون على جزر مهايانا الاستراتيجيّة وغيرها، بل وباركتم زواج ملكتها الطيّبة الصغيرة السّنّ من الجاسوس الفرنسيّ، بل وأصبحت أنغوجا مقاطعة فرنسية، ومأوى للجواسيس، وهي إلى اليوم تكتظّ بهم، ولا ندري ما هو حجم علاقاتكم مع الألمان الّذين يمرحون ويعبثون بالبرّ الإفريقيّ الآن، وينشرون المذهب البروتستانتيّ اللّوثريّ الفاسد بين الأفارقة.

لقد حذّركم قنصلنا بأنغوجا وأنذركم من مغبّة التّلاعب

بالمصالح العليا لبريطانيا العظمى، والعبث بأمنها وانتهاك حقوق الإنسان المتمثّلة في تجارة الرّقّ، ولكنّكم تماديتم في المناورة بل وفي تحريض الشّعب ومطالبتهم بحمل السّلاح من أجل محاربتنا، خطبتكم في الجامع كانت قاصمة الظّهر، نطلب منكم الآن التوقيع على اتّفاقيّة الحماية، إنّها تصبّ أيضًا في مصلحتكم. ستصبح جلالتك سلطانًا مدى الحياة على الجزيرة، ولكن تحت التّاج البريطانيّ والحماية البريطانيّة، ولا حق لأيّ قوة كانت أن تزيحكم عن العرش الوراثيّ، إلاّ بواسطة ملكة بريطانيا العظمى الّتي ترعى مصالح الجميع، كما أن الاتّفاقيّة ستبعد عنكم شبح القوى الأخرى، وخاصّة فرنسا وألمانيا وغيرهما من الّذين يطمعون في أرضكم وثرواتكم، بريطانيا تراعي مصالح الشّعوب، وتقوم بترقيتها وتطويرها ماديًا وثقافيًّا، وتحترم أديان الآخرين ومعتقداتهم، وبعض الدّول لا تفعل ذلك.

لم يكن السّلطان يحسّ بالألم، نعم لقد تعافى تمامًا من الجراح البليغة، وأصبح يأكل أيضًا بشهيّة منقطعة النّظير، وهو أيضًا في حالة نفسيّة مستقرّة، بعد أن تخلّص من الكوابيس الّتي كانت تهاجمه عند النوم؛ هجوم المساجين والأسرى والحيوانات، وبعض المخلوقات الغريبة الّتي لم يرها في حياته من قبل، وشبح تيبو تيب، وابنته وهي تغرق في يمّ شاسع، تخلّص من تلك الكوابيس الّتي كانت تحرمه من النوم بفضل عقاقير الطّبيب الهنديّ، ونصائح المعالج النفسيّ الّذي أُحضر إليه خصّيصا من بريطانيا. وما أفاده كثيرًا في تخطّي محنته أنّه اقتنع بفكرة الطّبيب النّفسيّ بأن يتخلى عن نيّته في الانتقام من الّذين تسبّبوا في فقدان أعضائه التّناسليّة، وبصقوا في وجهه، بل

ومسامحتهم وتفهّم دوافعهم ومحناتهم، وأن يجد مبرّرًا مقبولاً لما قاموا به، بل الأبعد من ذلك عليه أن يحبّهم ويباركهم من كلّ قلبه، ويصلّي لأجلهم. الآن يستطيع أن يتحاور مع الإنجليز بصورة طيّبة وأفكار مرتّبة، سألهم بعد أن شرحوا له أسباب الغزو الإنجليزيّ لبلاده، ونواياهم الخيّرة وراء ذلك:

«أفهم جيّدا كلّ الأسباب الّتي قدمتموها، وهي الّتي قادتكم إلى الهجوم العسكريّ على بلادنا أنغوجا، ولكن تدور في ذهني بعض الأسئلة، ومن حقّي أن أجد لها إجابات معقولة؛ أوّلاً: هل حرّرتم كلّ المسبيّين والمستعبدين والخدّام في كل أنحاء العالم؟ هل أعدتم الإيرلنديّين الّذين باعتهم بريطانيا العظمى لأمريكا، وما يزال البحارة الإيرلنديون يتحدثون عنهم ليلَ نهارٍ، وأظنّ ذلك حدث بداية من العام 1650، يتوارثون حكاياتهم من جيل إلى جيل. هل أعدتم المسبيّين الأفارقة والآسيويّين الّذين بنوا المدن البريطانيّة، والموانئ العظيمة، والطّرق والمزارع، وأعطيتموهم حقوقهم، أو اعتذرتم لورثتهم؟ هل راعيتم حقوق المواطنين وأنتم تطلقون مدفعيتكم على الأحياء السكنيّة والقصور الآمنة بأنغوجا؟ هل اعتذرتم للشّعوب الّتي...»

وقبل أن يكمل حديثه قاطعه القنصل البريطانيّ الشّابّ، باحترام مغلف بتبجح ودبلوماسيّة: سيادة السّلطان المحترم، كلّ العالم المتقدّم الآن ينعم بالحرّيّة، ولا يُوجد رقيق، أو مسبيّون، أو أشخاص يعملون بالسّخرة وتحت نير العبوديّة، كما هو الحال في أنغوجا، لقد أصبح ذلك كلّه ضمن إشكاليّات الماضي الّذي لا عودة إليه مُطلقًا،

وذلك بجهد العالم الحرّ الّذي تمثله بريطانيا والدول الصّديقة، ونودّ أن نلفت نظركم إلى شيء مهمّ، بريطانيا العظمى لا تتوقّع منكم أيّ أسئلة، تتوقّع منكم التفهّم والتّعاون التّامّ مقابل الحفاظ على مصالحكم الخاصّة والوطنيّة والقوميّة. نعم ستبقى السّلطان، ولكن تحت التّاج البريطانيّ، أي سيكون هنالك حاكم معيّن من قبل جلالة الملكة، وهو بمثابة مستشار لكم، والحقّ يُقال، لقد فكّر القادة الإنجليز كثيرًا في من يحكم هنا، كما تعلم فإنّ أبناء عمومتكم أيضًا يطمعون في الحكم والتعاون غير المشروط معنا، ولكنّنا نثق فيكم، ونطمع في خبراتكم الطّويلة في الإدارة، ونأمل في أنّكم تتفهّمون مقاصد الإدارة البريطانيّة بصورة جيّدة، ونصيحتي لكم، أن تتجنّب جلالتكم الأسئلة فهي لا تفيد كثيرًا في الوقت الحالي، وأن تنسى الإشكاليّات الزمانيّة فقد تجاوزها الواقع، والسّياسيّ المحنّك هو الّذي يبدأ دائمًا من الآن، لا من الأمس، ويقرأ التّاريخ فقط من أجل التّسلية، لا من أجل نصب المشانق، وتشكيل المحاكم لجناة تيبسوا في قبورهم، وذلك إذا أردتم البقاء في السّلطة لفترة أطول، وعليكم أيضًا مراعاة مسألة تحسين اللّغة، وهذا سنتحاور فيه مرّة أخرى.

صمت السّلطان لفترة قصيرة، ثمّ قال:

«أتفهّم كلّ ذلك.»

تحدّث قائد الجيش البريطانيّ، قائلًا: «سنقرأ اتّفاقيّة الحماية، ولدينا نسخة منها بالسّواحيلية أيضًا، حتى نسهّل لكم استيعابها قبل أن توقّعوا عليها، وسترون أنّها تتضمّن كثيرًا من الخير لكم ولبلدكم، كما تضمن الحفاظ على مصالح بريطانيا العُظمى بالطّبع.»

قال له السّلطان وهو يحاول أن يخفي حنقه، إلاّ أنّ غضبه كان بيّنًا وواضحًا للعيان، ولا تخطئه عيون دهاقنة السّياسة البريطانيّة المجتمعين لمحاورته، فقد كانت نبرات صوته حادّةً وعدوانيّةً إلى حد كبير:

«لا أحتاج إلى استيعابها، سأوقّع عليها الآن ومباشرة.»

ابتسم القنصل الشّابّ متجاهلًا بوادر الغضب الظّاهرة على وجه السّلطان:

«نعم هذه بداية مشجّعة جدًا، نشكر لكم تفهّمكم وثقتكم في بريطانيا العُظمى، وملكتها الّتي اطّلعت شخصيًا على هذه الاتفاقيّة وراجعتها بدقّة، وكان همّها الأكبر، إلى جانب المصالح البريطانيّة العليا، هو مراعاة مصالحكم الوطنيّة، حسنًا وقّع الآن كسبًا للوقت، ونزولاً عند رغبتكم في التّوقيع الفوريّ على الاتفاقيّة، وسأقوم فيها بعد بشرحها لجلالتكم بالتّفصيل: كلمة كلمة.»

العميان

سيذهبون إليها، إنّها السّيّدة الوحيدة الّتي تمتلك ما يُسمّى بالبيت الخاصّ، وهو في مكان على ساحل المحيط يعرفه الجميع، ولم يجدها فيه أحد، بيتُها جزءٌ من أسطورتها، وأوهورو هي الوطنيّة الوحيدة الّتي ليس لديها ارتباط فعليّ بمؤسّسة الرّقّ، تكسب رزقها مما يهبه لها المارة، وهم يستمتعون بغنائها، أو يعجبون بجسدها الراقص، حرّةٌ مثل الريح، وطليقة كطيور النّورس الّتي تملأ أفق المحيط بالرّفرفة.

عندما خرج المساجين من قبو القصر، واجهتهم الشّمس السّاطعة الحارقة، والضّوء الحارق شديد الألم عند سقوطه على أعينهم، كانوا جميعًا، ما عدا مُطيع، عُراةً حُفاةً جاحظي المُقل وشبهَ عُميان، يضعون يدا بين أفخاذهم لستر عوراتهم من أعين المارة، ويدا أخرى على أعينهم تجنّبا لأشعة الشّمس وضوئها، ويسيرون متماسكين خلف مُطيع، وهو يمضي بهم إلى وجهةٍ فكّروا فيها جميعًا، واتّفقوا عليها بالإجماع، وكذلك لم يكن لديهم خيار آخر غيرها، وهو بيت المغنية أوهورو أو كهفها أو كوخها.

كانوا مرهقين، يحسّ كل واحد منهم بالإعياء يدبُّ في أوصاله، ولو أنّهم يخفون عُريهم بأكفّهم، ولكنّ ما يهمّهم أكثر، ويوجعهم هو ملمس الأرض الحارقة تحت أقدامهم الحافية إذ أصبحت ناعمة وليّنة بفعل الحبس الطّويل بمكان رطب شحيح الضّوء، لذا كانوا يمشون على أطراف أصابعهم، ويحتمون بظلال الحيطان والأشجار على الطريق، لم يلتقوا أحدًا، كانت الشّوارع شبه خاوية، المواطنون والسادة يضعون جميعًا أياديهم على قلوبهم، وبعض فيالق الجيش الإنجليزيّ تنتشر هنا وهناك.

وحده السّلطان كان يتوقّع الهجوم الإنجليزيّ المباغت، وتجاهل إنذار القنصل، ولم يتبع نصيحة عشيقه البريطانيّ، حين قال له بوضوحٍ قبل يومين من الهجوم: اطلب القنصل البريطانيّ بأسرع

ما يمكن، واطلب منه أن تضع بريطانيا العظمى أنغوجا تحت حمايتها، وستكسب الكثير. وهمس له بخطة الإنجليز في الهجوم، وبأنّهم جادون ومستعجلون، في سباق محموم مع الفرنسيين الّذين سيفعلونها إذا لم يفعلها الإنجليز قبلهم، وهم لا يريدون أن يدخلوا في حرب عسكريّة ضد الفرنسيّين بخصوص جزيرة صغيرة تافهة، ليست لها أهمية غير موقعها الإستراتيجي.

ولكنّ السّلطان لم يتخيّل أنّ البريطانيّين سيرجمونه في قصره رجمًا، كان يتوقع زحفا من مشاة البحرية نحو المدينة، أو حصارًا لها يتمّ من خلاله التّفاوض والمساومة بالحجج الدّبلوماسيّة والسّلميّة ومنطق المصالح المشتركة، وليس تفاوضًا وحشيًّا بالمدافع، بل لم يتخيّل مطلقا أنهم سيهدمون قصر الحكم الّذي يقيم فيه بهذه القسوة، وفيه نساؤه وخُدّامه ولوطيّوه.

فرّ كثير من المواطنين إلى الغابات المجاورة، وبعضهم التزم بيته، ولم يقم جنود السّلطان بأي مقاومة تُذكر، بل استسلموا طائعين، لقد أذهلتهم المفاجأة، لذا كان أول المارين في الطرقات من المواطنين هم السجناء البائسون، يقاومون حرّ الشمس تحت أقدامهم، وعلى رؤوسهم، وفي أعينهم، وعلى بشرتهم العارية، لا يعرفون تفاصيل الطّريق، طالما كان مُطيع يعرف أين يُوجد كوخ الفتاة المغنّية أوهورو فهذا يكفي. ربّما راقبتهم بعض الأعين من خلف الأسوار، الأعين المتطلعة لمعرفة ما يجري في المدينة، وقد اعتبرهم البعض مخلوقاتٍ غريبةً أتت بها السّفن الإنجليزية الّتي أطلقت القذائف، ربّما كانوا من الجنّ، أو أكلة لحوم البشر، أو سحرة يستعرضون مقاومة أجسادهم

للأسلحة النّاريّة، أو نفرًا من الزّومبي، يمشون عُراةً بطريقة غريبة، ويبصرون بصورة شاذّة، ويتحاشون الشّمس، هذه هي صفات الزُّومبيّ كما يُحكى عنه، ولكن لماذا أتى الإنجليز بالزّومبي؟ وإلى أين يقودهم خادم السّلطان مُطيع الّذي يَعرفه الجميع؟!

لم تكن علاقة أوهورو بمطيع متميّزة، بل في الواقع ليس هنالك ما يمكن أن يطلق عليه اسم علاقة بينهما. لم يتحدّثا من قبل، كان لكل منهما عالمه وحياته المنفصلة، ربما يجمع بينهما أصلهما الإفريقي. كان هو أحد الخدّام المطيعين الّذين لم تحدّثهم أنفسهم بالثّورة، لقد تمّ تدجينهم بصورة تامّة، وتمّ ربط طاعتهم وعبوديتهم بأقوالٍ وأحاديثَ مقدّسةٍ نسبت إلى الرسول العربي، ولذا تمّت محاصرتهم أخلاقيًّا وقيميًّا ودينيًّا في الحياة الدنيا بأنغوجا، أو عندما ينتقلون بعد الموت إلى الحياة الأبديّة، فإما أن يكونوا عبيدًا طائعين خانعين، وبذلك يدخلون الجنّة، أو آبقين ثائرين متمرّدين عاصين ويدخلون الجحيم إلى الأبد، أمّا أوهورو فكانت من القلة الّتي استعصى على السّادة تدجينها، بل لقد كانت تغنّي ما تشاء، وترقص كما تريد، ويحمل فنّها وجسدها إشارات الثّورة، ولكنّ السّادة يخافونها، أو يتجاهلونها، ولعلّهم قنعوا بخير ما فيها، وخيرُ المرأة في أنغوجا يقبع بين ساقيها فقط.

سيذهبون إليها، إنّها السّيّدة الوحيدة الّتي تمتلك ما يُسمّى بالبيت الخاصّ، وهو في مكان على ساحل المحيط يعرفه الجميع، ولم يجدها فيه أحد. بيتُها جزءٌ من أسطورتها، وأوهورو هي الوطنيّة الوحيدة الّتي ليس لديها ارتباط فعليّ بمؤسّسة الرّقّ، تكسب رزقها ممّا يهبه لها المارّة، وهم يستمتعون بغنائها، أو يعجبون بجسدها الراقص، حرةٌ

مثل الريح، وطليقة كطيور النّورس الّتي تملأ أفق المحيط بالرّفرفة.

«إذن.. سنذهب إليها، ولِمَ لا؟»

عبروا ما كان يُسمّى سُوقًا مكتظة بالباعة والمشترين فيما سبق، الآن لا أحد فيها، ولا وجود حتّى للكلاب الّتي كانت تتجمّع قرب الجزارة، لقد أرعبها دويّ المدافع، فاعتصمت بالمباني المهجورة أو المجاري أو الغابة المجاورة. عبروا سوق العبيد، كانت خاوية وفارغة تمامًا، ولو أنهم كانوا يسمعون همهمات المسبيّات من داخل بنايات العُشب المنتظمة على جانب الطريق، وهي عبارة عن مخازن مؤقّتة للرّقيق من النّساء والمخصيّين، يتمّ تسمينهم فيها وتزيينهم، ومسح بشرتهم بزيت النّخيل، وأحيانًا يقوم بعض المختصين بصنع علامات الجدري الزائفة على أجساد السّبي، حتى يوهموا المشترين بأنّ سبيهم مصون من ذلك المرض الخطير، وبذلك يفاوضون على سعر أعلى، المسبيّات كعادتهن لا يكففن عن الضّجيج والعويل والضّحك أيضًا، عبروا مساحة خالية من المساكن، فيها بعض شجيرات النّبق والعشب الجاف، ليست بعيدة عن النّهر، كانت تستخدم في دفن البقايا الآدمية، ورمي جيف الحيوانات النّافقة، وتتناثر عليها هياكل الحمير والكلاب والقطط الميّتة، وفيها أيضًا جثثٌ أخرى تتعفّن تحت أشعّة الشّمس، رائحة المكان نتنة وأرضها رمليّة حجريّة جيريّة، تتخلّلها أشواك صغيرة متناثرة، وهي ثمار نبتة الحسك، كانت تخز أرجل السّجناء الطريّة بقسوة وتؤلمهم وتعيق تقدّمهم، وعلى مُطيع نزع الشّوك من أرجل الجميع، لأنه الوحيد القادر على الإبصار بصورة طيّبة، ولا تؤذيه أشعّة الشّمس، وكان يرتدي حذاءً عربيًا من

جلد الأبقار، وعلى جسده ملابسه المتّسخة الّتي كانت فاخرة ونظيفة قبل أن يُرمى به في السجن، تقيه الآن أشعّةَ الشّمس وعيبَ العري.

صعدوا تلاً صغيرًا من الرّمل والحصى، وحسب معرفة مطيع بالأمكنة، استطاع أن يحدّد اتجاه الكوخ. إنّه في اتّجاه الشّرق غير بعيد عن التلّ، بالقرب من جرف صخريّ كبير، بعد مسير ساعتين من الزّمان. على الرغم من أنّ الكوخ ليس بعيدا، إذ تعبر إليه أوهورو في نصف ساعة، فإنّ المساجين المتعبين المنهكين أنفقوا ساعتين قبل أن يقفوا عند بنايته الصغيرة من الحجر الجيريّ والطّين والعُشب.

الكوخُ مشيدٌ تحت ظلّ صخرة جيريّة عملاقة تنتهي في المحيط، تمتد ما يزيد عن ميل كامل، في مساحة خالية من الأشجار والأعشاب الطويلة الموسميّة، تعبث ببقاياها الجافّة ريح خفيفة رطبة لها طعم الملح ورائحة الأسماك، آتية من جهة البحر، ويمكن مشاهدة أشجار المكونازي شبه الجافّة في كل الاتّجاهات، إذ يُمنع رسميًا وشعبيًّا وعقديًّا قطعها، لما يحيط بها من حكايات غيبيّة وأسطوريّة، والبعض يظنّ في قدسيّتها، ويعتبرها من أشجار الجنّة، وليس ببعيد عن موقع الكوخ، ولكن في جهة هبوط الجرف الصّخري، تنمو شجرة تبلدي عملاقة، تبدو كسفينة شراعية ضخمة غارقة بين الصخور.

الكوخ مطليّ من الخارج بالطّباشير الأبيض، وعلى الجدران رسومات لأفارقة قرويّين أحرار يرقصون، وزنجيات يحملن على رؤوسهن سلال الفاكهة وجرار الماء، وتوجد أيضًا رسومات تمثّل بعض المسبيّين، وعلى أعناقهم وأرجلهم تضرب جنازير من الحديد الثّقيل، بينما يمضي خلفهم رجل أبيض وفي فمه غليون كبير، وهو

يمسك سوطًا طويلًا بإحدى يديه. حول الكوخ سياجٌ من الحجر الجيري منخفض الارتفاع، لا يمنع رؤية الكوخ كاملًا، للسّياج بابٌ صغير من الخشب والحديد، وقد كان الباب مواربًا.

بدا لهم المكان مأهولاً بالسّاكنين، لاحظوا ذلك من أثر الأقدام الكثيرة الحافية على الرمل قرب الباب، ومن الأصوات الكثيرة المتناهية إلى مسامعهم من داخل الكوخ، واهنةً كأنها كانت تنبثق من تحت الأرض. وقف المساجين عند البوابة وهم يحاولون الرّؤية عبر عمش بصرهم، ويحركون أرجلهم بطريقة متواصلة تجنّبًا لسخونة الرّمال المشويّة بالشّمس، تردّد مطيع قليلًا قبل أن يصيح بصوت جهوريّ:

«جامبو جامبو.»

صمتت الأصوات الآتية من الدّاخل فجأةً، فلم يبق غير صفير الرّيح الرّطبة وهي تداعب الرّمال والصّخور، فصاح مرة أخرى:

«جامبو جامبو.»

فردّ عليه صوت أنثويّ من الداخل:

«جامبو سانا.»

ثم بعد صمت قصير، أضاف الصوت بترحاب:

«كاريبو كاريبو.»

فتقدّم مطيع جماعة المسجونين وهم عشرة من الرّجال العراة، صُفْرُ البشرة، كثيفو الشّعر وعُمْشٌ، كانوا يتبعونه كالمنوّمين. انفتح باب الكوخ الداخلي، وقد سبق ذلك صوت أشبه بالصرير، واندهشوا إذ عندما

ولجوا الكوخ لم يجدوا فيه أحدًا، كان فارغا تمامًا من البشر، ودارت أعينهم في الحجرة المستطيلة الرّطبة، سيّئة التّهوية كما القبو، ولكنّها جيدة الإضاءة لدخول أشعّة الشّمس عبر الباب، لم يروا سوى الرّسومات على الحيطان، وبعض النّحت على الصّخور، وبعض جلود الحيوانات معلّقةً على مسامير، وتصدر منها رائحة نفّاذة، هنالك بعض الأحذية العربية القديمة المصنوعة من الجلد، أسماك جافّة معلقة من أجل التّهوية، أرض الكوخ نظيفة جدّا، ومفروشة بسجّاد محلّي مصنوع من السّعف الملوّن، أقرب إلى الأسلوب العربيّ، وعلى الأرض، في أحد أركان الغرفة، يوجد الطّبل ذو الدّعامات الثّلاث، يعرفونه جميعا جيدًا، عليه مطرقتان من الخشب، وهي إجماليّ الآلات الموسيقيّة للمغنّية أوهورو.

لم يكونوا بالغباء الّذي يجعلهم يصدّقون بأنه ليس هنالك أحد في الغرفة، على الرّغم من القصص الّتي يتداولها الناس عن استحالة إيجاد المغنّية أوهورو في كوخها، كانوا يشعرون بأنّ هناك عيونًا تراقبهم، ونظرة العين تمسّ الجسد مثل لسعة الشّمس، صاح مطيع في ارتباك:

«جامبو جامبو.»

نمى إلى مسامعهم صوت الضّرير الّذي سمعوه في المرة السّابقة، ثم انزاح أحد الجلود من الحائط، وأطلّت أوهورو جميلةً كعادتها وعادة جسدها ذي الصّدر العاري، وحول خصرها قطعة من جلد التّيس ناعمة، وهي بلون الجلد الأصليّ، تعرّفت على مُطيع مباشرة، وسألته عمّن بصحبته، قال لها:

كانوا مسجونين تحت الأرض، لذا هم عُراة وألوانهم باهتة، ولا

يبصرون جيّدًا في ضوء الشّمس، وليس لديهم مكان يذهبون إليه، لهذا نحن هنا.

قالت وهي تنظر إليهم بحزن:

«الكثيرون أتوا إلى هنا، تفضّلوا.»

ومن خلف الجلد، عبر مدخل صغير يسمح للشّخص بالمرور منه منحني الظهر والرجلين، دخلوا إلى حجرة متّسعة وشاسعة، بها عشرات الأطفال والنساء والرجال، إنّها أقرب إلى بهو عظيم، يمتدّ إلى ما لا نهاية، وبدا واضحا نتيجة لعبق الريح ورطوبتها، وسماعهم هدير الأمواج، أنّ الكهف ينتهي بالمحيط، وقالت لهم أوهورو فيما بعد: إنّها تستطيع في هذا المكان سماع صرخات السّبي وآهاتهم في بعض فصول السّنة، ويبدو أنّه كهف طبيعيّ قديم، ربما استخدمه القراصنة في عصور سحيقة من أجل الاحتفاظ بالسّبي إلى حين ترحيلهم، أو جَعْله مسكنًا لهم، أو مخزنًا للمسروقات.

قالت لهم بصوت مبحوح وهي تشير بيديها إلى من في الداخل:

«نحن أبناء الأرض، نتخفّى في الأوكار، ويسكن الغرباء القصور، ولكنّ لكلّ شيء حدودًا.»

ردّ سجينان في وقت واحد:

«نعم، لكلّ شيء حدود.»

أضاف مُطيع:

«الإنجليز سينهون حكم العرب في الجزيرة.»

قالت أوهورو وعلى فمها ابتسامة مربكة :

«الإنجليز أسوأ، والألمان أسوأ منهم، والفرنسيّون لا فرق بينهم وبين الإنجليز، كلّهم يريدون الاستيلاء على بلادنا، إنّهم لا يتردّدون في القتل إذا شعروا بأنّ هناك من يهدّد مصالحهم، علينا أن ننهي حكم العرب والإنجليز وغيرهم بأنفسنا، يبدو أن السّلطان استسلم الآن!»

قال لها أحد السّجناء، وهو يحاول انتزاع شوكة صغيرة من باطن قدمه:

«لقد خصيناه!»

صرخت مندهشة:

«خصيتم السّلطان، هل أنتم جادّون؟»

قال لها مطيع:

«نعم، دققنا مذاكيره بمؤخّرة بندقيّة الحرس على أرضيّة السّجن الصّخريّة، إلى أن سوّيناها بالأرض تمامًا، أظنّه سيموت من جرّاء ذلك، وإذا بقي حيًّا فإنّه لن يستطيع استخدام ذكره إلاّ للتّبوّل.»

قالت، وهي غير مصدّقة، تغالب ضحكة ارتسمت على فمها:

«خصيتم السّلطان نفسه؟!»

قال لها سجين عجوز مريض:

«لقد كنّا متأكّدين من أنّ الّذي خصيناه ليس شبح السُّلطان، فالشّبح لا يستطيع الصُّراخ كما صرخ السّلطان، والشّبح لا يسهل خراءً عفنًا كما فعل المخلوق الّذي خصيناه.»

عندما انتهت موجة الضّحك، طلب الجميع أن يستمعوا إلى

القصّة في الحال، بكامل تفاصيلها، فحكى لهم السّجناء القصّة، وقد التفّ الأطفال والرّجال والنّساء من حولهم صامتين.

سألت امرأة:

«سمعنا أنّكم جميعا قُتِلتم بعد أن عُذِّبتم وبال عليكم السّلطان شخصياً.»

قال لها سجين:

«لو لا مطيع الّذي كان يطعمنا عن طريق الحرّاس الطّيّبين، لقضي علينا جميعًا. لقد كان الحرّاس من الوطنيّين، إنّهم من قبائلنا ذاتها، واثنان منهم من أسرتي، أنا عمّهم، السّلطان لا يعرف ذلك، بل إنّه لا يعرف أين موقع السّجن.»

سألت سيّدة أخرى أحد السُّجناء وقد اقتربت منه كثيرًا:

«أنت جمعة كومبا، أليس كذلك؟»

قال لها:

«نعم، أنا هو.»

قالت له وهي تقترب منه أكثر:

«لقد كنت أحد حرّاس السّلطان.»

قال لها بصوت مخنوق:

-نعم.

قالت وهي تهجم عليه صارخة:

«لقد قتلت زوجي، أنت قتلته بيديك، والآن عليّ أن أقتلك، عندما سمعت بموتك فرحت جدًّا، وظننت أنّ الله بإمكانه أن

يعدل بين النّاس، ولكنّك تعيش هنا بيننا، عليّ أن أقتلك الآن.

فرّق الآخرون بينهما، وانتزعوه من بين أظفارها وأسنانها، وكان السّجين جمعة كومبا يردّد في بؤس:

«سامحيني، فلقد كنت عبدًا حقيرًا، لا إرادة لي، أمرني السّلطان بأن أقوم بعملية الإعدام بعد أن حكم عليه بالموت، سامحيني، لقد أعدم السّلطان زوجتي وأبنائي أيضًا، كلّنا ضحايا السّلطان، سامحيني.»

سقطت المرأة على الأرض وهي تبكي بحرقة، سحبتها أوهورو بين أحضانها، وأخذت تتحدّث إليها، إلى أن هدأت تمامًا.

ثمّ تحدّث إليها البعض وقالوا لها:

«إنّ القاتل الفعليّ هو السُّلطان، هذا الشّخص غير مسؤول عن قتل زوجك، ولم تكن هنالك مشكلة بينهما، بل هو أُجبر على التّنفيذ.»

قالت المرأةُ من بين دموعها:

«لقد رأيته بأمّ عيني يقتله، كان ذلك أمام الجميع.»

قالت لها أوهورو بطريقة صارمة:

«عليك قتل السّلطان إذا أردت الانتقام لزوجك، ولكن ليس قتل ذلك الرّجل المسكين، سأجعلك تفهمين فيما بعد، كلّ ما يحدث مسؤوليّة السّلطان، ولا تتردّدي في أن تسامحيه، إنّه ابن شعبك وأخوك.»

فيما بعد، بعد ما لا يزيد عن عامين، ومن غرائب الحياة الّتي لا

تكفّ عن المفاجآت، تزوجت هذه السيدة السجين الّذي نفذ أمر قتل زوجها، وبذلك يصدق الكثير من المعتوهين إذ يقولون إنّ الكراهية هي مسخ الحُبّ.

قامت أوهورو وحدها بوضع الصخرة على فتحة الكهف عن طريق رافعة من الخشب القوي الّذي يستخدم لبناء المراكب، وعلى الرغم من كبر الصخرة، فإنّ عملية تحريكها بواسطة الرافعة كانت سهلة جدًّا، ما يساعدها على مراقبة الكوخ الخارجي والمناورة بمكر والتحكم في درجة الإغلاق، والآن فهم مطيع ورفاقه من المساجين صعوبة اصطياد أوهورو في كهفها، لماذا لا يجدها اللصوص والمغامرون الشبقون، والعُشاق من السادة الّذين لا يترددون في ممارسة الجنس مع كل من تشتهيه أنفسهم، وهي تشتهي في الواقع كل نساء الكون وغلمانه. فهموا كيف تفلت من البحارة المعجبين بها أثناء مرورهم في السوق حيث تغني وترقص، ومن ثم يتبعها أحدهم إلى حيث تقيم، وعندما تدخل كهفها يختفي أثرها، ويعود العاشق خائفًا خائبًا، وعندما يحكي قصته معها في الواقع فإنه يضيف إلى أسطورتها بعدًا جديدًا، لأنها تقبع خلف صخرتها عند عمق الكهف في مضجعها الآمن.

أوهورو هي ابنة لزعيم وساحر قبلي شرس جدًّا، وجدودها من أوائل الّذين قاوموا الغزو البرتغالي قبل بضع مئات من السنين في البر الإفريقي، ولكنهم خضعوا أخيرا لسلطة البرتغاليين، واعتنقوا المسيحية، فتخلوا منذ أجيال كثيرة عن السحر، وأحبوا المسيح بالطريقة الّتي قدمها لهم البرتغاليون، وعندما ذهب البرتغاليون

بعد هزيمتهم من قبل العرب العمانيين، تخلّوا هُم أيضًا تدريجيا عن المسيحية، وعادوا إلى عباداتهم الوثنية، ولو أنهم حافظوا على كثير من الطقوس الكاثوليكية في ممارسة حياتهم اليومية. إذن نشأت أوهورو في أسرة متعددة الثقافات، ولديها معرفة بالكتاب المقدس ولو قليلة، ولكنّها تأثّرت بصورة كبيرة جدًّا بوالدها الزّعيم السّاحر والمحارب الشّرس موسى، وتعلّمت منه كيف تكون مستقلّة وحرّة أيضًا. والأهمّ هو كيف تحافظ على حرّيّتها، لا بالسّلم والتّسامح كما تعلّم جدوده من المسيح، بل بالمكر والعنف والسّحر، علّمها أنّ كلّ الأنبياء طيّبون، ولكنّ أتباعهم أشرار، فإذا شئت العيش بينهم، فلا بدّ من أن تكوني أكثر شرًّا منهم وألعن.

قُتل والدها في حروب طويلة ضدّ جيش «الضبع الأرقط» المسلّح جيّدًا بالحراب الّتي تطلق النّار، وتمّ أسر عدد هائل من شعبه، ولكنّها استطاعت أن تهرب من الأسر، واختفت في الغابات المجاورة لفترة من الوقت، تعيش مثل الوحوش وبينها، حتّى قرّرت أن تأتي إلى مدينة أنغوجا، وكر الشر نفسه، وتبقى هنالك حُرّة بالطّريقة الّتي تعلّمتها من والدها وفاءً له، وهذا تحدّ تمكّنت من تحقيقه.

فأوّل ظهورها كان في السّوق يوم جمعة، بعد أن فرغ المسلمون من طقوس الصّلاة، عند الطّريق المؤدّية إلى كارة العبيد، شُوهدت شبه عارية، ترقص وتضرب الطّبل في جنون وتغنّي:

«أنا السّاحرةُ ابنة الشّيطان..

من يقترب منّي هَلك..

جئت من الجحيم وإليه سأعود..»

وفي مجتمع يخاف السّحرة، ويؤمن بهم أكثر ممّا يؤمن بالله، لم يحاول أحدهم أن يلمسها، ولو أن بعض النخّاسة قدّروا سعرها في السّوق بمبلغ كبير، وتمنّوا قبضه. فهي مال سائب بغير سيّد، واشتهاها الفاسقون وحلم بها العُشّاق السّكارى، واستمنى على إيقاع جسدها البحّارة المحرومون.

أمّا هي، فكانت تحلم بحرّيّة شعبها، وتحلم بالزّعامة والملك. تريد أن تقود جيشًا، وتحكم شعبًا، وتهزم أعداءها وتسترد أرضها. وهذا ما لم تقله لأيّ إنسان، ولو أنها لَمّحت إليه في هذا اليوم وهي تخاطب المستجيرين بها وبكهفها، قائلة:

«علينا أن نصبح أمّة..

شعبًا حرًّا طليقًا كما كنّا منذ أن خلقنا الرّبّ..

وهذا طريقٌ طويلٌ، ولكنّ كلّ الطرق الطويلة تبدأ بالمشيئة، بالإصرار..

وعندما تضع رجلك على الدّرب فقد وصلت..»

من هذه الجمل البسيطة، انطلقت شرارةُ ثورةٍ لم تثمر إلا في العام 1964، بعد موت المغنّية أوهورو بأعوام كثيرة، ونشأت حول هذا الكوخ أوّل حلّة إفريقيّة من المعتوقين والوطنيّين والفقراء من العرب المهاجرين، وسُمّيت أوهورو، الحرّية.

الخراب

أصبحت المسالخ دون لحوم، الحيوانات طليقة، والمزارع مهملة وجرداء، ليس فيها سوى مدراء من فقراء العرب والخُدّام المأزومين، يحملون سياطًا حزينةً مصنوعةً من جلد فرس البحر أو الخيزران والقنا والعرد، تتدلى من أياديهم في بؤس، مثيرة للشّفقة، لأنها لا تستطيع أن تضرب أحدًا، لا تستطيع أن تأمر أحدًا، أو تخيفه، ولا تصلح لتأديب المسبّيين المارقين الآبقين المتمرّدين التّافهين، المسبّيين الموصوفين بالكسل والمكر، وفي الحقيقة ينهضون وحدهم بأعباء كلّ شيء.

جنازير الحديد، المطارق، السّندانات، الكلاّبات، الأطواق الّتي كانت تُستخدم للتّعذيب والتّأديب، ترنّ في حزنٍ عندما تلقي عليها الرّياح بعض الحصى، مداعبة أو ساخرة أو شامتة.

توقّفت الحياة في مدينة أنغوجا بصورةٍ تامّة، منذ اللّحظات الأولى لدخول قوات الإنجليز إليها. أعلنوا أن الجميع أحرار، فترك الخدام المسبيّون الأسرى مواقعهم على الفور..

الخبّازون الّذين استيقظوا مبكّرين للعمل في الأفران الحارقة، لصنع الخبز للسّادة، تركوا العجين في الأحواض الخشبيّة، والنّار مشتعلة في الأتون وخرجوا.

الحدّادون، صانعو السيوف والمدى والأوعية المعدنيّة، صانعو الجنازير الّتي يتمّ ربطهم بها، نافخو الكير، نهضوا من مقاعدهم الخشبيّة الّتي أصبحت جزءًا من أجسادهم، تحرّروا من الجنازير الملتفّة حول خصورهم وأرجلهم، وخرجوا.

صانعو الفخّار من الدّبال والطّين، الطّوابة، تركوا الكمائن الّتي كانت على شواطئ الأنهار، تنفّسوا الصّعداء وخرجوا، ملطّخي الأرجل والأيادي بالطّين، لا وقت لهم لغسلها.

الطّحّانون الّذين يطعمون المدينة بأياديهم الخشنة، ذات الأظّفار الطّويلة المتّسخة، يديرون مطاحن الحجارة وبطونهم خاوية، وأياديهم مدمّاة، ورئاتهم مشحونة بغبار الدّقيق. الطحّانون غالبا ما يموتون بالسّلّ وداء الرئة لا علاج له غير الموت البطيء، حملوا أجسادهم النّحيلة المتعبة وهم يكحّون في ألم، وخرجوا، وجوههم وشعورهم

بيضاء بلون الدّقيق.

عمّال الزّبالة وحاملو الخراء، تركوا كلّ شيء متعفّن في مكانه، بقي براز السّادة في جرادل الزنك، ثمّ سال على الأرض، صنع أنهرا من الوسخ الآدمي، لم يعد هنالك من يحمله إلى العراء ليتخلص منه بالدّفن، فتكاثرت عليه جيوش الذّباب والخنافس والدّيدان، وتحوّلت رائحة المدينة الّتي كانت شميم الصّندل والقرنفل واللّبان، إلى العفن الخالص.

لم يجد الموتى من يحفر لهم قبورًا، إذ تحتاج الأرض الصّلبة إلى من يدقّ عليها المعول، وهو عَمَلُ الخدّام بطبيعة الحال، فالسّادة من حقّهم الموت، ومن حقّهم أيضًا أن تكون القبور محفورة وجاهزة، والصّلاة على أجساهم الميّتة بواسطة سادة آخرين.

أصبح الصياغ الهنود دون عمل؛ لقد تخلّص نافخو الكير من قيودهم.

أصبحت المزارع خاوية على عروشها، تعبث بها القرود، وتلتهمها الغزلان والأرانب، فلقد ذهب الخُدّام السّود الّذين كانوا يعملون بالسّخرة إلى حيث يشاؤون.

من يبيع الخضروات؟
من يصنع الطّعام؟
من سيورد ماء الشّرب النّقي من البئر أو النّهر البعيد؟
من ينقل الحاجيّات على ظهر محدودب؟
من ينظّف أحذية السّادة الأنيقة الغالية الأثمان؟

من يحيك الملابس، من الّذي يغسلها ويكويها؟
من يخلّص شعور السّادة من القمل؟
من يحلق شعورهم؟
من يأخذ الأطفال للّعب وينتظرهم وهو في غاية الملل؟
ومن يغنّي ويرقص ليُنعش سهرات السّادة الماجنة؟

استرخت أجساد النساء المسبيّات مملوكات اليمين واستراحت. واسترحن من الاستحمام المتكرر خلال اليوم بين كلّ نجاسة ونجاسة، استرحن من تَصنُّع الحبّ لكلّ من شاء مضاجعتهن من أسرة السّيّد؛ الأب والابن والجد والضّيف.

من الّتي تُطعم جسدها لفحش السّادة؟
من الّذي يُطعم الحمير؟
من الّذي يُطيِّعُ الحُمرَ المستنفرة؟
من الّذي يسقيها في النّهر ويغسلها؟
من الّذي يصنع السُّروج؟
من الّذي يجلب حطب الوقود من الغابات البعيدة على ظهره؟
من هو القصّاب؟

أصبحت المسالخ دون لحوم، الحيوانات طليقة، والمزارع مهملة وجرداء، ليس فيها سوى مدراء من فقراء العرب والخُدّام المأزومين، يحملون سياطًا حزينةً مصنوعةً من جلد فرس البحر أو الخيزران والقنا والعرد، تتدلى من أياديهم في بؤس، مثيرة للشّفقة، لأنّها لا تستطيع أن تضرب أحدًا، لا تستطيع أن تأمر أحدًا، أو تخيفه، ولا

تصلح لتأديب المسبيّين المارقين الآبقين المتمرّدين التّافهين، المسبيّين الموصوفين بالكسل والمكر، وفي الحقيقة ينهضون وحدهم بأعباء كلّ شيء.

جنازير الحديد، المطارق، السّندانات، الكلاّبات، الأطواق الّتي كانت تُستخدم للتّعذيب والتّأديب، ترنّ في حزنٍ عندما تلقي عليها الرّياح بعض الحصى، مداعبة أو ساخرة أو شامتة.

توقّفت مراكب الصّيد عن الإبحار، وبقيت على الشّواطئ، لا شيء فيها سوى بقايا أسماك تتعفّن، تطعمها طيور النّورس السّعيدة الحرّة، والبجعات الخجولات، والقطط الضّالّة.

ونامت الأسماك في طمأنينة وهي لا تدري السّبب.

استراحت الغزلان والأرانب من وقع الشّراك على قوائمها، وصرير السّكاكين على أعناقها، واستراحت لحومها من مضغ الأضراس.

تعفنت الفاكهة على أغصان الأشجار الطّيّبة.

احتفلت القرود والسّناجب بولائم مجانيّة شهيّة دون مغامرات أو تلصّص، دون مطاردة الحراس وصفيرهم وأسهمهم القاتلة.

ارتاح المسبيّون الأسرى من قول: سيدي.

فالحرُّ سيّد نفسه.

استراحوا من قول: نعم.

فالحرّ لا يقول نعم إلاّ بإرادة أجنحته.

المباني الّتي سقطت، بقيت على الأرض، متناثرة حطامًا.

المساجد الكبيرة الأنيقة المزيّنة المعطّرة أصبحت الآن أقرب إلى المزابل، إذ لم يعتد السّادة الأتقياء تنظيفها والاهتمام بها، ولو أنهم يؤمنون بالقائل الكريم: «النظافة من الإيمان»، إلاّ أنّ النّظافة كانت في أنغوجا من عمل الخدّام الأسرى المسبيّين.

صار الليل أكثر ظلامًا، وتحرّرت المصابيح من سنخ الزّيوت وحريق الاشتعال وعبث أيادي الخدّام الخشنة.

السّادة الّذين كانوا يهتمّون بمظهرهم الأنيق، وثيابهم النّظيفة، وأحذيتهم اللاّمعة، صاروا الآن كالمتسوّلين؛ غُبرًا شُعثًا، تفوح من آباطهم روائح العرق، ويمرح القمل في أثوابهم وأجسادهم.

تكوّمت الأوساخ على الطّرقات، وصارت ولائم للقطط والكلاب الضّالّة، في معركة مع الغربان والنّسور. ظهرت في المدينة فئران كبيرة الحجم، كانت في السّابق تخشى الشّراك وعصا الخُدام وحجارتهم. فصارت تتجوّل في الطّرقات العامّة، وبين الأزقّة، وفي البيوت في خيلاء.

كادت المدينة أن تصبح مزبلة كبيرة، لولا أنّ «الحاكم الإنجليزيّ» أمر السّلطان بإنشاء مصلحة الصحّة العامّة، وجنّد لها عمّالا من العُتقاء بأجور شهريّة، على السّلطان أن يوفّرها من دافعي الضّرائب، ومن خزائن سلطنته المكدّسة بما لا يعلمون، إذ يظن الإنجليز أنه فاحش الثراء، ويخبئ قدرًا كبيرًا من الذهب وريالات ماريا تريزا في مكان ما لا يعلمه إلا هو والشّيطان.

كثر عدد اللّصوص والمتسوّلين وأصحاب الحاجات والسّحرة والفكيان والأنبياء الكذبة، لم تكن هناك خطّة للعتقاء فيما يفعلونه

بحياتهم وحرّيّتهم الفجائيّة، فكانوا يتجوّلون في الأسواق البائسة الفارغة، والطّرقات المتّسخة، وحول المزابل دون هدف، يتمشّون على الميناء الّذي أصبح ثكنات عسكريّة تعجّ بجنود الإنجليز من هنود وسودانيّين وبريطانيين وغيرهم من سكان العالم الّذي تحتلّه بريطانيا العظمى؛ يأكلون ويشربون ويمرحون ويسكرون ويرقصون في جنّتهم الجديدة.

بعدما قضى العتقاء شهرهم الأوّل في الرّقص والغناء والسّكر والسّرقة والخطف وإطلاق الشّتائم، والتبوّل في الأماكن الّتي كانوا يعملون فيها بالسّخرة، ونهب ما استطاعوا نهبه، من أطعمة وملابس ونقود ومنقولات خفيفة، انتقامًا من السّادة الّذين كانوا يمتلكون كلّ شيء، أو بدافع الجوع والحاجة، أو ادّعاء الحقّ فيها يأخذون، تعبوا وجاعوا وعطشوا وأصابهم اليأس. فكان نيّر الحُرّية عليهم ثقيلًا. لم يعرفوا كيف يكسبون أرزاقهم، أين يعملون، نعم إنّهم عمّال مهرة، وكلّ شخص فيهم يجيد عملًا ما، ولكنّ السّادة يملكون كل وسائل الإنتاج وأدواته، كلّ الأراضي الزّراعية ومراكب الصّيد وأشجار القَرَنفُل والمانجو ومزارع الخضروات والفاكهة، بل كلّ الغابات والأراضي البور وشواطئ المحيط وضفاف الأنهر، المتاجر بالأسواق وداخل المدينة، كلّ البيوت والقصور والأحياء، الحمير والكلاب والقطط، كلّ المواشي، أدوات صيد الحيوانات البرّيّة.. كلّ شيء يمتلكه السّادة الّذين كانوا يحكمون قبل أن يحل محلّهم السّادة الجدد من الإنجليز، فأين يعملون؟ وكيف؟ ومتى؟ بأي وسيلة؟ في أي أرض؟ تلك الأرض الّتي خلقهم الرّبّ عليها، وتوارثوها أبًا عن

جدّ، أصبحت الآن حكرًا على الغرباء، بل أصبحوا هم أنفسهم مجرّد مال يُتداول في أياد غريبة، نعم أطلقهم القانون أحرارًا، ولكنّه لم يُعد إليهم أراضيهم أو يعوّضهم.

أخذ البعض، نتيجة اليأس والجوع والفاقة، يستعطف سادته القدامى، لأجل أن يعطوهم عملاً مقابل أجر، أو مقابل الطّعام والشّراب والسّكن، ولكنّ السادة رفضوا ذلك بشدّة، طامعين في عودة العبوديّة، ولأنّ ما سيقدّمونه ليس حقًّا مشروعًا للمسبيّين، ليس سوى منّةٍ من السّيّد تجاه العبد ليبقى حيًّا ومنتجًا. كانوا يعلمون علم اليقين، أنّ العبوديّة لا محالة راجعة، ووعدهم السلطان سرًّا بذلك؛ عليكم بالصّبر، سيسقط الأمر في أيدي الإنجليز، وسيرجوننا لإعادة العمل بنظام الرّقّ من أجل مصالحهم أوّلاً، ومن أجل أن يسود الأمن والاستقرار.

من جهة أخرى، لم يكن السّادة أحسن حالًا من المعتوقين اليائسين، إذ كانوا يعانون بشدّة، على الرّغم من أنّ لديهم مخزونًا قليلا من الحبوب ومدخلات لوجبات جافة وطازجة، ولدى جميعهم قدر معقول من اللّحوم المدخنة، وتلك المجفّفة تحت أشعّة الشّمس، لديهم الدّقيق الّذي يُصنع منه الخبز، ولديهم الزّيت وفحم الوقود وحطبه، الملح والبهار والسّكر والسّمن، لديهم قطعان من الحيوانات والدّواجن، إلاّ أنهم لا يعرفون كيف يصنعون الخبز من الدّقيق، أو يطهون طعامهم، بل إنّ بعض نساء العائلات الكبيرة لا يعرفن كيف يُوقدن النّار بواسطة أعواد اليوبيكشا في حالة عدم توفّر الكبريت. كما أنّ مخزونهم ليس كافيًا لإطعامهم فترةً طويلة، فهو

مخزون عرَضيّ، لم يكن أحد منهم يتوقّع ما يحدث الآن. لديهم المال والذّهب ولكنّهم كانوا يعانون من الجوع والقمل والذّباب والمرض والاتساخ، إذ أن بعض السّادة، ومن بينهم السّلطان نفسه، لا يعرفون كيف ينظّفون أنفسهم بعد قضاء الحاجة، ويقوم بتلك المهمّة المخصيّون من المسبيّين الأسرى. أصبح السّادة مثل الأشباح، بشعور كثّة، ولحى سائبة، وبطون خاوية، وأوجه شاحبة، وأبصار شاخصة إلى المجهول، وقلوب خائفة منتظرة رحمة الإنجليز في الرّجوع عن قرار إطلاق الحرّيّات. ومن يئس منهم، باع أراضيه للهنود الّذين كانوا لا ينتمون لأيّ من الفرق المتصارعة، باعوها بأبخس الأثمان أو رهنوها لهم مقابل بعض المال يردّونه عندما تتحسّن الأحوال ويتراجع الإنجليز عن قرار تحرير الرّقّ خلال شهور قليلة. ورغم يأسهم، فإنّ ثقتهم في عدم جدّيّة الإنجليز في تحرير الرّقّ كبيرة، كانوا يؤمنون بأنّ مصلحة الأوروبّيّين في تجارة الرّقّ أكبر من مصالحهم هم أنفسهم، وعندما لم يستطيعوا سداد الدّين في ميعاده، آلت أراضي الكثيرين منهم للدّائنين الهنود والمرابين.

وكان أطفال أُسر السّادة الفقيرة ونساؤها أسوأ حالًا، فبعد أن نفد مخزون أسرهم من الأغذية، أصبحوا يبحثون عن أرزاقهم مثل أطفال العُتقاء ونسائهم بين أكوام الزّبالة، وعلى قارعة الطّرق، أو في المزارع البعيدة، عسى أن يصطادوا بعض الفاكهة. أصبحوا يذهبون إلى النّهر من أجل الاستحمام وصيد الأسماك، حيث أطفال العُتقاء. ولأوّل مرة يختلطون بأبناء الوطنيّين المسبيّين. ولم يكن الأمر سهلًا، فكانت اللّغة تعمل عمل الزّيت في النّار، فلم يعرف أبناء السادة اسما

لأبناء الوطنيين غير الخدّام، ويرون ذلك طبيعيًا، بينما عرف الخُدّام وأبناؤهم أنّ ذلك ليس عدلا، وأنهم لم يعودوا خدّامًا، إنّهم أحرارٌ في بلادهم، ويحبّون الاسم الرسميّ الجديد بفعل القانون، وهو المواطنون. وهذا الاسم بالذات لم يعتد عليه السّادة أو أطفالهم، إذ يرى السّادة أنّهم أيضًا مواطنون. لقد وُلد جدودهم في هذه الأرض، ويرون أنّهم أخرجوها من ظلمات الجهل والتّوحش إلى نور الحضارة والرقيّ، وأنّ مصيرهم أصبح مشتركًا مع مصير غيرهم من السّكان، وأنّ هذا اللّفظ يقصيهم ويصنّفهم أجانبَ. صاروا يرجون من المواطنين أن يسبقوا أسماءهم بالسّيد فُلان أو السّيّدة فُلانة، وهذا ما لم يفعله المواطنون. وهنا تبدأ المعارك الصّغيرة والكبيرة؛ على شاطئ النهر، في أكوام الزّبالة، على جوانب السُّوق المنهك المنهار، على ساحل المحيط، في الغابات القريبة، عند الاحتطاب، في الأزقّة وحيثما اجتمع الجمعان تصبّ اللّغة الزّيت في النّار.

كانت المدينة تمضي إلى الهاوية بصورة سريعة، انهار نسق الإنتاج فيها، وتوقّفت عجلة الحياة، حتّى تمّ إصدار مرسوم «أنجلوسلطانيّ» يقول:

«على كلّ عاملٍ معتوق أن يعود إلى عمله حيثما كان، وعلى صاحب العمل أن يعطيَ العامل مقابل ما يقوم به، أجرًا شهريًّا أو أسبوعيًّا أو يوميًا نقدًا، وذلك وفق الجدول المرفق.»

وأوضح المرسوم أنّ كلّ من يخالف الأمر، ستقوم الدولة بمصادرة أدوات إنتاجه أو أرضه، لتديرها الحكومة بنفسها، أو عن طريق وكلاء لها، وسينال عقوبة بالسّجن أو النّفي، أو العمل الشّاقّ

في الغابات الاستوائيّة، في واحدة من مستعمرات بريطانيا العُظمى.

حينها فقط بدأت عجلة الحياة في الدّوران، ولكن بصعوبة وتردّد وثقل، إذ أنّ السّادة لم يستسيغوا تبجّح العُتقاء الفجّ، وتمارين حرّيّتهم العنيفة، فلقد كانوا يرفضون الأوامر مهما كانت نعومة الطّريقة الّتي تُقال بها، فمازالت اللّغة عاجزة عن إيجاد مفردات متّفق عليها للتّعامل، مفردات تستوعب الوضع الجديد والحياة الجديدة، وميلاد الإنسان الحرّ وموت أنظمة الاسترقاق، تحتاج اللّغة القديمة إلى أن تموت كما مات وعاؤها وموضوعها، وأن تنهض على جثّتها أخرى؛ أصبحت اللّغة عاجزة تمامًا عن عملها أداةً للتّواصل في الوضع الاجتماعيّ الجديد.

وكان العُتقاء أيضًا يرفضون العمل لساعات طويلة، فحالما يشعرون بالملل يغادرون أعمالهم. كما أن غيابهم المتعمد غير المبرّر أحدث مُشكلة كبيرة في استمرار عجلة الإنتاج. ثمّ إنهم لا يقبلون المحاسبة، لأنهم أحرار في ما يقرّرون، وطالما كانت لديهم نقود تكفيهم لقضاء يومهم في البيت، أو في الخمارات البلديّة الّتي انتشرت بسرعة، وصارت مصدر رزق لكثير من النساء الفقيرات، إلى جانب ممارسة الدعارة. أصبح صاحب العمل يتجنّب تمامًا توبيخ العامل، إذا حضر للعمل ومعدته محشوّة بالخمور البلديّة، وإلا أُشبع ضربا مبرحًا وبُصِق على وجهه مع اتهامه بأنّه يعيش عصر النّخّاسين، ويحتاج إلى صفعات على وجهه لكي يستيقظ.

وقد تخطر لأحدهم فكرة أن يأخذ قسطا من الرّاحة أثناء العمل، يحتمي فيها الخمر ويراقص بقية العمّال، إنّه حرٌّ. كان معنى الحرية

يختلط لدى الجميع، بل يتطابق في كثير من الأحيان مع كلمة الفوضى أو التّمرّد أو عدم المبالاة، وعند البعض لا تعني الحرّية غير الانتقام من السّادة، ومعاكستهم، ومخالفة كلّ ما يصدر عنهم، من خير أو شر، ولكنّ ظاهرة النهب كانت أسوأ ما حدث في تلك الفترة، إذ يظنّ الكثيرون أنّ ما يمتلكه الأغراب هو في الأصل حقّ شرعيّ لهم، فوقتها وجدوا له سبيلا أخذوه. وتضرر من هذا السلوك كلّ الأجانب حتى الإنجليز وغيرهم، فرأى القنصل أنّ المسألة هي مسألة أخلاق، وأنّهم يحتاجون إلى الإيهان بدين ما والالتزام بشريعته، ولم يكن الدّين الإسلاميّ بديلا للكثيرين منهم، إذ أنّ الإدارة البريطانية ربطت عبوديّتهم السّابقة بدين الحاكمين المسلمين، متمثّلة في شخص السّلطان وسادة المجتمع، ما جعل الكثير من المسلمين يترك الإسلام.

ومن أجل التقاط العُتقاء التّائهين والضّائعة، وهدايتهم إلى سبيل الرّبّ، وتزويدهم بالأخلاق الّتي تمنعهم من السّرقة والزنا والكذب وشُرب الخمر، وتدعوهم إلى التّسامح وغفران خطايا المذنبين، تمّ بناء كنيسة كبيرة، وألحقت بها مدرسة للأطفال والشّبّان، إذ لم تكن هنالك مدارس، ولم يهتمّ السّلطان بتعليم الناشئة تعليما منتظمًا، كما أنّ نشره الدّين الإسلاميّ لم يتبعه العمل والقدوة الحسنة. قال مرة في لحظة صفاء لبعض وزرائه من العرب المسلمين:

«لقد كنّا خصمًا للدّين الإسلاميّ، وعلينا أن نتحمّل المسؤولية أمام الله يوم القيامة، نشرنا الإسلام ما أمكن، ولكنّنا ظللنا أكثر الكافرين بتعاليمه في سلوكنا اليوميّ، لم نسامح ولم نغفر ولم نعدل ولم نرحم، لقد غرّتنا الحياة الدنيا، إلى أن أصبحنا في ما نحن فيه

الآن، وكما استيقظ أهل الأندلس على طرقات سيوف الفرنجة، استيقظنا نحن على دويّ المكسيم. لقد سقطنا في اختبار الرّبّ لنا.»

وكاد يقول إنّه فقد أعضاءه التّناسليّة نتيجةً لسياسته الرّعناء، وإنّ الرّبّ أراد أن يلقّنه درسا صعبًا.

لم يستطع أن يوقف سياسة الإنجليز التّبشيريّة أو يؤثّر فيها، فلم تكن لديه المقدرة على تقديم الطّعام والكساء والمأوى كما تفعل الكنيسة. ارتبط الرّبّ لدى الكثيرين بما يقدمه من مُعجزات وقتيّة ملموسة في شكل طعام وكساء ومأوى، وعندما احتجّ السلطانُ مرّة على القنصل البريطاني معترضًا على سياسة التنصير، قال له:

«ألا تؤمن بحرّيّة المُعتقد؟ هل منعك أحدهم من نشر الدّعوة الإسلاميّة؟ كما أنّ الدعاةَ المسيحيّين لا ينفقون من خزينة الدّولة، إنها تبرعات المؤمنين الخيّرين من كل أنحاء العالم، ويهمّنا أن تكون للوطنيّين أخلاق يحتكمون إليها، لا يهمّ ما هو دينهم، فالإسلام والمسيحيّة ديانتان إبراهيميّتان، من أصل واحد، كلاهما تدعوان إلى وصايا النّبيّ موسى، فافعل أنت أيضًا ما استطعت لنشر دينك، لا حجر على أحد.»

وبنصيحة من المقرّبين الحادبين على السّلطنة ومستقبلها المأمول، لم يتحدّث السّلطان مرّةً أخرى في هذا الشّأن؛ لن يبقى الإنجليز هنا إلى الأبد. حالما يرحلون، سيرتدّ المواطنون مرّة أخرى، يفعل الله بالسّلطان ما لا يفعله بالقرآن، والنّاس على دين ملوكهم.

لم تؤثّر تعاليم الكنيسة كثيرًا في سلوك الكثيرين منهم، كلّما قلّ

الدّعم، جاءوا وفقدوا إيهانهم بوصايا النّبيّ موسى؛ فسرقوا وقتلوا وزنوا وكذبوا، ولم يردعهم سوى القانون الجنائيّ المستنسخ من القانون الهنديّ، كان واضحًا وجليًّا وعنيفًا وحاسما:

«من لا يردعه حُكمُ الرّبّ تؤدّبهُ عصا البشر.»

حينها بدأ المواطنون في الهرب نحو البرّ الإفريقيّ، نحو الغابة الأمّ، خاصّة بعدما مارس أربعة من الشّباب المعتوقين ما أسموه حريتهم في نهب أحد تجّار القَرَنْفُل، وعندما قاومهم التّاجر، ضربوه وطعنوه عدة مرات بخناجرهم المسمومة فأردوه قتيلا في الحال، وحكمت عليهم محكمة إنجليزيّة عسكريّة بالشّنق جميعًا حتّى الموت، وتمّ شنقهم في ساحة السُّوق، أمام عين كل من يرى وأُذن من يسمع. حينها عرف المواطنون أنّ الإنجليز ليسوا أكثر رحمة من السّادة القدامى، فمن فهم منهم معنى الحُرّيّة بقي والتزم بحدود حرّيّته، ومن التبس عليه الأمر هرب إلى أبعد ما يكون، أو بحث عن بقايا قبيلته، أو عبر الخليج إلى البرّ الإفريقيّ، وانضم البعض إلى ما سُمّي فيما بعد خليّةَ التّحرير الأولى تحت إشراف المغنّية أوهورو في كهفها على ساحل المحيط.

المُحبُ ليس لديه وازع

القاتل يُقتل، وقاتل الغريب يُقتل هو وأخوه..
نعم، هما شرّيران، والسّماء الآن تقول ذلك بوضوح، السّماء ترسل النّسور..
والرّبُّ عندما يتكلّم فإنّه يتكلّم بلسان كلّ شيء؛ عندما يقول خيرا فإنّه يتحدّث بلسان الطّيّبين ممّن خلق من الأنبياء والزّعماء الصالحين..
وعندما يقول شرّا فإنّه يتحدّث بلسان الخبيث ممّا خلق، وها هو يتحدّث بألسنة النّسور الجارحة..
ولكن يا شعبي؛ أنتم تعلمون من يقتل شرّيرا فإنّ روح الشّرير تلبسه إلى الأبد، تغوص عميقا في جسده، تسكنه كما تسكنون بيوتكم، وتتغذى على لحمه ودمه، تأخذ بصره وبصيرته، تبتلع لسانه، ويصبح أكثر شرّا من الشّيطان، وتفوح من جسده رائحة الجيفة.

أصبح جليًّا لكلّ من في القرية أنّ سُندُس والأميرة في علاقة جسديّة يوميّة، وكان الأمر غريبًا وشاذًا، كان عليهما أن ينتظرا حتى يعيدا عضويهما المبتورين من الربّ، ثمّ على سُندُس أن يتزوّجها من والدها بعد إعادتها إليه، وقد يقبل والدها بذلك، إذ أصبح دون سلطان، وفقا لما جاءت به الأخبار إلى القرية من جزيرة أنغوجا، أصبح مخصيًّا وبائسا أيضًا، وصار لُعبة في أيدي الإنجليز، بل أشبه بخادم مطيع لهم، ولقد بالغ النّاس في نقل الخبر، إذ أضافوا أنّ السّلطان الّذي باركه الرّبّ فيما مضى قد أخذ يخدم الإنجليز بيديه ورجليه وإسته حسب التّعبير المحلّيّ، خوفًا من مصير مشؤوم قد أصاب بعض الشعوب من البرّ الإفريقيّ على أيدي الألمان والبلجيكيّين الّذين أبادوا شعوبًا بأكملها في بلاد الكونغو.

إذن ما الّذي يمنعه من تزويج ابنته من عبدها السّابق الّذي استطاع أن يعيد ذكَرَه من الربّ شخصيًّا، وتحصّل على حرّيّته بنفسه وعصاميّته؟ يكفي السّلطان أن يرى ابنته سعيدة متعافية، تعيش بالقرب منه، وتعينه على صروف الدّهر وتقلّباته، وقد تنجب له ولدًا ليصبح وريثا لعرشه المتهالك، أو يعيد مجد أجداده في ثورة ما.

«يجب عليكما الانتظار»، قالت لهما زوجة الزّعيم الذي أرسلها بنفسه إليهما بعد أن كثرت شكاوى القرويّين؛ «إنّ ما تفعلانه غير مقبولٍ هنا، طلب منّي الزّعيم أن أقول لكما ذلك».

وكاد الأمر يمضي بسلام، إذ أنّ سُندُس اعتصم بقطيته بعد تلقّيه هذه الرّسالة الواضحة، إلى أن يأذن له الزّعيم بالذّهاب لمقابلة الرّبّ بعدما تكتمل الطّقوس السّحريّة على أشواك المكونازي وعصارة جوز الهند وعود النّار، إلاّ أنّ امرأة عجوزًا ذهبت إلى الزعيم وسألته سؤالا صعبًا:

-كيف لرجل قام بسبي فتاة أن يعتدي عليها جنسيًّا هنا، في قريتنا الطّاهرة، ألا يجلب ذلك غضب الرّبّ، ويحرّكه في كهوفه مثل عاصفة من الرّيح والرّعد؟ سيمحو الشّعبَ من على ظهر الأرض، ويأخذ أرواحهم إلى البحار البعيدة المظلمة، ليبقوا هنالك دون طعام وشراب وخمر إلى الأبد. أليست هذه نهاية الحياة الدّنيا، أن يمارس الجنس شخصان دون عضوين تناسليّين، شخصان لهما روحان ناقصتان؟

-حسنا، طالما أنّ الأمر يخصّ الرّبّ فعلى الجميع الانتباه لذلك، وعلى الشّعب أن يضع حدًا للأمر، إلى أن يُعرف رأيُ الرّبّ أولًا.

الجميع يتحدّثون باسم الرّبّ، والرّبّ لا يتحدّث بلسان الجميع، إنه يتحدّث عندما يشاء بلسان الأصفياء المختارين. ومن بين مَنْ يختارهم الرّبّ، الزعيم، ومن وظائفه أنّه وكيل الرّبّ في الحياة الدّنيا ورسوله أيضًا، ولكنّ الزّعيم كان مشغولا بإعداد تميمة الطّريق إلى كهوف الرّبّ بأسرع ما يمكن، وقد قام بها يسمح له وقته القيام به، فأرسل زوجته لتحذير الفاسقين ناقصي الرّوح، ولكن عندما تدخلت الطبيعة أيضًا في شأن القرية أصبح الأمر مختلفًا جدًّا،

والمقصود هنا عندما حلّق سربٌ من النّسور الصّلعاء ذات الأجنحة الكبيرة والمناقير الضّخمة والأعناق الطّويلة الملتوية، في سماء القرية، في حلقة تتّسع وتعلو وتهبط. كان صفيرها مزعجًا ومرعبًا، جعل القطط تتخفى داخل الأكواخ وتحت الشّجيرات الكثيفة، والكلاب تهرب في كل صوب وجهة، والأغنام تثغو، وتخور الأبقار طالبة الحماية، وعاد المزارعون من الحقول، والصّائدون من الغابات، ليحتموا ببيوتهم، ويكونوا مع الأطفال والعجزة، قريبين من المفسّر الأعظم للأحداث الزّعيم النّبيّ بالقرية. صلّى الأطفال والشيوخ للرّبّ الإفريقيّ الأعظم، طالبين منه النّجدة العاجلة، ثمّ سار النّاس في موكب تلقائيٍّ إلى بيت الزّعيم العارف ظلّ الله في الأرض ووكيله، وأمام القطية الّتي يقيم فيها سُندُس، ارتجلت مغنّية القرية أغنية مرعبة:

«على الغريبين أن يموتا..

أن يقتلا في الحال، أن يطعما للنّسور..

أو تطعم النّسور لحم أطفالنا..

السّيّدة المنحوسة ناقصة الرّوح..

الغريب ناقص الرّوح..

المشؤومان..

ها هي النّسور تحلق وتفرد أجنحتها الكبيرة لتحتضن الموتى والأحياء..

النّسور العملاقة ذات الأعناق الطّويلة والمناقير الحادّة.. أمشاط

مثل المحراث..

ستلتهم الأطفال والكبار والحيوانات وكلّ ما يمشي على الأرض..

فليمت الغريبان الآن وفي الحال..

إنهما روحان شريران ناقصان تافهان مشؤومان.»

حينها خرج سُندُس من قطيته، يريد الذهاب إلى الأميرة لحمايتها، أو يموت معها. كانت الأغنية مرعبة وجادة، ويعرف أن الأميرة تعرف ذلك، إلاّ أنّ الشّعب وقف بينه وبين الذّهاب إليها، وأراد البعض الإمساك به وقتله وإطعامه للنّسور الجائعة الّتي أرسلها الرّبّ، ولكنّ صوت الزّعيم انبعث في الجوّ فجأةً طالبا من الجميع التّريّث، بعد أن قطع خلوته وخرج مذعورا ومنزعجًا. قال للجميع:

«القاتل يُقتل، وقاتل الغريب يُقتل هو وأخوه..

نعم، هما شرّيران، والسّماء الآن تقول ذلك بوضوح، السّماء ترسل النّسور..

والرّبُّ عندما يتكلّم فإنّه يتكلّم بلسان كلّ شيء؛ عندما يقول خيرا فإنه يتحدث بلسان الطيّبين ممّن خلق ومن الأنبياء والزّعماء الصّالحين..

وعندما يقول شرّا فإنه يتحدّث بلسان الخبيث ممّا خلق، وها هو يتحدث بلسان النّسور الجارحة..

ولكن يا شعبي؛ أنتم تعلمون من يقتل شرّيرا فإنّ روح الشّرّير تتلبّسه إلى الأبد، تغوص عميقا في جسده، تسكنه كما تسكنون

بيوتكم، وتتغذّى على لحمه ودمه، تأخذ بصره وبصيرته، تبتلع لسانه، ويصبح أكثر شرّا من الشّيطان، وتفوح من جسده رائحة الجيفة..

ولا تفعل يداه إلاّ كلّ خبيث، ولا يتحدّث قلبه إلا بالشّرّ، وتصير له أنياب الضّبع، وغدر الذّئب، ومكر النّخّاسة..»

عندما صمت الزّعيمُ، صمت الشّعبُ أيضًا، وأطلقوا سراح سُندُس، فوقف مذهولا لا يدري إلى أيّ جهة يمضي، هل سيواصل سيره نحو حجرة الأميرة؟ هل يمضي نحو الزعيم؟ هل يقف كما هو أم يعود إلى قطيته؟ كان مرتبكا بصورة واضحة وهو يتوسّط الشّعب الثّائر المُطالب بموته وموت الأميرة معًا، لقد أصبح في زمرة الأشرار بين ليلة وضحاها. طلب الزّعيم منه أن ينضمّ إليه، وأن تُحضر إليه الفتاة العربيّة من حجرتها أيضًا، ثم اصطحبهما ودخل بيته معهما، تاركا الشّعب يردّد أغنيات متوحّشة مرعبة خلف مغنّية القرية الخائفة، وهم يحملقون بأبصارهم نحو أسراب النّسور الّتي تدور في قبّة السّماء، وتمطرهم بفضلاتها وصفيرها وحفيف أجنحتها، ويتوقعون أن تهجم عليهم الجوارح فجأةً، لذا حمل الشبّان أسلحةً محلّية، وعبّؤوا بعض البنادق بالبارود. أشعلت بعض العجائز النّار على عيدان الأشجار الخضراء؛ لكي تطلق دخانًا كثيفًا يضلّل النّسور ويعمي أبصارها، وأحضر العازفون الطّبل العملاق يطرقونه وهم يدورون حول القرية، يتبعهم الأطفال والنّساء ومغنّية القرية، تلك هي تميمة تأمين القرية من الشّرّ واللعنة والنّسور؛ وهي كلمات الرّبّ عندما يطلقها بغضب.

قال لهما:

«طوال هذه الأسابيع كنت مشغولا بإعداد المكونازي وجوز الهند وعود النّار.

من أجل رحلتكما، أنتما معًا، لقد أصبح من الصّعب إقامة الأميرة أيضًا في هذه القرية، كما أنّنا لا نستطيع أخذها إلى والدها إلاّ بعد نصف شهر، وقد يصيبها مكروه حتّى ذلك الوقت، أنا أحبّذ أن تأخذها معك إلى الرّبّ، فبإمكانها هي أيضًا أن تكمل روحها النّاقصة، وإذا شئتما أن تقيما معه، أو تعودا إلى الحياة فوق الأرض فأنتما حُرّان، عندما تكونان بين يدي الرّبّ تقرّران، فعنده يكون الرّأس في صفاء النّدى على صباطات الموز، ويكون القلب خاليا من الخوف والتوجّس، وتستطيع العين أن تبصر ما هو محجوب عنها هنا، وترى الماضي والمستقبل بجلاء تامّ.»

قالت له الأميرة:

«أنا مسلمة، وقال لي الفقيه إنّ الرّبّ يقيم في السّماء وليس في الأرض، أعني على العرش.»

قال لها الزعيم:

«أريد أن أفهم كيف ذلك، هل في السّماء حجرات أو كهوف أو غابات ليقيم فيها الرّبّ؟»

قالت، وهي تحاول أن تفهم هي نفسها أوّلًا:

«أأأوو، لا أعرف، ولكن طالما يقيم هنالك، يكون لديه مكان للإقامة، وعندما شرح لي الفقيه كيف يكون العرش، شبّهه لي

بكرسيّ السُّلطان أبي، ولكن قال لي إنه أعظم بكثير من كُرسي والدك السّلطان، وأكبر وأفخم، إنّ كرسيّ العرش ليس كمثله كرسيّ، ولكنّه استدرك وقال لي: لا لا، لا يمكن تصوّره، ولا نستطيع أن نفهم ذلك نحن البشر، المهمّ فهمت أنّه في السّماء على العرش، كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ لم يستطع أن يشرح لي بصورة واضحة..»

ابتسم الزّعيم النّبيّ وهو يقول لها:

«إذن هو بعيد جدًا، ولا يمكن الوصول إليه أليس كذلك؟»

قالت وهي تبتسم أيضًا:

«لا أدري، ولكنه دائما ما يكون بجانب أبي، يحقق له كل ما يريد، ولو أنّه -مثلما ذكرت الأخبار السّيئة من أنغوجا- قد بدأ التخلّي عنه، والوقوف بجانب الإنجليز، فلا أحد يعرف كيف يفكّر الرّبّ، ومتى يكون قريبا، ومتى يمضي بعيدًا في شؤون أخرى».

قال لها الزّعيم:

«إنّه هُنا في هذه الأرض، ويقيم في الكهوف الّتي تخصّه، فهو ليس كالهواء يعيش في السّماء، إن الرّبّ خلق نفسه من التّراب ذاته الّذي خلقنا منه، هكذا علّمنا الجدود، وحاول البرتغاليّون تعليمنا غير ذلك، وأن يقولوا لنا إنّ للرّب ابنا أرسله إلى الأرض من السّماء، ثمّ رفعه مرّة أخرى عندما صلبه البشر، ولكنّهم فشلوا عندما شاهدنا بأعيننا كيف كان ربّهم يتسامح في قتل المواطنين الأفارقة المساكين، ولم يكن رحيما أو متسامحًا. ولكنّ

الربّ في الحقيقة رحيم وغفور ومتسامح وعادل، لذلك اكتشفنا زيفهم، عندما أخذوا يبيعوننا عبر البحار، ويخصون الرّجال، ويسبون النّساء، ويقتلون الأفيال، عرفنا أنّهم لا يعرفون شيئا عن الرّبّ الّذي يتحدثون عنه، أو أنّنا لم نستطع أن نفهم جيدًا.»

قالت الأميرة:

«على كلّ، أنا سأذهب أينما يذهب سُندُس، وهذا أمر حسمته تماما، سأمضي معه نحو الكهوف، ولا يهمّ أن نجد الرّبّ أم نجد غيره، أنا سأذهب معه على أيّ حال.»

قال لها الزعيم، وهو يضع شيئا على ماء جوز الهند:

«المُحبُّ ليس لديه وازع».

ابتسمت الأميرة بينما مد سُندُس أنامله خلسة ليلمس ظهرها في امتنان، وهو يغالب دمعة ساخنة تريد الانفجار، قال لها بصوت مخنوق:

«وأنا لن أخذلك، أهبك كلّ حياتي إلى الأبد. أنا أيضًا ليس لدي وازع.»

«حسنًا، أحتاجُ إلى قليل من الوقت أقضيه وحدي لكي أكمل لكما التّميمة، اذهبا إلى الحجرة المجاورة الآن، فالشعب بعيدٌ يطوف بالقرية من أجل تأمينها من الشّرّ والنّحس، يمكنكما الآن الخروج بسلام، وسأحضر إليكما بنفسي عندما أكمل المهمّة، لم يتبقّ لي سوى القليل.»

خرجا، وعند الباب سألته:

«أليس من الخطر أن نبقى معا في نفس الحُجرة؟ قد يهاجموننا.»
قال لها وهو يُمسك يدها الهزيلة الدّافئة:
«المحبُّ ليس لديه وازع، وكلها ساعة من الزّمان وننطلق نحو الرّبّ.»

كان المكان فارغًا، والطيور الجارحة الّتي أزعجها الدُّخان وطرق الطبول، تُرى بعيدة جدًا، محلّقة في السّماء مثل سرب من الزرازير الصّغيرة، وقرب قطيته وجدا الأعمى العجوز وأخاه، وقد ورد ذكرهما في مكان ما من الرّواية نسيته الآن، كانا يجلسان على الأرض وعندما شاهد الأخ -وهو يعاني من مرض ما في أذنيه يجعله ضعيف السّمع كثعبان- سُندُس والأميرة، همس في أذن أخيه، نهضا وألقيا التّحيّة للعاشقين، وتحدث الأعمى مباشرة، وهو يمد يده في الفراغ حتى أمسك بيد سُندُس الّتي كانت تحلّق في الهواء نحو يده الممدودة:
«ابني، لا تذهب إلى الكهف، أرجوك لا تذهب! أنا وأخي هنا لنقول لك ذلك للمرّة الثّانية، نحن نخبر الحياة أكثر منكما.»
قال له سُندُس بلطف، وهو يضغط على كفّه الكبيرة الجافّة:
«ولكنّنا حسمنا أمرنا يا أبي، سنذهب أنا والأميرة لمقابلة الرّبّ، واستكمال روحينا النّاقصتين، والتخلّص من الشّؤم الّذي يطاردنا أينما حللنا.»
قال الأعمى وعيناه تحاولان الرّؤية عبثًا، وتتحرّكان في غوريهما بصورة مثيرة للشّفقة، ولا يخفى البلل الحميم الّذي يعتريهما:
«إذا ذهبتما فإنّكما لن تعودا، إنّهم ينوون بكما شرّا، الزّعيم لا

يعرف ذلك، أو هو لا يريد أن يعرف ذلك، أو هو يعرف كلّ شيء ويتجاهله، لأنّه لا يستطيع أن يقف ضدّ إرادة الشّعب، ونبوءة المغنّية الماكرة، لقد حسم الشّعب أمره، أما فيما يخص النسور فإنّها لا بدّ أن تحلّق في السّماء في مكان ما، وإلاّ لماذا خلق الرّبّ لها أجنحة، ولمن خلق الرّبّ السّماء، ألشيء آخر غير النجوم والقمر والطيور؟ أمّا الفساد فالقرية كلّها مفسدة وفي كلّ بيت فاسد يعصي تعاليم الرّبّ بصورة أو بأخرى. لقد ارتكبتما معصية فادحة، ليس من السّهل التغاضي عنها أو تجاهلها أو التّقليل من شأنها، ولكن من منّا لم يرتكب معصية أكثر فداحة؟ نحن نعرف رجلا في هذه القرية يصيب زوجة أخيه في الفراش كلما تغيّب زوجها، ولم تتنبأ المُغنّية الفاجرةُ بموته، لأن المُغنّية الماكرة هي زوجة أخيه ذاتها! طفلاي، لن نخوض كثيرًا في ذلك، الوقت يسرقنا، عليكما أن تأخذا الطّريق الّتي تقود إلى البحر بعدما تتجاوزان البئر، إنها طريق شائكة ولكن يستطيع الحمار القويّ الّذي تمتلكانه أن يعبرها بسهولة. يقول أخي إنّ حماركما أقوى من الحمار الوحشيّ، وإذا كنتما محظوظين ستجدان بعض الصّيادين يأخذونكما إلى جزيرة بيمبا، وهي قريبة من هنا، ومنها إلى أنغوجا أو إلى ممبسا. أنغوجا لم تعد كما تركتماها، السُّلطان والدك الّذي كان عظيما وقويًا أصبح دون قوة وبأس. لقد صار مرنًا وضعيفًا ولا يستطيع أن يؤذي عنزة. الإنجليز احتلّوا أنغوجا وما حولها ويقومون بكلّ شيء نيابة عنه، وهو ليس سوى صورة إنسان أو ظلٌّ لشبح بائس، أمّا إذا ذهبتما إلى ممبسا فهي

مدينة كبيرة، ولا أحد فيها يهتمّ بشؤون الآخرين، فتعيشان كما شئتما. ممبسا مدينة لا ربّ لها، كما تعلمان ويعلم الجميع، ولكنّكما إذا هبطتما البئر فهي نهايتكما، إنّهم لن يتركوكما تصلان إلى الكلب أو إلى الرّبّ، لن يتركوكما تفعلان ذلك يا ابني. إن المغنّية الّتي تنبّأت بنهايتكما عليها أن تكون صادقة مع شعبها، أي عليها أن تجعله يؤمن بنبوءتها، يقول أهلنا: إذا تهدم بيت الثّقة فلا يمكن بناؤه مرّة أخرى، يَظنّ النّاس أنّ المجتمع سينهار بأكمله عندما يفقد إيمانه بنبوءة المغنّية الّتي تعرف كلّ شيء، أمّا من جانبها هي، فلا تتنبّأ إلاّ بما هي واثقة من وقوعه؛ أرجوكما.. أرجوكما ثم أرجوكما لا تدخلا البئر! فلتفشل نبوءتها هذه المرّة من أجل ألاّ تفقدا حياتكما! أقول لكما بصراحة أكثر: إنّها تحتاج إلى ضحيّة لكي تكفّر عن فسقها هي. إنّها تريد أن تتخلّص من لعنة الرّبّ بكما طالما كنتما تستحقّان العقاب أيضًا، فإذا قبل الرّبّ دمكما ستتجنّب القرية، وهي أيضا، لعنة الرّبّ، هل فهمتما ما أرمي إليه؟ أنا عن نفسي لا أخاف من لعنة الرّبّ، بعد أن أخذ أطفالنا وأعمى بصري، ليس لديه ما يفعله ضدّي أكثر من ذلك.»

ردّ عليه سُندُس بينما كان عقله مشغولا جدًا فيما سيختار بعدما تحدّث به العجوز الأعمى:

«نعم قد فهمت ذلك، سنفكّر في الأمر يا أبي، سنضع ما قلته لنا نصب عيوننا، كن بخير.»

قال الأعمى وهو يطلق يد سُندُس ويبحلق بعينيه المطفأتين في الفراغ:

«هل لي أن ألمس يد الأميرة؟»

ومَدَّ يده في الفراغ، تناولتها الأميرة، انحنت برفق، طبعت عليها قبلةً، ودون إرادتها سقطت دمعتان ساختنان من مقلتيها، وسالتا مثل نهر صغير أسطوريّ من البلّور على كفّه السّوداء الكبيرة الجافّة بفعل عمله المتواصل في صناعة الحبال من سعف نخيل جوز الهند. كانت رائحة السعف المختمر تفوح من كفه، ما أيقظ في مخيّلةِ الأميرة ذاكرة مدينتها أنغوجا، خاصة سُوق الحصائر والسّلال والأنسجة الّتي تُحاك من قشور جُوز الهند، دَقَّ قلب العجوزُ المبصر بصورة متسارعة، بينما يتسرّب دفء أناملها مختلطا بسخونة دموعها في دمه، سحب العجوز الأعمى يده سريعًا دون أن ينبس بكلمة، ثم دار حول نفسه في حركة قلقة غير متوقّعة، قبض على كفّ أخيه الّتي كانت تنتظره معلّقة في الفراغ الكائن بينهما، وذهبا وهما يتحدّثان بصوتٍ عالٍ يتلاشى تدريجيًا كلّما توغّلا في المكان.

سِفرُ الخُروج

وصلا البئر، كانت مظلمة، يصدر من باطنها صفير كلما ازدادت حركة الريح عبر فوهتها الكبيرة. يستطيعان أيضًا سماع بعض أصوات الهوام تصدر من عمقها، تفوح من البئر رائحة نفاذة أقرب إلى رائحة بول الوطاويط. عن طريق ضوء الشّعلة استطاعا رؤية السّلّم الحديديّ العملاق، كانت تعلق به بعض النباتات المتسلّقة الّتي تنمو على جدار البئر باحثة عن الضّوء والهواء النقيّ، قالت له، وقد هبطت عن الحمار، وأخذت بين يديها التّمائم.

«هل ندخل الحمار إلى الكوخ؟!»

عندما اختفى الهلالُ الصّغيرُ الّذي أعلن في خجلٍ مرور شهرٍ من الزّمان وميلاد شهرٍ قمريّ جديد، أظلم المكانُ، وأصبحت الأشجارُ مثل أشباح عملاقة تُرقصُها الرّيح. وبينما كان يُسمع من البُعد دُعاء الضِّباع الرّقطاء، ونُباح الكلاب البرّيّة، كان سُندُس والأميرة يعدّان حِمارهما للمغادرة. ليس هُنالك أحدٌ مِنْ سُكانِ القريةِ حولهما غير الزعيم وهو يلقي عليهما النّصائح الأخيرة. كان قد زار معهما البئر لمعرفة الطّريق ومعاينة المكان قبل يومين. قادهما في الصّباح الباكر مرةً وفي ظلمة اللّيل مرّة أُخرى. كان حريصًا جدًا على ألاّ يخطئا الطّريق أو البئر، ولكي يطمئنّا بِصورة أقوى، نزل هو البئر في المرّة الأولى عند الصباح بعد شروق الشّمس بقليل، عَبْرَ سُلّمها المعدنيّ الصّدئ القديم الّذي أنشأهُ البُرتغاليّون قبل مئات السّنين في عبورهم الدّموي على الأرض. يُقال إنّهم كانوا يريدون التّأكّد من مقالة القرويّين عن وجود الرّبّ في البئر، ولكي يتجنّب الرّبّ شرّهم منحهم قدرًا كبيرًا من الذهب، فاكتفوا به. قال الزّعيم لسُندُس:

«عليكما ترك الحمار خارجًا، إذا تأخّرتما، سأحتفظ به لكما في بيتي، أما إذا قرّرتما أن تبقيا مع الرّبِّ، فهل تسمحون لي أن أحتفظ به لنفسي؟»

ردت عليه الأميرة:

«نعم، إنّه حماري لقد وهبه لي أبي في زواجي من المرحوم، إنّه لك منذ الآن، هديّة منّي، سنتركه لك مربوطا في مكان ما قرب البئر، إذا كان المكان آمنًا.»

قال الزعيم:

«ليس آمنًا بالنّسبة إلى حمار لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، أدخلاه الكوخ الصّغير الّذي يوجد قرب البئر، وأغلقا الباب جيدًا، سينتظرني حيًا إلى أن أحضر بنفسي لأخذه.»

قال سُندُس للزّعيم:

«لقد قلت لنا إنّ الكوخ مسكون بالجنّ.»

قال ضاحكا:

«لا يفعل الجنّ شيئا للحمار طالما أصبح الحمار ملكي. حسنًا، ستذهبان الآن، خذ يا سُندُس هذه الحربة، قد تحتاج إليها إذا هاجمكما حيوان شرس قبل أن تصلا إلى البئر، وخذا أيضًا شعلة النّار هذه، فهي تخيف الضّباع وغيرها من الهوام، وتضيء لكما الطّريق.»

استلما الحربة وشعلة النّار وتمائم الولوج إلى كهف الرّبّ، ودّعهما وعاد سريعًا إلى غرفته دون أن يلتفت إلى الخلف، مضى بسرعة وهو يتمّم بقيّة جُمل الوداع الطّويلة جدًا.

ركبت الأميرة الحمار، وأخذ هو المقود ومضى أمامها. الظّلام دامس، والشّعلة تضيء أول الطريق بصعوبة، سكّان القرية الّذين لا يرونهم الآن، كانوا متجمّعين في مكان ما، يراقبون العاشقين الحاجّين

إلى كهوف الرّبّ عن كثب. يستطيع سُندُس والأميرة سماع صراخ بعض الأطفال من وقت إلى آخر قبلما يسرع ذووهم بإسكاتهم، تصدر كُحّة من حين إلى آخر، لم يهتما بذلك. مضيا.

لم يكن موقع البئر قريبا من القرية، كان على بعد ما لا يقلّ عن سبعة أميال، وفقا للطريق الّتي يرتادها الذاهب إليها. هنالك طرق أقرب، ولكنّها غير واضحة المعالم، وتمرّ بأرض كثيرة الأشجار والمخافات، وتحتاج إلى معرفة ودراية، لا يرتادها إلاّ الصّيّادون لوعورتها. عليهما اتخاذ الطّريق الطّويلة الأكثر وضوحا وأمانًا، ولو أنّها ليست سهلة الارتياد أيضا، ولولا حذاء سُندُس الجلديّ العربيّ المتين لما استطاع تحمّل الأشواك ونهايات العُشب الحادة الجافّة، ولسع بعض الحشرات الّتي تنشط ليلًا من العقارب وبعض العناكب السّامّة، ولكن ما كان يخيفهما أكثر هو عواء الضّباع، وقفقفة أنيابها الّتي تأتيهم من كلّ صوب وجهة، ولو أنه بعيدٌ جدًا، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من أن تصادفهما بعض الحيوانات المفترسة الأخرى الّتي تجيد الصّيد دون إصدار صوت أو لجب. كانا يمضيان بسرعة نحو البئر لأن الحمار كان نشطًا، وهو أيضًا من عيّنة الحمير السّريعة جدًا، من ذات الأصول الّتي استوردت من اليمن، وهي معروفة بسرعتها وقوّتها وتحمّلها المشاقّ. كانا صامتين، لم يتبادلا جملة واحدة، كل واحد منهما يتحدّث إلى نفسه عن مصيره، عمّا سيلاقيان، وأين تنتهي بهما الرّحلة، كانت الأميرة تفكّر في مسألة الرّبّ المقيم في الكهف، هذه الفكرة لم تقنعها إطلاقًا، لم توافق مزاجها التّربويّ ودينها الإسلاميّ وكلّ معرفتها السّابقة بالرّبّ؛ كيف يقيم الرّبّ في كهف وقد خلق العالم

كله في سبعة أيام؟ ألا يجد لنفسه ملجأ غير الكهوف تحت الأرض؟ يمكنه أن يقيم في جنّة أينما شاء. أبوها ذلك البشر المخلوق من قبل الرّبّ كان يعيش في قصور كثيرة، يخدمه آلاف المسبيّين والأسرى، لا... لا يمكن، الرّبّ يعيش في السّماء الّتي خلقها وهي أجدر به، وعلى الرغم من ذلك، سأخوض التّجربة مع سُندُس. سأذهب معه أينما يذهب، ولكن لماذا لا يفكّر سُندُس فيما قاله له العجوز الأعمى، ربّما يكون الأعمى على حق!!

أما سُندُس فكان يشغل عقله بالرّبّ، غير أنّ الرّبّ الّذي ينتظره موجود في الكهوف، حيث يحيط نفسه بالأرواح والأعضاء، ويقوم بإعادة ما أتلفه البشر من الأرض، إنّه ربّ قريب يمكن الوصول إليه، والكلب لا يمثّل مشكلة معقدة، فلديه التّمائم الّتي يقاوم بها شرّ الكلب الوحشيّ. لقد اقترب الآن من نيل مناه. سيصبح رجلا حرّا بروح كاملة وعضو ذكريّ، وسيتزوّج الأميرة قبل والدها أم أبى، إنّها تخصّني، إنّها ملكي الخاصّ.

وصلا البئر، كانت مظلمة، يصدر من باطنها صفير كلّما ازدادت حركة الرّيح عبر فوهتها الكبيرة. يستطيعان أيضًا سماع بعض أصوات الهوام تصدر من عمقها. تفوح من البئر رائحة نفّاذة أقرب إلى رائحة بول الوطاويط. عن طريق ضوء الشّعلة استطاعا رؤية السّلم الحديديّ العملاق، كانت تعلق به بعض النّباتات المتسلّقة على جدار البئر باحثة عن الضّوء والهواء النّقيّ، قالت له، وقد هبطت عن الحمار، وأخذت بين يديها التّمائم:

«هل نُدخل الحمار إلى الكوخ؟!»

وأشارت إلى الكوخ القريب منها، كان هو الآخر يقبع في بحر من الظّلام، ولا يظهر منه سوى القليل مما استطاع أن يعكسه ضوء الشُّعلة.

قال لها سُندُس، دون تردّد، وهو يحاول أن يرى وجهها عبر دكنة الظّلام مقربا الشّعلة منها:

«لا، بل سنمضي إلى البحر، ربما وجدنا مركبا يأخذنا إلى جزيرة بيمبا ثمّ إلى ممبسا. أظنّ أنّ الأعمى العجوز على حقّ. أنا متأكد من أنّ البعض سيأتي في إثرنا. إنّهم مثل الوطاويط يمضون في الظلام دون أيّ إضاءة. أنا أحس بأنفاسهم وأسمع وقع خطواتهم على الأرض في قلبي، ولو أنّهم على بعد أميال من هنا.

إذا كانوا ينوون بنا شرًّا فإنّهم سيلحقون بنا، ويقبضون علينا ويرموننا في البئر، إذن لن ننجو في كلّ الأحوال!! كما قال العجوز لن يهدأ بال المغنّية المتنبّئة إلاّ بسفك دمنا، بل سننجو بالتّأكيد، سننجو، دعينا نشعل النّار في البئر، عندما يحضرون سيشمون الدّخان، ويظنّون أنّنا قد هبطنا البئر، لنأخذ بعض الأعشاب من الكوخ، لا بدّ من أنّ به بعض العود الصّلب.»

قالت وقلبها يضرب بشدّة:

«والحمار؟»

قال وهو يقود الحمار نحو الكوخ:

«سنترك الحمار داخل الكوخ، داخل الكوخ ليجدوه هنالك، بالتالي يزداد يقينهم بأننا قد هبطنا البئر. الرّكوب على الحمار

مريح، ولكن إذا سرنا على أرجلنا سيكون أفضل. الطريق صعبة كما قالوا لنا وشائكة، ولكن سنجتازها، حذاؤك قويّ مثل حذائي، وعندما يصيبك التّعب سأحملك على ظهري، علينا أن نتعجّل الأمر.»

قالت بصوت واهن:

«أنا خائفة جدًا.»

بعد ساعة من الزّمان تقريبًا، كان القرويّون يرمون الحجارة الضخمة وفروع الأشجار الجافّة وشبه الجافّة في جوف البئر، على إيقاع الطّبول المرعبة الّتي انتقلت عبر هدوء اللّيل إلى أذني سُندُس والأميرة أيضا. أصوات الطّبول أفزعت الضّباع الرّقطاء، ولاذت بالصّمت أو بعدت لأميال متوغّلة في الغابات البعيدة. كانت المغنية المتنبئة في غاية الطّرب وسعادة النّصر وهي تغنّي:

«إذا وجدا الرّبّ..

هنالك في الكهوف البعيدة، وهزما الكلب الشّيطان..

وإذا أخذا عضويهما أيضًا..

عليهما ألاّ يعودا من هنا..

فليبقيا مع الرّبّ إلى الأبد، فمن يعلم..

قد يعطيهما الرّبّ عضوين فاسدين لأنّهما أفسدا في القرية..

قد يكمل روحيهما بروح نخّاس..

ويلنا يا ولينا إذا لم نرم مزيدًا من الحجارة..

ويلنا يا ولينا إذا لم نمح بدمائهما الخطيئة..

ويلنا يا ويلنا إذا لم يختفيا إلى الأبد..

ويلنا يا ولينا إذا لم نذبح في الغد ديوكًا كثيرة وعنزة..

ويلنا يا ويلنا إذا لم نطرق طبولنا بشدّة إلى أن يسمعها الرّبّ في كهوفه..

وويلنا يا ويلنا إذا عادا..

لأنّ دمهما هو القربان..

ولحمهما سيصبح طعاما للنّسور..

ورمادهما لعبة في أنامل الرّيح قبل أن تغسله أمطار السُّحب المباركة..

وارتجلت المغنيةُ الّتي سمّاها العجوزُ الأعمى المغنية الماكرة، في لحظة خوفها وغضبها ووفائها لنبوءاتها، كلّ ما ظنّ القرويون أنّه من إلهام الرّبّ، وما هو من إلهام الربّ، وختمت أناشيدها قائلة كما تفعل دائمًا:

«هذا ما قاله الرّبّ على لساني، كلمات الرّبّ الكبيرة، على لساني الصّغير، وفمي الّذي هو فمكم، يا شعبي، ها هي النّبوءة تتحقق أمام كلّ ذي عين، ولن تعود النّسور القائلة مرّة أخرى، لقد كَفَّرْنَا عن الخطايا بدم المخطئين أنفسهم، ...!»

نهق حمارُ الأميرة الّذي أودعه سُندُس جوف الكُوخِ المسكون بالجن، وما كان القرويون يعلمون بوجوده هنالك. صرخ المسكين بأعلى ما لديه من صوت بسلالمه الموسيقيّة الشّتراء النّكراء، فأصاب القومَ الرّعبُ من هول المفاجأة، فهرب الجميع نحو القرية، تاركين طبولهم على العُشب الجافّ، وأحذيتهم حيثما اتّفق، وتبعثرت

أغنياتهم ونبوءاتهم وأناشيدهم في الفراغ المُظلم الشاسع، مختلطة بصرخات الاستغاثة والأدعية الخاصّة المضادّة لشرّ الشّياطين.

مَوَانَا وَإِمْبُوا

وتقدّم صاحب الصّوت مباشرة نحوهما، كان جسدًا عملاقًا مثل ثور جاموس، يحمل حربتين في كفّ واحدة، وفي الأخرى سلّة متوسّطة الحجم. وقف بهدوء تفصله عن سُندس والأميرة النّار الّتي هي الآن شبه مطفأة، تصدر خيوطا واهنة من الدّخان سريعا ما تتّحد مع الظّلام وتتلاشى، ويبقى ضوءٌ شحيحٌ ينطلق من بعض الأعواد.

«جامبو»

قال الشخص بهدوء أيضًا:

«سُندس والأميرة، هل تبيّنتما من أنا؟»

عندما يذهب الإنسان نحو المجهول تتشابه لديه السُّبل، لأنّ المجهول لا معالم له، ولكنّ مصباح الهدف الّذي يشعّ من القلب العاشق هو الّذي يقود الإنسان. عندما يصبح الحبُّ حملًا ثقيلًا جدًّا، بل قنبلة موقوتة قد تنفجر لمجرد مرور نسمة من الهواء عليها، عندما يصبح مثل صليب السّيّد المسيح الّذي عليه حمله لكي يصلب عليه، عندما يصبح مثل جرعة السّمّ الّتي عليك تناولها لكي تتجنّب ألم الموت حرقًا، يصبح الحبّ مسؤوليّة ثقيلة، واختيارًا يجب الالتزام به، والطّريق الوحيد الّذي يقود إلى الهاوية حيث لا نجاة. كان عليهما أن يمضيا، أن يبحثا عن النّجاة مهما كلّفهما ذلك، ولو أنّ ثمن النّجاة هو الموت. ليس أمامهما غير المضيّ قدمًا، على أشواك الحسك، في ظلمة اللّيل، تحت موسيقى الرّعب الّتي تصدرها حناجر الضباع الهائمة في المكان بحثا عن فريسة. كان الحبُّ ثقيلًا ولذيذًا ومُرًّا مثل الحنظل، والطريق الّتي لا معالم لها هي الأطول.

لم ينبسا بحرف، كان يمسكها من كفها وهما يمضيان بسرعة رهيبة إلى الأمام، يحاول أن يقودها في خطّ مستقيم، حتّى لا يعود بهما الطريق الماكر إلى القرية مرة أخرى. ولكي لا يتوها، حدّدا نجمةً كانت تقاصدهما من السّماء عندما بدآ هروبهما نحو البحر بالطّريق الّتي وصفها لهما العجوز الأعمى، وقد أخفى الظلام معالمها بصورة تامّة، ولكنّ الالتزام بالاتّجاه قد يؤدي الغرض على الرّغم من خُطورة

انزلاقهما في واد أو جرف صخريّ أو وَجر للذئاب، أو جحر ثعبان شرس قد يبتلعهما، ولكنه يظن أنّه كلما كبرت الصعاب كبر احتمال النّجاة أيضًا، أمّا الأميرة فكانت تنتظر الموت في كلّ لحظة، وتتوقّع أن يداهمهما من حيث لا يدريان، ويغمرها إحساس جارف بأنّهما يسقطان في بئر منسيّة تتخفّى تحت العُشب الّذي يخوضان فيه نحو نجاةٍ لا يدريان مسالكها غير الهروب إلى الأمام.

سارا على تلك الحالة ما يُقارب الساعة، ولم يدركا البحر، ولو أنهما ميّزا هدير الموج وهو يتناهى إلى مسمعيهما بين الحين والحين، وميّزا أيضًا اختلاف درجة الرّطوبة في الهواء الّذي أصبح ثقيلًا ومالحًا، قالت له:

«قربنا من البحر، ولكنّي أحس بالتّعب، دعنا نجلس قليلًا!»

اختارا مكانا بصورة عشوائيّة وهو جذع شجرة عملاقة، أسندت رأسها إلى كتفه، ودخلت في حالة استرخاء أقرب إلى النّوم، أو الانهيار الّذي يحدث جرّاء التّعب أو الحُبّ، يشعر سُندُس بعشقها يسري في دمه، ويهبه الأمل والقوّة للنّجاة من هول ما هما فيه، بل النّجاة أيضًا من وضعه الشّاذّ والغريب، يعطيه القدرة على الاحتفاظ بحرّيّته وامتلاكها أيضًا، الحُب الّذي لا يستطيع أن يعبّر عنه باللّغة، فهو غير معتاد على ذلك، بل يحسّ بالخجل كلّما راودته نفسه ليقول لها كلمة تعبّر عمّا بداخله. إنّه الحبّ الّذي لا سبيل لإعلانه بغير الفعل، والمقصود بالفعل هنا هو هذه المغامرات العنيفة الّتي وقعا فيها، تمسكّهما ببعضهما وتوحّد مصيريهما، ذلك الخوف المشترك من المجهول، دفء كفّه على كفها، اختلاط أنفاسهما الحارّة الممزوجة

بهواء البحر، استعداده لتقديم حياته من أجلها، بل رهن وجوده كلّه لها. كان يحبّها دون لغة تُنطق أو كلمات تُقال، ولكن بإشارة يمكن لمسها واستشعارها وسماعها وتذوّقها وشمّها، يحبّها بجسده كلّه ومستقبله وحرّيّته وأسئلة وجوده العصيّة على الفهم، والأميرة تفهم ذلك، وتحبه في صمت يخصّها أيضًا، نظام التّربية الّذي نشأت فيه، وعزلتها الفعليّة عن الحياة اليوميّة التّلقائيّة، والتّديّن الزائف عن طريق التّحفيظ والمنع والتّرغيب الّذي لقّنَها إياه الفقيه، نشأتها كسيدة قصر وابنة وحيدة لسلطان يمتلك كلّ شيء، كلّ ذلك جعل منها موضوعًا للآخر، ونَحَت فيها قوّة المبادرة. كان عليها أن تتلقّى كلّ شيء، بما في ذلك الحبّ، ولم تفكر لحظة واحدة في أن تعبّر عن حبها له بالكلام، ليس لعدم جدوى ذلك، ولكن ببساطة لأنّها لا تعرف، أو لأنّها لم تستطع أن تفرّق ما بين واجب سُندس نحوها بوصفه سبيا وبين ما يفعله عشيقًا، كانت المسافة بين الحالتين شديدة الإرباك في لا وعيها، فالفارق الطّبقيّ بين ابنة سُلطان وأسيرها وخادمها المخصي شاسعة، ولو أن الحُب قادرٌ على ردمها بسحريّته، ولكن تظلّ هنالك فراغات صغيرة مثل فقاعات الهواء لا يردمها سوى الزّمن أو الموت.

أشعل نارًا، عن طريق عود النّار الذي عنده، وكان ذلك مهمًّا من أجل طرد الهوام والحيوانات الضّارية والبعوض الّذي يُوجع عيونه الدّخان، ولكنّ النّار التهمت بعض العُشب الجافّ حولها، فارتبكا وحاولا السّيطرة عليها عن طريق دفنها بالتّراب، ولكنّهما لم يستطيعا ذلك، ما جعل الأميرة تصرخ بشدّة بصورة هيستيريّة. فقد أيقظ فيها الخوف من النّار كلّ المخاوف الكامنة فيها؛ الخوف

من المجهول، الخوف من الظّلام، الخوف من الوحوش، الخوف من القرويّين، الخوف ممّا قد يلاقيانه إذا شاء القدر أن يوصلهما إلى مدينة ممسا، الخوف من عشقها لرجل تتبعه اللّعنات أينما حَلَّ، الخوف من نفسها هي الّتي تعشق بجنون.

عمل سندس بكلّ ما لديه من طاقة كي يُسيطر عليها وعلى النّار. كان يصرخ في وجهها بأعلى صوته لكي يعيدها إلى وعيها، وعندما صمتت، تراجع لهب النّار أيضًا، بفعل الرّطوبة العالية الّتي يحتفظ بها العُشب، وقوّة الإرادة الّتي يتحلّى بها سُندُس، وطاقة الخوف الجبارة لدى الأميرة، أو كما علّقت هي نفسُها فيما بعد: رحمة الله.

جلسا صامتين، بينما كان قلباهما يدقّان بشدّة، ثمّ ضعت رأسها على حجره ونامت. كانت أنفاسها تعلو بهدوء كالأطفال، وهو الآخر كان مرهقا جدًا، ولكنّه لا يرغب في النّوم، أذناه تلتقطان الأصوات القريبة والبعيدة، عقله يحللها في صمت، تطوف بمخيلته أشباح المخلوقات الّتي تصدر الأصوات. يعرف بعضها، ولكنّه يجهل الكثير منها، فيتخيل لها شكلا يناسب الصّوت الّذي تصدره، يرسم لها أنيابًا ومخالب في مخيّلته، إلى أن نَمى لمسمعه لجَبُ حركةٍ بطيئةٍ ولكنها منتظمة، تتوقّف للحظات ثمّ تعود مرّة أخرى، أمسك جيدًا بحربته في موقع الاستعداد بينما ربّت على كتف الأميرة برفق لكي يوقظها من النوم، مازالت هنالك جمرات مشتعلات وأعواد من الحطب تطلق الدّخان، إلا أن الرؤية غير واضحة لمسافة كافية، قال لها بصوت أقرب إلى الهمس:

«استيقظي.»

فنهضت مذعورة، ولكنّه سيطر عليها بإحدى يديه بينما ظلّ ممسكًا الحربة باليد الأخرى وهو يحاول أن يشرح لها بهدوء:

«هنالك أثر أقدام شيء ما، ابقي هادئة، أعطي ظهرك لجذع الشجرة، ولا تتحركي.»

ولكنّها التصقت بظهره ممسكة وسطه بقوة وهي ترتجف كعشبة في مهبّ الريح، وكأنّها تُريد أن تصبح جزءًا منه أو تغطس في لحمه، وعاودتها نَوبة البُكاء والصُراخ مرة أخرى، ولم تكفّ عن ذلك إلى أن هتف صوت من مكان قريب، خرج من بين مسام الظّلام قائلا برقّة:

«جامبو.»

وتقدم صاحب الصوت مباشرة نحوهما، كان جسدًا عملاقًا مثل ثور جاموس، يحمل حربتين في كفّ واحدة، وفي الأخرى سلّة متوسّطة الحجم، وقف بهدوء تفصله عن سُندسَ والأميرة النّارُ الّتي هي الآن شبه مطفأة، تصدر خيوطا واهنة من الدّخان سريعا ما تتّحد مع الظّلام وتتلاشى، ويبقى ضوءٌ شحيحٌ ينطلق من بعض الأعواد.

«جامبو.»

قال الشخص بهدوء مرّةً أخرى:

«سُندس والأميرة، هل تبيّنتها من أنا؟»

أطلّت الأميرة برأسها من خلف ظهر سُندس العريض، وقالت:

«أنت مَوانًا وا إمْبُوا.. أليس كذلك؟»

ضحك مَوانًا وا إمْبُوا ضحكة أشبه بنُباح الكلب وهو يقول:

«نعم، مَوانًا وا إمْبُوا.»

تنفست الأميرة الصُعداء، وأطلقت سراح خصر سُندُس بينها كانت تضحك بهستيريّة. في الواقع، لقد غمرها شعورٌ بالأمان والنّجاة غريب، ولو أنّها صاحت من بين ضحكها:

«كِدتُ أتبوّل على ملابسي، لقد أفزعتني.»

كانا قد التقيا بمَوآنَا وإمْبُوا كثيرا، فهو قائد المجموعة الّتي أخذتها من أنغوجا. وقد التقيا به أيضًا في اجتماع مجلس القرية، وقابلاه مرارا في القرية أثناء وجودهما هناك، ولو أنه لم تكن بينهم علاقة خاصّة، إلاّ أنهم تبادلوا التّحيّة وردها عدّة مرّات. كانت بنيته الجسديّة متميّزة، فلقد كان فارع الطّول، أو ربّما هو الأطول قامة بين شبّان القرية، كما أنّ مداخلته الّتي اعتبرها سُندُس شِرّيرة جدّا وعنيفة في اجتماع مجلس القرية، جعلت صورته تنطبع في ذهنه إلى الأبد، على الرغم من أنّ المداخلة كانت في مجملها لصالح اختطاف الأميرة وفق مبرّرات شتّى، أي أنّها كانت مرافعة لأخذ الأميرة وأسرها في جانب منها، ولكنّ الجانب الآخر من المداخلة، الجانب الّذي لم يحبّه سُندُس واعتبره من الشّرور، هو تركيز مَوآنَا وإمْبُوا على المعاملة بالمثل، وهو ما رفضه سُندُس ورفضه مجلس القرية بالإجماع استنادا إلى مقولة متوارثة: «الشَّرُّ لا يُقاوم بالشّرّ»، بالإضافة إلى ما يسمّونه في مجتمع القرية باللّعنة الّتي يجلبها سَبيُ سيدة أو أخذها من بلدتها دون موافقة أسرتها.

قال مَوآنَا وإمْبُوا، وهو يتكئ على عقب حربتيه اللّتين غرز نصليها في الأرض الصّلبة:

«لقد كنت أتبعكما منذ أن غادرتما القرية، ولكن من مسافة شاسعة، ثمّ أضعت أثركما فيما بعد لأنكما أضعتما الطّريق بعد

البئر، لقد انطلت عليّ الخدعة وظننتكما قد سقطتما في البئر ولقيتما حتفكما، أو قابلتما الرّبّ إذا كان هنالك ربّ في البئر، ولكنّني عندما فحصت البئر لم أجدكما بها. ولقد أرعبني الحمار وهو يطلق زفراته الرّعناء عبر منخريه من داخل الكُوخ المسكون بالجنّ. لم أهرب، بل أخذت وقتًا طويلًا حتّى تبيّنت أنّ مصدر الصّوت ليس سوى الحمار الّذي تأكّد لي أنّكما تركتماه هناك من أجل إقناع السّكان بسقوطكما في البئر، ولكنّ ذلك لا ينمّ عن ذكاء، كان بإمكانكما ربطه في الخارج ليروه، أو المُضيّ به، ليس هنالك من سُكان القرية من يبحث عن منطق يقنعه بأنّكما لن تنزلا البئر، ولو في صحبة الحمار الّذي يخصّكما. كانوا يظنون أنّكما ستفعلانها دون تردّد، فنبوءة المغنّية واضحة، كما أنّها قد أسرّت للخاصّة: 'إنّي أرى جنازتيهما رؤية العين، وأستطيع أن ألمس دمهما المتخثّر بإصبع يدي'.»

وأكمل موانا حديثه:

«عندما اقترب أهلي بطبولهم وهم حانقون، واصلت في سعيي للّحاق بكما، ولم يكن ذلك سهلًا، لأنّكما لا تعرفان الطّريق، واللّيل مظلم، أنا أعرف الطّريق الّتي وصفها لكما جدّي والد أمّي الأعمى، هل تذكران الرجل الأعمى وأخاه الّذي لا يسمع جيدًا، إنّه جدّي أيضًا لأنه أخو جدي، هما اللّذان طلبا منّي أن أمضي في أثركما، إذا لم تسقطا في البئر عليّ أن آخذكما إلى البحر، ومن ثمّ أساعدكما في الحصول على قارب صيد أو ما شابهه، لتبحرا إلى جزيرة بيمبا، إنهما يحبّانكما جدًا، يريدان بشدّة ألاّ

تلقيا مصيرًا مشؤومًا، إنّهما رجلان طيّبان. لم أجدكما في الطّريق الّتي أحفظها مثل كفّ يدي، وعرفت أنّكما قد ضللتما السّبيل، فارتبكت مرّة أخرى وكدتُ أفقد الأمل في الحصول عليكما لو لا أن أشعلتما النّار، ووصلتني رائحة العشب المحروق، فأنا أشمّ الرّوائح مثل كلب الصّيد، ولولا صُراخ الأميرة أيضًا، وهو ما أرشدني للاتّجاه الصّحيح، لما استطعت إليكما سبيلا، فأذناي مقتدرتان، وهذه أيضًا صفة من صفات الكلاب، ألا تعلمان أنَّ الصُّراخ في مثل هذه الغابات قد يجلب الضّباع والوحوش المفترسة الأخرى؟

جلس القرفصاء، حرّر فأسه الّتي كان يحتفظ بها مربوطة بحزام جلديّ في وسطه، وضعها جانبا، صمت قليلا ثمّ قال، وهو يشير إلى سلّة من سعف جوز الهند كان يحملها، وقد وضعها على الأرض قريبًا من الشّعلات الضئيلة للنّار الّتي أصبحت جمراتها ذابلة مثل عيون محمرّة ناعسة في الظّلام:

«أحضرت لكما قليلا من اللّبن، واللّحم الجاف، إنّه من جدّي، والخمر أيضًا، وإذا لم تحتسيا الخمر فسيكون من نصيبي أنا. لا بدّ من أنّكما جائعان. عندما نصل إلى البحر سنصطاد الأسماك، معي صنارة صيد وطُعمٌ جيدٌ، إنّها أشياء لا يخرج الرّجل من بيته دونها، فأسه وحرابه وصنّارته ومديته وشجاعته.. هَوْ.. هَوْ.. هَوْ..»

قال له سندس:

«سنأكل، وستشربُ هي خمرًا، وأفضّل أنا اللّبن واللّحم. ستشرب هي قليلًا منه؛ إنّه مفيدٌ لأعصابها، تحتاج إلى ما يجعلها

تنام بأعصاب مرتخية، إنها قلقة.»

قالت الأميرة، وهي تقترب من سُندس:

«كل ما أحتاج إليه أن نعود سالمين إلى أنغوجا، لم أعد أحتمل المغامرة. أريد أن أستريح. أريد أن أنام باطمئنان ساعات طويلة. أريد أن أتحدث مع أبي. هل نحن قريبان من البحر؟ كم تبعد جزيرة بيمبا أو أنغوجا؟»

ضحك مَوانَا وا إمْبُوا هَوْ.. هَوْ.. هَوْ.. وقال بهدوئه المعهود:

«ألا تدريان أين أنتما الآن؟ أنتما أقرب لقرية «يابيموا وانا»، وإذا واصلتما في المشي قدما في مسيرة نصف ساعة ستكونان هنالك، وسيقتلونكما في الحال، فكلّ القُرى المجاورة تعرف قصّتكما، والجميع في الصباح سيعرف أنّكما من ضمن الأموات أو الأرواح الّتي مع الرّبّ، فإذا شاهدوكما فسيتعاملون معكما كشبحين شيطانين ليس إلاّ، عليكما أن تشكرا الرّبّ لأنّني أدركتكما، وإلاّ لتعقدت حياتكما كثيرًا، ولا أظنك كنت سترين والدك مرة أخرى، أمّا أنا فقد مات والداي منذ زمن، لقد التهمهما النّخّاسة.»

فشكره سُندس وشكرته الأميرة، وواسته في ما حدث لأمه وأبيه قائلة:

«أهلي متوحشون.»

قال لها بسرعة وبهدوء، فصوته هادئ وناعم إلا عندما يضحك هَوْ.. هَوْ.. هَوْ:

- كلّ البشرِ متوحّشون، الحيوانات وحدها طيبة القلب.

وأخذوا يشوون اللحم المُقدد، بعدما قام مَوانَا وا إمْبُوا بإعادة إيقاظ الجمرات، بالنّفخ عليها وإضافة كمّيّة من العُشب وبعض الأعواد الّتي عمل عليها بنصل فأسه الحادّ بضربات عجولات نافذات: كَوْ كَوْ كَوْ كَوْ كَعْ.

سأل سندس مَوانَا وا إمْبُوا عندما عمّت المكان رائحة الشّواء:

«ألا تدلّ رائحة الشواء الحيوانات المفترسة علينا؟!»

قال مَوانَا وا إمْبُوا وهو يضع مزيدا من اللّحم على النار:

«إنّ رائحة الشواء تخيفها جدّا، لأنها تخبرها أن في الغابة مفترسين أشرارًا، وأنّ ما يشوونه ليس سوى لحم بعض حيوانات الغابة، إنّ ما يثير شهيّتها هو رائحة الدّم؛ فرائحة الدّم تعني لها أنّ هناك فريسة، أما رائحة الشّواء فتعني أنَّ هنالك صيّادًا ماهرًا.. هَوْ هَوْ هَوْ. الحيوان يعرف جيدًا من هي فريسته ومن هو مفترسه، هَوْ هَوْ. مثله مثل البشر تماما، أليس كذلك؟! هَوْ هَوْ هَوْ.»

تحدثت الأميرة في سرها، وهي تتعجب من كركرة ضحك مَوانَا وا إمْبُوا الشبيهة بنُباح الكلاب: ربما سُمي ابن الكلبة لأنّه يضحك بهذه الطّريقة، أي أنّه يهوهو!!

الشّواء لذيذ، صار اللّيل هادئا ومطمئنًا، والسماء أكثر صفاءً، فظهرت على سقفها نجيمات بهيّات، وهبّ نسيم شجيّ من جهة الشّرق، غنت الباعوضات الشرسات غناءً مزعجًا. أن يصبحا في رفقة رجل قويّ وشجاع وعارف بأسرار المكان مثل مَوانَا وا إمْبُوا،

تلك هي المسرّة ذاتها، حتى عواء الكلاب المتوحّشة والضّباع لم يعد يخيفها، عندما شربت الأميرة بعض الخمر، اعتدل مزاجها أكثر، وأحسّت بقدر كبير من الشّجاعة يفور في دمها. غمرتها الطّمأنينة ومحبة الحياة وأنوار الأمل، إلى درجة أنّها تذكّرت أغنية عربية كانت تغنّيها الفرقة الموسيقيّة لوالدها، تلك الفرقة الّتي تمّ إرسالها في بعثة إلى القاهرة لتعلّم الموسيقى العربيّة من أجل تطريب السّلطان وبعض الوجهاء العرب والمستشرقين الأوروبّيّين الدّبلوماسيّين والسُّياح والجواسيس، وتشعل لياليهم الحمراء بالأنغام وتكمل شبق استمتاعهم بالحياة المرفّهة في ما يسمّونها أنغوجا جنّة إفريقيا، وعلى الرغم من أنّها لا تعرف جيّدًا كلّ معاني كلمات الأغنية، ولا تعرفُ شيئًا عن شاعرها المتصوّف ابن منصور الحلاّج، أخذت تدندنها بصوتٍ طروبٍ ناعسٍ:

يا نسيمَ الريحِ قولي للرّشا ... لم يزدني الوِرْد إلاّ عطشا
لي حبيبٌ حُبّهُ وَسْط الحشا ... إن يشا يمشيَ على خدّي مشى
روحُه روحي وروحي روحُه ... إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشا

ضحكا، هَوْ هَوْ، شربت الأميرة ومَوانًا وا إمْبُوا، أمّا سُندس فلم يعتد شرب الخمر، بل لم يُسمح له بشربها طوال حياته الّتي قضّاها في خدمة الأميرة، فقد كان عليه أن يكون يقظا الوقت كلّه. عليه ألاّ يسرف في شيء، لا الشّبع ولا الجوع ولا الفرحة ولا الحزن. كان عليه أن يبقى متوازنا ليلًا ونهارًا من أجل سعادة الأميرة وراحتها وأمنها، أمّا هي فلها أن تسرف في كلّ شيء، فهي تعشق الخمر إلى درجة السُّكر وفقدان الوعي، وعليه هو أن يحملها إلى فراشها ويخلع

عنها فستان سهرتها ثمّ يُلبسها بيجامة نومها، ويُرقدها على السّرير، ويضع مخدّة من ريش النّعام تحت رأسها، ثمّ ينام في فراش على الأرض قربها، حتى إذا استيقظت في اللّيل للتبوّل، أحضر لها وعاء قضاء الحاجة، وساعدها على الجلوس عليه، بعد أن يرفع بيجامتها قليلًا حتى لا تلوثها، يباعد بين ساقيها برفق وصبر، وينتظر إلى أن ينقطع صوت خرير البول المتدفّق من أحشائها الثّملة، ثمّ يأتي بماء دافئ ويغسل ما بين ساقيها بكفّه اليسرى، وبأصابعه ينظّف ما علق منه على عضوها مع مرور الماء الّذي يصبّه بيده اليمنى، ثمّ يجفّف الموضع كلّه بمنديل من القطن ويحمل جثمانها المخمور شبه الميّت على ساعديه القويّين عائدًا بها إلى سريرها الوثير، ويظل يربّت على كتفها إلى أن تنتظم أنفاسها النّاعمة، فالأميرة لا تصدر شخيرًا أثناء النوم، بعد ذلك عليه أن يعود إلى مفرشه لينام ولكن على وجل، فكيف لرجل يتعاطى الخمر أن يقوم بذلك، فالخمر للسّادة وليست له.

نعسوا، فنامت الأميرة على حجر سُندس الذي أعطى ظهره للشجرة، أما مَوآنا وا إمْبُوا، فقد رقد قريبًا من الرماد بعد أن شرب كثيرًا حدّ الثّمالة، رقد متوسّدًا معدّاته الرّجوليّة من حربتين وفأس ومُدية، بينما يعلو شخيره مثل صفّارة باخرة حربيّة إنجليزيّة عجوز تمخر المحيط. حَلم بأمّهِ كما يفعل كلّ ليلةٍ. وأمّهُ هي الكلبةُ الّتي كان يمتلكها جدّه الأعمى.

المركبُ

هكذا يفكّر الشّخص الّذي تستهويه العبوديّة، ومن ثمّ يخمل عقله عن التّفكير السّليم، القتلى لا يغفرون يا سُندس، ولا ترتاح أرواحهم أبدًا ما لم ينل قاتلهم الجزاء المستحق، ولكنّني أعذرك، المُهمّ عندما تكون في أنغوجا أرجو منك أن تتذكّر ما قلته لك، وإذا فكرت في الثّورة، هنالك من يمكنك الاتصال بهم، أنت تعرفهم ولكنّك لم ترهم، حاول رؤيتهم، الآن قد كمل المركب وجهز للإبحار.

في الصّباح الباكر، وعلى ساحل البحر، تذكّرت الأميرة قصرها المنيف، شرفتها المطلّة على المحيط الّذي لا ينتهي، إلاّ بشراعات السّفن العملاقة، وأسراب طيور النّورس، وأمواج الشّتاء الشبيهة بجبال عملاقة من الماء والضّوضاء، فالتهب صدرها شوقا، وأخذت تجري على الرّمال مثل طفلة نزقة اكتشفت فجأةً أنّها فراشة وبإمكانها الطّيران، ثمّ جلست على صخرة صغيرة وأخذت تغسل جسدها بالماء وهي تدندن بأغنيات سواحيليّة حفظتها مُنذ الطّفولة المبكّرة، وبين الفينة والأخرى تصرخ بجنون: أنغوجا أشتاق إليك.

كان سُندس ومَوآنَا وا إمْبُوا يعملان على قطع جذع شجرة، ينويان صناعة مركب صغير منها لكي يعبروا إلى جزيرة بيمبا. كانت تطوف بذهن سُندس أحوال عبوديّته الّتي دفع بها مرأى البحر إلى ذاكرته، ومرّ بخاطره اليوم الّذي عبره فيه وهو طفل على مركب النّخاسة. كان هو وأبوه مربوطين بحبل واحد يلتفّ حول عنقيهما، لم تكن هنالك أمواج، ولكنّه يتذكّر الأسماك الطّائرة إذ تقفز من الماء وتحلّق قليلا ثمّ تعود، وتذكّر طيور النّورس وهي تصرخ على سارية المركب الشراعيّ المثقل بما يقارب عشرين من الأسرى، وأربعة رجال سود مسلّحين بالحراب الّتي تطلق النّار وهم على أهبة الاستعداد، ونخّاسًا واحدًا يحمل أيضًا حربة تطلق النّار معلّقة دائمًا على كتفه، وفي يده سوط من جلد فرس البحر لا يتردّد في استخدامه

لضرب ظهور الأسرى العارية، وقد نال سُندس منه عدة مشقّات ساخنات، وهي المرّة الأولى الّتي يُضرب فيها، ولكنّه ظلّ صامتا ولم يصرخ، تمامًا كما فعل الكبار الّذين ضربوا من قبله. كان كلّ همّه في ما سيحدث له بعد ذلك، فقد تكلّم النّاس في القرية عن أشياء أكثر إيلاما، أشياء عندما يفعلها النّخاس بالرجل، يفقد بعدها القدرة على الإنجاب أو التبوّل كرجل. سيتبوّل جالسًا مثل النّساء، ثمّ يتحوّل مع مرور الزّمان إلى سيّدة في صورة رجل يستخدمها النخاسون.

لا يتركه مَوانًا وا إمْبُوا يبحر في مركب آلامه حتّى النّهاية. كان يتكلّم بصورة متواصلة أثناء عمله بفأسه في الخشب لصناعة المركب الصّغير جدًا، كان يحدّثه عن الثّورة والتّغيير الّذي سيحدث حتمًا في أنغوجا وفي البرّ الإفريقيّ، يحدّثه عن السّلاح ويقول له بين وقت وآخر:

-وحينها لن نغفر.

حدّثه عن رجالٍ يزورون القرية من وقت إلى آخر، يدعون الناس للانتظام في دين جاء به البرتغاليّون قبل سنوات كثيرة، ولكنّ الناس يقولون إنّ من يتبع ذلك الدّين يصبح شرّيرا مثل البرتغاليّين. قال لهم جدي ذات مرة: الشّجرة تعرف من ثمارها، قالوا له إنّ الشّرّ في الإنسان لا في الدين، ولكنّ جدّي حدّثهم عن قوم بيض آخرين في البرّ الإفريقيّ لهم نفس الدّين الّذي يتحدث عن التّسامح والمحبّة والغفران، ولكنّهم لا يتردّدون في قتل الأفارقة، وهمّهم الأكبر هو الحصول على الماس والذّهب وشيء لاصق يستخلصونه من بعض الأشجار، ويبترون أطراف كلّ من يرفض العمل معهم مدى الحياة

دون مال، يسمّونهم البلجيك.

- لن نغفر.

وقال له بينما يعمل بقوّة في نحت الخشب:

لدينا سلاح، ولكنّه غير كاف، ولكن لدينا الشّعب، الكثرة تغلب السّلاح، ولدينا الإرادة، وأنا بالذّات لديّ من الشّرّ ما يكفي لهزيمتهم. لديّ رغبة كبيرة في الانتقام، أمّي تأتيني كلّ يوم في الحلم وتسألني: لماذا أنت نائم؟!

كان سندس لا يتحدّث كثيرا، فلقد اعتاد الصّمت طوال حياته، فهو يسمع جيّدًا، ويحبّ أن يسمع، لم تكن لديه أفكار محدّدة بشأن ما سيحدث ولا كيف سيحدث. الأخبار الّتي أتت عن السّلطان يعتبرها عظيمة جدًّا، وتلك هي نهاية نظام العبودية، ولكن لا يتخيّل مجرّد خيال أنّ الأفارقة سيحكمون بلادهم. إنّ قوّة السّلطان ومكره الّذي يعرفه لا ينتهيان، سينهض السّلطان مرّة أخرى ويهزم الإنجليز. يعرف أنّ العرب قد هزموا البرتغاليّين في البرّ الإفريقيّ من قبل، ورموا بهم في المحيط. إنّه يريد أن يرى بعينه ما وصل إليه حال السّلطان حتى يصدق ما يُقال؛ من الاستحالة أن يستطيع شخص ما أن يخصي السّلطان ولا حتّى الرّبّ الّذي يسمع عنه كثيرًا، ولا السّحرة الّذين يؤمن بهم، إنّ السّلطان نفسه ساحر، وهو أكبر السّحرة، ولديه خدّام من الجنّ!!

كانوا يأخذون وقتا للطّعام، ووقتا لصيد الأسماك، وكلّ وقتهم للحكايات وصنع المركب الصغير من ساق شجرة مهوقني شابة، وهو عمل متعب جدًّا وخاصّة بالفأس. يحتاجان إلى أدوات أخرى،

إلاّ أنّ مَوانَا وا إِنبُوا كان يؤمن بأنّ ما لا تستطيع فعله بأدوات قليلة لا تستطيع فعله بأدوات كثيرة، هو هو هو.

-هل تعرف المغنّية أوهورو؟

-نعم أعرفها.

أضافت الأميرة الّتي كانت في ذلك الوقت مشغولة بمحاولات يائسة من أجل التخلّص من أشواك الأسماك:

-أنا أحبّها جدًا، ولو أنها غريبة ولا تخجل من إظهار عريها للعامّة.

-هو هو هو.

قال سندس :

-كانت الأميرة تأخذني إليها دائمًا في طريقها للتسوّق، أعرفها من بعيد، ولكن يُقال إنّها آوت كلّ العجائز الّذين أتت بهم باخرة مجهولة وألقتهم في ساحل أنغوجا، كانوا مرضى ولا يجدون ما يأكلون، لقد أخذتهم إلى بيتها، سمعت الحرّاس يقولون ذلك.

-هو هو هو.

ثم أضاف وهو يبتلع قدرا كبيرا من لحم السّمك بفمه الشّاسع، وكان يأكله بشوكه مباشرة:

-كان والدها عظيمًا، إنّها ملكة بنت ملك ابن ملك.

قالت الأميرة وهي تنظر في عمق المحيط، وكأنّها تريد أن تشاهد قصرها القابع على السّاحل الآخر في مكان ما تراه بقلبها الآن:

-عندما نعود إلى أنغوجا سنهتمّ بها، وسأهتمّ بهم أيضًا.

قال مَوانّا وا إمْبُوا بهدوئه المعتاد:

-أليست ممبسا خيرًا لكما؟

قالت الأميرة بسرعة:

- لا، أريد أن أرى أبي، أحبّ أن أعيش في أنغوجا بلدي، ويعيش معي سندس، سنتزوّج في أنغوجا، قبل أبي أم لم يقبل، سأبقى إلى الأبد مع سُندس.

صمت مَوانّا وا إمْبُوا لوقت طويل، ثمّ مضغ آخر قطعة من السّمك، وطلب من سندس أن ينهض لمواصلة العمل في صناعة المركب الّذي شارف على الانتهاء، بينما طلب من الأميرة أن تحاول صيد سمكة أخرى: الصّيدُ متعة عظيمة.. هو هو هو.

قال لسندس وقد توقّف لحظة عن العمل:

-سندس، أقول لك، أنت رجل قويّ جدًّا، عليك أن تحافظ على حريّتك، وعليك أيضًا أن تفكّر بجدّيّة في الانتقام، وإلا ستبقى كما كنت، لا ربّ يستطيع أن يعيد إليك ذكرك، أنت الّذي تستطيع إعادته بنفسك، قد لا نلتقي بعد هذا اليوم، والمركب الآن قد شارف على الانتهاء، ولكن إذا أردت أن تصير حرًّا، فإن ذلك قرارك الشّخصيّ.

قال له سُندس بعد صمت قصير:

-أنا الآن حرٌّ.

قال مَوانّا وا إمْبُوا وقد جلس على المركب:

-الحرّيّة ليست عندما تكون بعيدًا عمّن هم سادتك، الحرّيّة هي

أن تكون أنت السّيّد، ولا يحدث ذلك إلاّ بتضحية كبيرة، أقصد أن تتخلّص من كلّ ما يقيّدك، وأوّل ذلك الأميرة نفسها.

قال بعد صمت قصير:

-ولكنّها جزء منّي، إنّها حريّتي، أنا والأميرة شيء واحد.

صمت مَوانًا وا إمْبُوا قليلًا:

-أعلم أنك قد غفرت لأبيها كلّ ما فعله بك وبأبيك وأهلك من أجلها، هكذا يفكّر الشّخص الّذي تستهويه العبودية، ومن ثمّ يخمل عقله عن التّفكير السّليم. القتلى لا يغفرون يا سُندس، ولا ترتاح أرواحهم أبدًا ما لم ينل قاتلهم الجزاء المستحقّ، ولكنّني أعذرك، المُهمّ عندما تكون في أنغوجا أرجو منك أن تتذكّر ما قلته لك، وإذا فكرت في الثّورة، هنالك من يمكنك الاتصال بهم، أنت تعرفهم ولكنّك لم ترهم، حاول رؤيتهم، الآن قد كمل المركب وجهز للإبحار.

-شكرًا لأنك ساعدتنا.

-لديّ أمل كبير في أن تفهم ما قلت لك، وتعمل من أجل الشّعب، لذا أنا صنعت هذا المركب، من أجلك أنت بالذات.

-أسانتي سانا.

-كاريبو.

لم تستطع الأميرة صيد سمكة أخرى، لأنّها لم تحاول، لقد قال لها والدها من قبل: «إنّ أمّك توفيت عندما اصطادت فيلة، وكانت تلك الفيلة الأخيرة في أنغوجا، أصابتها في مقتل ببندقية الصيد، فأتت

روح الفيلة واضطجعتْ على صدر أمّكِ وكتمت أنفاسها، فانتقلت روح أمّك المسكينة إلى الجنّة، أنا لا أحبّ الصّيد.»

«المركب الصّغير يحمل شخصين فقط، البحّار وشخص واحد، المسافة إلى الجزيرة تبعد ميلين فقط»، أبدى مَوآنَا وا إمْبُوا استعداده للقيام بالرّحلتين، «عليكما أن تختارا، من يذهب أولًا، سينتظر الآخر هنا، المكان هنا آمن جدًا، ولقد حدّثتني من قبل أنّك لا تستطيع قيادة المركب، خاصّة أنّه مركب صغير يحتاج إلى مهارات عالية حتّى لا ينقلب، وأنتما لا تجيدان السّباحة، ستغرقان مثل حجرين كبيرين ويبتلعكما البحر. ولو لم أكن أعرف أنكما كذلك لتركتما تبحران وحدكما. هنالك ستجدان الصّيّادين، وهم يأخذونكما لأنغوجا، وهي ليست بعيدة عن جزيرة بيمبا، ماذا تقولان؟»

سألت الأميرة بصوت مبحوح:

-هل يُوجد صيّادون بالجزيرة الآن؟

-نعم، قد لا تخلو من واحد منهم.

-إذن خذ سُندس أوّلاً، لا أحب أن أبقى مع أشخاص لا أعرفهم، وأنتما تعرفان سلوك الصّيّادين، إنّهم مثل البحارة، أنا سأنتظر هنا.

-هو هو هو، ولكن الأخطر هو ثعبان الأصلة الموجود بكثرة في تلك الجزيرة، على كلٍّ هذا هو الخيار الأمثل، دعنا نذهب. الماء هادئ ولا تُوجد ريح في هذا الفصل أو أمواج، ستستغرق الرّحلة وقتا قصيرًا، أعرف كيف أقود المركب بسرعة، عليك

فقط الجلوس بهدوء واسترخاء وعدم الخوف، تأمّل البحر وثق في البحّار.. هو هو هو. وأنتِ عليك البقاء في هذا المكان على السّاحل، لا تعودي إلى الغابة في كل الأحوال، حاولي صيد بعض السّمكات، أو استأنسي بطيور النّورس، الحيوانات لا تأتي إلى هنا، إنّها لا تشرب الماء المالح، والطيور لا تؤذي أحدًا، أنت تعرفين ذلك، ولأن هذا المكان مهجور فإنّ القرويّين لا يأتون إليه، ولا أظنّ أنّ أحدًا يبحث عنكما عداي، على كلّ حال سأترك لك الحربتين والفأس هنا، وسأحضرُ لأخذك بأسرع ما يكون.

قِصةُ الكلب

استطاع بسرعةٍ رهيبةٍ أن يصطاد سمكة، فكأنّما كانت في انتظاره. رمى صنّارته بقليل من الطُعم، وفي أقلّ من دقيقة ابتلعتها سمكة تونة شابّة كانت تتسكّع على السّاحل، ضرب بالجزء غير الحادّ من الفأس رأسها الكبيرة مرّة واحدة فاستسلمت لقدرها. نظّفها بمديته الحادّة، انتزع أحشاءها ووضعها على حجارة الشّواء السّاخنة الموضوعة فوق الجمر ناثرًا عليها بعض الملح، بينما أخذت في النّضج ببطء وهي تخلّص جثّتها من ماء البحر، تُسيلهُ على قطعة الصوان الملتهبة فيتبخّر ليعود من السّماء في سحابات دافئات إلى اليّم في وقت ما، يقولون هنا: ماء البحر إلى البحر.

عندما أبصرت الأميرة المركب وهو يبحر نحوها من بعيد، كأنّه يخرج من عمق اليمّ، سعدت جدًا وأخذت تلوّح بيدها تارة، وبالحربة والفأس تارة أخرى، تكاد تطير من فرط سعادتها. لم يتأخّر كثيرًا في العودة، ولو أنّها كانت قلقة وخائفة جدًا، وقضت وقتها كلّه تمسك الحربة في وضع الاستعداد لقتال المجهول الّذي تتوقّع أن يخرج من لجّة البحر، أو من بين أشجار الغابة خلفها، أو من نداء طيور النّورس، أو ينبثق حتّى من باطن الأرض مثل البركان، وتحملق في البحر الممتد أمامها مثل بساط قُدَّ من زُرقة السّماء إلى حيث مضى المركب بسندس ومَوانًا وا إمْبُوا. لم تستطع أن تسيطر على خوفها من الوحدة وغرابة المكان، فهي تحبّ البحر، ولكن من شُرفة قصرها، أو في صُحبة سُندس، تحبّ أغاني البحّارة وقصصهم الغريبة، ولكن ليس من أفواههم مباشرة، بل عندما يحكيها لها الآخرون الّذين تعرفهم. ويُمكن القول إنّ لديها فوبيا من الغرباء، أمكنةً كانت أم أحياء أم جماداتٍ. إنها من نوع البشر الّذين يحبّون أن تكون هنالك مسافة كبيرة بينهم وبين الحياة، يكتفون بشمّ عبق الحديقة دون الولوج إليها. ويحبّون هدير الموج وليس ركوبه، وحفيف أجنحة النوارس ولكن عندما لا تحط على نوافذهم، وهؤلاء البشر يعيشون خلف الزجاج.

ساعدته في إرساء المركب الخشبيّ الصغير على السّاحل، كان

جسده مبتلاً بالماء، فالمركب الصّغير أقرب إلى جذع شجرة حُفر قليلاً في الوسط، لا يمكن السيطرة عليه إلاّ بصعوبة ومران طويلين، ولا يجيد قيادته سوى من اعتاد على عيّنة هذه المراكب منذ طفولته المبكرة. لا يستخدم الأهالي في بيمبا وأنغوجا مثل هذا المركب في الترحال إلا في حالة عدم وجود مراكب أخرى، وفي حالات الضّرورة القصوى، فهُمْ يفضّلون مركب التشتاري المحلّي الّذي يصنعونه بسهولة إذا توفّرت لديهم الأخشاب الجافّة الكافية والوقت، أمّا قائد هذا المركب الصّغير فعليه الاستعداد الدّائم لإنقاذ من يركب معه، لذا لا يمكن حمل أكثر من شخص واحد، ولكي يحفظ توازن المركب قام مَوانَا وا إمْبُوا بربط عودين كبيرين جافّين على جانبي المركب، بحبل صنعه من سعف نخيل جوز الهند، بمساعدة سُندس، وعلى المسافر الوحيد أن يجلس القرفصاء ولا يكثر من التلفّت، والأفضل ألاّ يلتفت مُطلقًا، وهذا هو السّبب الّذي جعل مَوانَا وا إمْبُوا مبتلّا، بالإضافة إلى الموجات الصغيرة الفجائية الّتي تتسلّق المركب. فقد قام مَوانَا وا إمْبُوا بإنقاذ سُندس من الغرق، سقط سُندس في اليمّ مرتين وهو يحاول أن يلتفت إلى الخلف ليرى الأميرة، على الرغم من أن مَوانَا وا إمْبُوا حذره مرارًا وتكرارًا من مغبّة الالتفات إلى الخلف بجسده كلّه، ولكن كما يقولون: «المُحبُ ليس لديه وازع».

كانت على أهبة الاستعداد لركوب المركب، إلاّ أنّ مَوانَا وا إمْبُوا طلب منها السّماح له بأن يستريح قليلًا، وأخبرها أنّه يريد أن يأكل بعض السّمك:

«لقد أتعبني سُندس كثيرًا، لولا أنّ حياته تهمّني جدًا، لتركته

يغرق، هو.. هو.. هو.. سيكون لهذا الرّجل دور كبير في الثّورة، إنَّ الألم الّذي أصابه، وما سيصيبه في المستقبل كبير جدّا، أتنبّأ بأن يكون له شأن، فالآلام الكبيرة تصنع شخصًا عظيمًا .. هو.. هو.. هو.»

استطاع بسرعةٍ رهيبةٍ أن يصطاد سمكة، فكأنّها كانت في انتظاره. رمى صنّارته بقليل من الطُعم، وفي أقلّ من دقيقة ابتلعتها سمكة تونة شابّة كانت تتسكّع على السّاحل، ضرب بالجزء غير الحادّ من الفأس رأسها الكبيرة مرّة واحدة فاستسلمت لقدرها. نظّفها بمديته الحادّة، انتزع أحشاءها ووضعها على حجارة الشّواء السّاخنة الموضوعة فوق الجمر ناثرًا عليها بعض الملح، بينما أخذت في النّضج ببطء وهي تخلّص جثّتها من ماء البحر، تُسيلهُ على قطعة الصوان الملتهبة فيتبخّر ليعود من السّماء في سحابات دافئات إلى اليمّ في وقت ما، يقولون هنا: ماء البحر إلى البحر. سأل الأميرة بصوته الناعم الهادئ:

-لم تسأليني لماذا يطلقون عليّ ابن الكلبة «مَوآنَا وا إِمْبُوا».

أجابت الأميرة وفي فمها ابتسامة شاسعة:

- لأنّك عندما تضحك تصدر صوتًا مثل نُباح الكلاب.

قال لها مندهشًا :

-لم ألاحظ ذلك، معقول.. هو.. هو.. هو..

أحسّت الأميرة بالحرج فاعتذرت:

-أنا أمزح، ولكنّ ضحكك غريبٌ جدًّا .

فضحك مَوآنَا وا إِمْبُوا، بل نبح كما يفعل دائمًا.

«سأحكي لك القصّة الآن، كدتُ أحكيها لسُندس بينما كنّا نبحر نحو الجزيرة، وأردت أيضًا أن أحكيها له قبل أن أودّعه، ولكنّني لم أفعل. في الواقع حكيت لسندس بعضها، أي الجزء الّذي يخصّه هو، أمّا الحكاية كاملة فهي تخصّك أنت بالذّات، كأنّها في انتظارك، أو كأنّما أنت في انتظارها، أقصد أنّ الحكاية ذاتها هي الّتي هيأت لنا هذا اللّقاء وهي ذاتها الّتي جاءت بك إليَّ، ووضعتك في طريقي. يقول أهلنا إنّ للحكايات أرواحًا، وإنّها تحيا وتموت ولها قوة الإعصار أيضًا .. هو.. هو.. هو..، أأحكيها الآن أم بعدما نأكل؟ على كلّ حال، أنا جائع، ورائحة الشواءِ تزيد من جُوعي أكثر.. هل أنت جائعة أيضًا ؟ على كل حال.. القصّة ليست طويلة، إنّها حياتي القصيرة المؤلمة.»

قالت الأميرة:

«أنا متشوّقة لسماعها، لقد شوّقتني إليها طالما قلت إنّها تخصّني، كُل واحكِ! أنا لستُ جائعة.»

«حسنًا»، قال بينما يقلب السمكة على جانبها غير الناضج، وهو يحملق في الحجر السّاخن الّذي يصدر دخانًا طفيفًا شديد البياض:

«حدث ذلك بعد ميلادي بأسبوعين، كما حدّثني جدّي وكلّ شخصٍ من الكبار في القرية. ما سأحكيه لك حكاهُ لي كثيرون، وباستمرار، كأنّهم يخشون أن أنساه في يوم ما، وأنا لم أحكه في حياتي إلاّ لك، وستكون تلك آخر مرة. تلك الأيام كانت وقت حصاد اليام، وأمّي في مزرعتها الصّغيرة مع أبي وأخريات وآخرين من أقربائها في القرية، ولأنّني كنت صغيرا جدًّا، وضعتني في سلّة

من سعف نخيل جوز الهند، تحت شجرة ظليلة، بعدما نظّفت الأرض حولي من العُشب. أمّي كانت صغيرة وأنا طفلها الأوّل، ربّما يكون عمرها في ذلك الوقت حوالي سبعة عشر عامًا أو أقلّ، النّاس هنا يتزوّجون في أعمار صغيرة. أبي أيضًا كان في العشرين من عمره. بصراحة لا أدري كيف أحكي لك.»

قالت له:

«احك كما اتّفق، أنا أستمع إليك.»

قلب التّونة مرّة أخرى، وضع حجرين ساخنين صغيرين في أحشائها، وحجارة أخرى أصغر حجمًا نثرها على جثّة السّمكة كلّها.

«باختصار، فجأة هجم النّخاسون، وأخذوا الجميع في لحظات قليلة، كما يفعلون دائما، لم يأخذوني لأنّهم لم يروني، يبدو أنّني بقيت هنالك لوقت طويل من الزّمن، ويبدو أنّني صرخت كثيرًا وبكيت كثيرًا، وجعت وعطشت وشارفت على الموت، ولكنّ كلبة جدّي كانت هنالك. بقيت قربي، وأرضعتني مع جرائها، لقد كان لها أربعة جراء صغيرة، وهي وجراؤها يتبعون الأسرة حيثما ذهبت كعادة كلاب القرية، ولكنّ ما فعلته الكلبة كان أكثر من ذلك، ذلك أنّها حملت سلّة السّعف بفمها، وأعادتني إلى القرية، إلى بيت جدّي، لقد أصبح جدّي وحيدا بعدما أخذ النخّاسة ابنته الوحيدة الّتي هي أمّي، وكانت جدّتي قد ماتت قبل أعوام قليلة. قيل إنّها ماتت مسحورة، جدّي لا يدرى ماذا يفعل بي، طلب من نساء مرضعات أن يأخذنني، فرفضن جميعهن. طالما أنّ كلبة أرضعتني طويلا، فلا يمكن أن يضعن

صدورهن في فمي. ولكن جاء الحلّ من الكلبة الّتي كانت تتسلّل إلى مرقدي وترضعني. جدّي كان يعرف ذلك، ويباركه أيضًا، لإدراكه أنّ الحيوانات أنبل من البشر في أحيان كثيرة. في ذلك الوقت لم يكن قد أصيب بالعمى، أصيب به مؤخرًا. لقد نشأت مع جراء الكلبة وتقاسمت معها لبن أمّها يومًا بيوم، حتّى اشتدّ عودي، وأصبحت أستطيع الأكل. حدث ذلك سريعًا جدًا، ويقال إنّني استطعت المشي في شهور قلائل. وكان جسدي يكبر بها لا يتناسب مع عمري. أصبحت أتبع الكلبة وجراءها حيثما ذهبت، بل تعرفت على جميع كلاب القرية وصرت واحدا منها، لا أظنّني أعرف لغة الكلاب، غير أنّي أفهمها وتفهمني، آمرها وتأمرني، ونقتسم طعامنا، ولا أدري إذا كنت تفهمين أم لا، ولكن لا أخجل أن أقول لك، أنا أضاجع الكلاب أيضًا، قد تكون هنالك سُلالة من الكلاب من صلبي.

ماتت أمّي الكلبة، ومات جراؤها ولكنني بقيت على علاقة مع الأجيال الجديدة من الكلاب. طبعًا إلى جانب ذلك، كنت واحدًا من سُكّان القرية، وهم يحسبون لي ألف حساب، نعم قد أكون عنيفا جدًا في بعض الأحيان، ومحاربًا شرسًا جدًّا، لكنّني لم أكن منبوذًا. كانوا يفهمون علاقتي بالكلاب، ويحترمون ذلك، ويخشون غضبي أيضًا، ما يهم في هذه القصّة هو أنّني وفيّ جدًّا لأمي، وحزين لما حدث لها، أتدرين ماذا حدث لها؟ إنّه والدك، لقد اغتصبها بعد أن أسرها النخّاسون. اختارها من بين السّبيّات الكثيرات، وكانت هزيلة لأنّها نهضت من فراش الولادة إلى

العمل مباشرة. يقول النّاس إنّها نزفت كثيرًا جدًّا، يعرف الجميع أن لوالدك عضوًا أشبه بذكر الضبع. ماتت أمي تحت وطئه، ثم أمر بدفنها في مكان ما.»

قالت الأميرة وقد دخلها الخوف فجأةً:

«آسفة لذلك؛ لقد كان أبي مجرمًا.»

قال بهدوء وهو يقترب منها:

«نعم، لقد كان مجرمًا وقاتلا، ليس لأمّي أيّ ذنب في ما حدث لها. لم ترتكب جرمًا تستحقّ عليه الموت بهذه الطّريقة البشعة.»

«صدقت في ذلك.»

قال لها، وهو يكيل كمّا هائلا من الرّمل على سمكة التونة، بصورة عصبيّة:

«كانت دائما ما تحضر في حلمي، وتطلب منّي الانتقام لها، ويبدو أن وقت الانتقام قد حان، للأسف أنا سأفعل بك كما فعل أبوك بأمّي، سأنكحك إذا قبلتِ ذلك بإرادتك، ثم أقتلك، وإذا لم تقبلي أيضًا سأغتصبك ثمّ أقتلك، لقد فكّرت في ذلك منذ اللّحظة الّتي أخذك فيها سُندس من القصر، يوم حصلنا على السّلاح من قصرك، عرفت أنّك ستريحين روح أمي، فأنت ابنة السّلطان الّتي لم ترتكب جرمًا في حياتها، مثل أمي، وأنا مثل أبيك، أنا رجل شرّير بقلب كلب، وأبوك رجل شرّير بقلب ذئب.»

نهضت الأميرة فجأةً وهي ترتجف:

«أنا لا ذنب لي، أبي هو الفاعل، أنا لم أقتل أحدًا في حياتي، لم أقتل

نملة. اقتل أبي، إنه يستحق. هذا ليس عدلًا، لا تقتلني أرجوك!»

قال بهدوء وهو جالس على الأرض:

«أمّي أيضًا لا ذنب لها، إنّها لم تقتل نملة في حياتها، بل كانت تتجنب حتى قتل القمل كما قِيل لي. إنها مثلك تمامًا، أنتما بريئتان، وهذا مهمّ جدًّا، دمك سيريح روح أمّي، أكثر ممّا تريحها روح شخص قاتل مثل أبيك السُّلطان، دمه لا يساوي دم أمّي، دمه فاسد.»

قالت وهي تحاول أن تحتفظ ببعض الهدوء:

«الدّم هو الدّم، كما أنّ الماء هو الماء.»

قال بهدوء:

«عندما تهبُّ العاصفة فإنّها تقتلع شُجيرة الحسك كما تقتلع شجرة القرنفل. أنا وأبوك لسنا سوى شُجيرتي الحسك وأنت وأمي شَجرتا قرنفل. والعاصفة هي قدرنا جميعًا، أشرارا وطيبين، كلابا وأرانبَ.»

ونهض فجأةً من مجلسه، و انقضّ عليها مثل النّمر، أمسك بكفه الكبيرة الخشنة يدها، كانت يدها باردة كأنها بلا دم، وفي شرايينها يجري ماء البحر، سقطت مغشيّا عليها على كتفه. أرقدها على رمال الساحل بهدوء. كانت طيور النورس الّتي حطت على مركبه الصغير تصيح بشدة. بخطى سريعة أطلق المركب للموج، راقبه وهو يمضي بعيدًا، وتهبط عليه طيور النّورس مثل قراصنة مسحورين ذوي أجنحة شاسعة يبحرون نحو العدم. عاد إليها، كانت تتنفّس ببطء،

وتتحرّك شفتاها الجافتان كأنّها تهمسان في أذني الرّيح. أخذ فأسه، رمى بها بعيدًا نحو الغابة فغاصت في مكان ما في جوف الرمل. حملق في لجّة البحر. حمل إحدى حربتيه وأطلقها نحو موجة صغيرة قادمة إلى السّاحل فابتلعتها اللّجّة. أمّا الحربة الأخرى فأطلقها عموديًّا نحو السّماء، حلّقت لثوان ثم انقلبت راجعة ليغوص نصلها في الرمال عند مكان ليس ببعيد عنه. أحسّ بأن دقات قلبه تسرع، وبأنّ الدم يفور في شرايينه مثل موج تعبث به عاصفةٌ شديدة المراس. كان غاضبًا أو خائفًا أو الاثنين معًا. حملها مرة أخرى بيدين مرتجفتين، وضعها على ضخرة صغيرة ليست بعيدة عن الماء، ثم تمتم بما يشبه الصّلاة:

«دمكُ دمُ أمّي،

دمُ أمّي دمك،

دمكُ دمُ أمّي،

دم أمّي دمك،

اغفر لي يا جدي، لقد خدعتك، سامحني يا سُندس، لقد خدعتك، سامحني يا قلبي، فإنّني لن أكون رحيمًا، روحُ أمي تنتظر الآن. القتلى لا يغفرون، تقول لي أمي كلّ يوم في الحلم: أريد أن أرتاح. ولا ترتاح أرواح المقتولين أبدًا ما لم يُقدّم إليهم الدّمُ المستحق. سامحيني أيّتها السّيّدة، ليس لديّ خيار آخر، لم يترك أبوك لي خيارًا سوى الدم. إنَّ خلاصي هو خلاصك أنت أيضًا، ولا يساوي دم أمّي سوى دمك. لو كنت شريرة فاسدة لنجوت، فالنّقاء الّذي في قلبك قدّمك قربانًا لتحرير روح أمي من بئر ظلم أبيك.

إذا لم تكن هي عدالة الرّبّ فهو ظلم الشّيطان، وما أنا سوى يد للاثنين معًا : لقد قبلت التّكليف.»

ثم صاح بأعلى صوته: «سماهاني.»

الشرُ الّذي في قلبِ الإنسان

هذا أكثر مما أستحقه ثمنا للرّحلة، ولكني أحتاج إليها. بثمنها سأكمل زواجي، لقد دعوت الله كثيرًا من أجل أن يكمل لي زواجي، والآن أرسلك الرّبّ إليّ، الله لا ينسى عبيده، هكذا قال الرسول الكريم نبينا محمد.

عرف سُندس أنّ هنالك شيئا غريبًا يحدث للأميرة، كلّمه قلبه، كان الزّمن يمضي بطيئا جدّا، وهو يحملق في الأفق، يحملق في البحر بحثا عن مركب مَوانا وا إمْبُوا أن يأتي من اتجاه اليابسة، يظهر له الشاطئ الآخر في شكل كتلة كبيرة داكنة، وتبدو أشجار الغابة مثل صخور عملاقة سوداء، ظلّ ساعةً من الزّمان في الانتظار القاتل، وأخيرًا ذهب إلى أحد الصيادين وطلب منه أن يأخذه إلى البرّ، وقال له:

«سأعطيك حلقتي الذّهب اللّتين في أذني.»

قَلَّب الصيادُ الحلقتين في كفه. شمّهما. ربطهما جيّدًا في طرف عمامته الصّغيرة، وقال له وعلى فمه ابتسامة بُنّيّة اللّون كالتّبغ:

«هذا أكثر ممّا أستحقه ثمنا للرّحلة ولكنّي أحتاج إليهما، بثمنهما سأكمل زواجي، لقد دعوت الله كثيرًا من أجل أن يكمل لي زواجي، والآن أرسلك الرّبّ إليّ، الله لا ينسى عبيده، هكذا قال الرّسول الكريم نبيّنا محمّد. وعندما يشاء الرّبّ أن يرزق صيّادًا فإنه يرسل إليه رجلا ليهديه حلقات من الذهب في جزيرة نائية: شاويري يا موجود، الحمدُ لله.»

ثم أضاف وهو ينظر إلى اليابسة في السّاحل الآخر من اليمّ:

«يأخذ منّا البحر ساعةً من الزّمان تقريبًا، بسم الله الرّحمن الرّحيم، اركب.»

عندما اقترب المركبُ من الشّاطئ استطاعا أن يريا على صخرة قريبة جسما يرقد عاريًا، وبالقرب منه أيضًا يرقد جسمٌ آخر، تبيّنا من أمتار قليلة جسد الأميرة، وأيضا جسد حيوان عملاق أشبه بالكلب الّذي وصفه له الزعيم فيما قبل، ذلك الكلب الّذي يحرس كهوف الرّبّ. كان يرقدُ قربها في استرخاء تامّ أو كأنّما يمضي في نوم عميق. وعندما وضع سُندس رجليه على رمال السّاحل بمساعدة الصّياد، اتضح لديه الأمرُ تمامًا، صاح بأعلى صوته:

«الكلب!!»

حينها تحرّك الكلبُ الضخمُ، نظر إليهما بعينين محمرّتين ناعستين، وبخطواتٍ سريعةٍ مضى نحو الغابة، وهو ينبح: هو.. هو.. هو..

صاح الصيادُ وهو يرتجف من الرُعب:

«أعرف هذا الكلب. إنّه كلبُ البئر الملعونة، بئر الرّبّ!!»

ردّ عليه سُندس في اقتضاب وهو يمضي بسرعة نحو الأميرة المسجّاة على الصّخرة.

«إنّك لا تعرفه. إنّه الشرُّ الّذي في قلب الإنسان!!»

تحَسّسَ سُندسُ الأميرةَ بأناملهِ المرتعشة. كان جَسدها باردًا. في أنفها تيبّسَ بعضُ الدّم القاني. على شفتها وصدرها آثار عضّات أنيابِ الكلب. يتناثر وبر شَعره منتظمًا على جسدها كُلّه. بين سَاقَيها خَيطٌ مِنْ الدمِ الجافّ مختلط بسائلٍ مَنوي مُتجمّدٍ مِثل اللّبن المُتخثّرْ. جلس على الصخرة، أحنى جسده على رأسها، سقطت دموعُه على وجهها. وهمس في أذنها بصوت مشروخ: «سماهاني».

«في التاريخِ، كما في الطبيعة، التعفُّنْ مخبرُ الحياة»

كارل ماركس

عبد العزيز بركة ساكن

سالفلدن 18-6-2017

الفهرس

الجنحيم 7
البنتُ تعشقُ 15
الأبُ يمتلكُ 29
قصرُ الأب 39
قصرُ البنت 49
الأسيرُ يُطيعُ 59
صراعُ العاشقِ والسيد 83
الساحرُ 91
الثوارُ 101
كلمات قوية قالها رجلٌ ضعيف 111
الدولة تُدير نَفسها 119
الأميرة في البرِّ الإفريقي 137
فِي الحُبِّ والحرية 151
الروحُ الناقصةُ 163

مجلسُ القرية الاستشاري 191
الطريق إلى الرب 207
السجناءُ ينتقمون 219
العُميان 235
الخراب 251
المُحبُّ ليس لديه وازع 267
سِفرُ الخُروج 281
مَوَانَا وَإِمُبُوا 291
المركبُ 305
قصّة الكلب 315
الشرّ الذي في قلب الإنسان 327

بركة ساكن

سماهاني

نصّ مفتوح على التاريخ، يستلهم منه دون أن يحاكيه. أحداثُه تدور في جزيرة زنجبار بإفريقيا، وزمانه ذاكرة الاستبداد التي لم يوصد بابُها بعد.

مَن يَمْلِكُ مَن؟ من أين جاءت الحرّيّة إلى إفريقيا؟ وهل وصلت فعلاً؟ هل كانت هديّة على طبق بمدافع بريطانية وفرنسية وألمانية؟ أم ثورةً وثمرةَ نضال لأرواح كابدت الشقاء وأنهكها التعذيب حتّى تاقت نفوسها للانعتاق؟ كيف يعيش ملك دون أسرى يبجّلونه؟ وكيف يعيش الأسرى المحرّرون دون مالكين يسحقونهم؟

سماهاني، إبداء أسف وطلب اعتذار بعد أن نكتب السّؤال الأخير، لماذا الآن؟ ليس عليك أن تقرأ الأحداث الماكثة في النصّ وتستشرف خاتمتها فهي تقدّم نفسها دون مراوغة، بل إنّ الكاتب لا يتردّد في وضع الفصل الأخير في منتصف الرواية وكأنّ النهاية لا تعنيه، ولكن مطلب الحكاية الأكيد هو التفكير في ما يقبع خلف تلك الأحداث من أفكار وإعادة النظر إلى أنفسنا بكلّ جرأة في مرآة الذات.

حالما تفتح هذه الرّواية تفتح دفترًا غابرًا في هذا الزمن المفتوح الملغز الفاضح، وتعيد طرح السّؤال: هل نحن من يمشي؟ أم تتحرك تحت أقدامنا الطريق؟